«سلسلة الأقارب والطفل في المجتمع الشرقي المعاصر»

واقع الحرب
وانعكاساتها على الطفل

حالة خاصة :
الطفل اللبناني





جروس برس


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«سلسلة الأقارب والطفل في المجتمع الشرقي المعاصر»

واقع الحرب
وانعكاساتها على الطفل

حالة خاصة :
الطفل اللبناني

إعداد
د. كريستين نصار

جروس برس

الطبعة الأولى

١٤١١هـ - ١٩٩١م



جروس برس

طرابلس - لبنان

محتويات الكتاب

مقدمة

هناك حاجة تفرض نفسها اليوم نتيجة الأحداث الدائرة في معظم بلدان العالم وتكمن في معرفة النتائج السلبية المحدثة عند الأطفال لكونهم يعيشون في جو مشحون بأحداث الحروب التي يصنعها الراشدون مع ما يرافق ذلك من تأثيرات سلبية على مختلف الأصعدة: الإجتماعية، الثقافية، الإقتصادية... وخاصة النفسية منها والعلائقية كي نستطيع مساعدتهم على تجاوز الصعوبات التي تعترض تطوّرهم ونموّهم الطبيعيّين.

والكشف عن هذه التأثيرات لا يتوفّر عن طريق الدراسة النظرية، الضرورية حتما، إنما غير الكافية نظرا لحاجتنا إلى بلورة معاش الطفل من جهة وإلى تحليل كل العوامل المؤثّرة على نفسه خلال بناء شخصّيته وتطوّر نموّه المعقّدين حتّى في حالة السلم فكيف هما، إذًا، في حالة الحرب التي من شأنها مضاعفة الصعوبات والتعقيدات من جهة أخرى.

كذلك، يتطّلب الكشف عن هذه التأثيرات بحثاً علمياً معمّقاً يتناول إطاري: الحرب والعلاقات الأسرية.

كثيرون هم العلماء الذين تطرّقوا لموضوع الحرب بشتّى مظاهره: النفسية والإجتماعية والفلسفية والدينية والسياسية والإديولوجية وغيرها...؛ كما أنهم تطرّقوا لموضوع العلاقات الأسرية القائمة بين الطفل ومحيطه الأسري بشكل عام وبينه وبين والديه بشكل خاص ولكن، للأسف، لم يتعدّوا غالباً الإطار النظري رغم الحاجة المعاصرة والملحّة لدراسات تحليليّة وعلمية في هذه المجالات.

لا يزال مجمل العلماء(خصوصاً الشرقيون منهم) يتّبعون في أبحاثهم نفس

المنهج التقليدي المعتاد سابقاً رغم التحوّلات المدهشة التي شهدتها المجتمعات المعاصرة كما لو أن الأزمات (الأخلاقية والنفسية والإجتماعية. . .) التي عاشتها وتعيشها هذه المجتمعات لم تحدث إنقلاباً ملموساً في المعايير والمفاهيم السائدة.

يفرض علينا الإنصاف في الحكم ذكر العلماء الذين أعادوا النظر في دور الأهل، مثلاً، على ضوء التغييرات التي حدثت بالنسبة لمواضيع متعدّدة كالإعتراف بحقوق الإنسان والتوزيع الكلاسيكي لأدوار كلٍّ من الأب والأم داخل ثنائي الوالدين le couple parental وقد إضطرهم لذلك التطور الحاصل في ظروف الحياة الإجتماعية عامةً وفي وضع المرأة الإجتماعي خاصةً. كما أنّهم تناولوا، أيضاً، موضوع الحرب بمجمل مظاهره.

لكن مجمل الدراسات بقيت نظرية أكثر منها عملية إذ إكتفى العديد من العلماء بعرض بسيط للظاهرة الملاحظة دون اللجوء إلى دراسات تجريبية ميدانية تهدف أساساً إلى استنتاج علمي ينطلق من الإطار الشامل والأسباب التي تسمح بفهم تلك الظاهرة فهماً موضوعياً متكاملاً.

من هنا ندرك سبباً من الأسباب الرئيسية التي أدّت إلى إستمرار سوء الفهم القائم: بين المجتمعات (التي تعيش اليوم أجواء حروب تزداد إنتشاراً يوماً بعد يوم) من جهة، وداخل المجتمع الواحد ما بين الأفراد عامّة وبين جيلي الأهل والأولاد خاصةً (كلّ منهم يعتبر نفسه غير مفهومٍ من قِبل الآخر) من جهة أخرى.

من شأن سوء الفهم هذا توتير الأجواء وتغذية الصراعات المتعدّدة التي تنتاب مختلف المجتمعات والأجيال.

لا غلوّ في ما ذكرناه إذ تكفي إستعادة بسيطة للماضي عبر الدراسات التي أجراها معظم العلماء حول الحرب والعلاقات الأسرية كي ندرك مدى تقصيرهم في إبراز أهمية عوامل متعدّدة تؤدّي دوراً هاماً في إحداث الإضطرابات التي تنتاب مختلف المجتمعات بشكل عام والطفولة بشكل خاص. إننا لنعجب، مثلاً، لدى قراءتنا لهذه الدراسات، من إهمال هؤلاء العلماء لدور الأب ووظيفته

في نمو الطفل بشكل عام وفي ظهور الأعراض النفس ـ مرضيه لديه بشكل خاص؛ كما اننا نستغرب تقصير العلماء عن القيام بدراسات علميّة وتحليليّة للتأثيرات الناجمة عن الحرب إذ اكتفوا، غالباً، بالعرض النظري غير المثبّت إنطلاقاً من التجربة العلمية الميدانية.

مهما يكن من أمر، يمكن القول أن هذه الدراسات، رغم التقصير المشار إليه أعلاه، مكّنتنا من تكوين فكرة قيّمة حول الحرب ودور الأهل فتحت أمامنا آفاقاً واسعة دفعتنا للتعمّق ببحث هذه المواضيع.

لذا سنحاول دراسة هذه المشاكل العالقة بطريقة علميّة قصد التعرف على النتائج السلبية التي تحدثها الحرب في المجتمعات آخذين المجتمع اللبناني كحالة خاصة مع العلم بأننا سنأخذ بعين الإعتبار الإطار الإجتماعي ـ الثقافي والتاريخي ـ الجغرافي والنفسي... الخاص بهذا المجتمع: ممّا يعني أن ما سنورده حول الحرب ينطبق على المجتمع اللبناني ولا يمكن تعميمه على المجتمعات الأخرى الاّ إذا وُضِع ضمن الإطار الثقافي ـ الإجتماعي الخاص بها لأن التصّرفات التي نلاحظها عند الأفراد لا تشكّل طاقات بشرية كامنة وموروثة فحسب بل تتّخذ مدلولاً خاصاً بها ضمن إطار ثقافة إجتماعية معيّنة تفسّر مضمونها.

وبالإضافة إلى ما ذكر، هناك أسباب أخرى متعددة دفعتنا للقيام بهذه المهمّة الصعبة يكمن أهمها في: ـ الحاجة الماسة لتحليل وكشف الأسباب العميقة الكامنة وراء ظهور الأمراض النفسية عند الطفل الذي يعيش ضمن أجواء الحرب.

– الواجب الذي يدعونا، ضمن حدود مهنتنا طبعا، لمحاربة التأثيرات النفسية التي تنعكس سلباً على الأطفال نتيجة تأثيرات الحرب من جهة، ونتيجة خيبات أمل الطفل الناجمة عن إخفاق والديه في القيام بدورهم إلى جانبه، وبشكل إيجابي، من جهة أخرى.

– الحاجة لحصر الإطار العام الذي تندرج ضمنه ردّات فعل الطفولة

الناشئة عن الوضعيات المشار إليها (وضعيّة الحرب التي تعيشها ووضعيّة خيبة أملها من جرّاء إخفاق الأهل في خفض توتّرها النفسي) والتي من شأنها إثارة الإضطراب النفسي في داخلها (داخل الطفولة) ونزع كل شعور بالطمأنينة عندها.

إذاً، بناء علم خاص بالحرب وبالعلاقات الأسريّة يظهر اليوم، أكثر من أي وقت مضى، كحاجة ملحّة لكونه يشكّل المشكلة الأولى التي يرتبط بحلّها مصير البشرية جمعاء.

هناك، في الواقع، ضرورة تستوجب: من ناحية، سبر أغوار نفس الطفل الذي يترعرع ضمن أجواء مفعمة بالأحداث المؤلمة مع كل ما ينجم عنها من نتائج وخيمة على مجمل الأصعدة: النفسية والأخلاقية والإجتماعية ـ الثقافية... من شأنها التأثير على تطوّره إن بشكل مباشر أو بشكل غير مباشر.

ومن ناحية أخرى، تستوجب هذه الضرورة تحديد دور الأسرة بشكل عام ودور الوالدين بشكل خاص كعامل يبّث الطمأنينة والإرتياح في نفس الطفل التي أنهكتها مختلف المشاعر السلبية المحدثة فيها نتيجة سيطرة جوّ العنف عليها.

تحليل هذه التأثيرات يتطلّب، إذاً، الغوص في أعماق شخصيّة الطفل ونفسه، ولا يتّم ذلك الاّ إذا أخذنا بعين الإعتبار مجمل العوامل التي تؤثّر، بشكل مباشر أو غير مباشر، على نموّ هذه الشخصية. بمعنى آخر، لا يمكن تحليل هذه التأثيرات إلاّ انطلاقاً من فهم عيادي نفسي متعدّد الجوانب؛ من هنا كان لجوؤنا للأطفال أنفسهم قصد التعرف على الصعوبات والمشاكل التي يعانون منها كما تظهر من خلال سلوكهم وتعابيرهم الخاصّة بدلاً من الإكتفاء بدراسة نظرية تنطلق من وجهة نظر الراشد.

لذا، فضلاً عن المعلومات المستقاة من محيط الأطفال (من أهل ومربّين...) ترتكز الحقائق التي سننشرها لاحقاً، على معلومات حصلنا عليها من الأطفال أنفسهم وذلك بلجوئنا لأدوات الملاحظة النفسية كالملاحظة العلميّة وإستعمال الروائز (الإسقاطية منها بشكل خاص) والمقابلة العيادية...

فبفضل هذه المواجهة مع الطفل، أمكننا سبر أغوار شخصيّته والغوص إلى أعماقه؛ وهذا ما ساعدنا على الكشف عن تأثير خبرات حياته (الماضية والحاليّة) التي ساعدتنا، بدورها، على إدراك معاناته. وهكذا تمكنّا من معرفة ما يعود للحرب وما يعود، على العكس من ذلك، إلى تأثير المحيط (الأسرة بشكل خاص) بفضل التحليل العيادي المعمّق الذي حقّقناه على مستوى إجابات الأطفال (موضوع أبحاثنا).

من هنا يُفهم تقاطع عملنا مع عدّة حقول علميّة: مختلف مجالات علم النفس، الطب العقلي، العلوم الإجتماعية... هذا ويمكن القول إنّ عملنا يندرج ضمن إطار علم النفس العيادي؛ لكن ذلك لا يعني أن بإمكاننا إهمال باقي المستويات، الإطار الإجتماعي - الثقافي خاصة، لما لها من أهمية وتأثير على تطوّر شخصية الأطفال، موضوع دراساتنا الميدانية.

كيف نهملها وهؤلاء الأطفال يشكّلون أعضاء في مجتمع يؤثّر فيهم ويتأثّر بهم؛ ثم إنّهم، بالإضافة إلى ذلك، يترعرعون ضمن إطار أسرة تعدّ النواة الإجتماعية الأولى وتساهم بمقدار كبير في تكوين نموّهم السليم. إنّهم، بمعنى آخر، يعيشون ضمن إطار بنية إجتماعية تتميّز بايديولوجيّتها وأخلاقيتها ومعتقداتها وذهنيتها... الخاصّة بها والتي عليهم إحترامها كي يتقبّلهم المجتمع كأعضاء يساهمون في تكوين بنيته. هذا إلى جانب ضرورة تأقلمهم مع المحيط الذي يعيشون ضمن إطاره كي يُعتبروا أسوياء لأن التوافق الإجتماعي هو أولى وأهم السمات المميّزة للإنسان السوي عن المريض.

ثم إننا قصدنا بقولنا «يندرج عملنا ضمن إطار علم النفس العيادي» أنّنا طبّقنا منهجيّة هذا العلم لأسباب متعدّدة: أولاً، يتميّز علم النفس العيادي بكونه علماً ديناميّاً قادراً على إستيعاب وتتبّع مختلف سياقات التطور الحاصل في النمو عبر مختلف مراحله المتتابعة وهو، في الوقت نفسه، يصف حالات التوازن المتغيّر التي تحدّد كل حقبة من حقبات تطوّر الكائن البشري وذلك بفضل وصفه الدقيق للجهود التي يبذلها الطفل كي يتأقلم مع واقع إجتماعي وحياتي يتميّز هو نفسه بعدم الثبات.

ثانياً، يؤمّن هذا العلم معرفةً متبحّرة في ما يختص بنفسيّة الطفل نظراً لكونه يعتمد وسيلة الفحص النفساني المسلّح أي أنه يعتمد على الطفل للمرافعة عن نفسه والكشف عن معاناته وذلك عبر الإسقاطات اللاواعية التي تثيرها بداخله الوضعيّات المتمثّلة بالإختبارات (الروائز) الإسقاطية tests projectifs والمستكمَلة بمقابلات عيادية entretiens cliniques؛ وهذا ما يسمّى بالتشخيص النفساني psychodiagnostic الذي يكشف عن السمات الرئيسية المميّزة لشخصيّة الطفل (المفحوص)، أكانت هذه السمات إضطرابية ـ مَرَضية أم على العكس سوائية تطوّرية.

هذا ويمكننا القول إنّ الروائز الإسقاطية متنوّعة ومتعدّدة (هناك مئات الروائز)؛ لذا لجأنا إلى تلك التي تتلاءم مع متطلبات بحثنا أي تلك التي تكشف عن معاناة الطفل الناجمة عن تأثيرات الحرب التي من شأنها إنتزاع كل شعور بالطمأنينة عنده لتستبدل به شعوراً دائماً بالخطر على حياته والتهديد لها[1]، إلى جانب تلك التي تكشف عن تأثيرات وجود الأسرة إلى جانبه كعامل يبثّ الشعور بالطمأنينة والسلام في نفسه.

أمّا الجمهور الأصلي الذي توجهنا نحوه فقد تمثّل بالطفولة اللبنانية ذات العشر سنوات أو الأحد عشرة سنة[2] اخترنا منها عيّنة مؤلفة من ٨٠٠ طفل يمثّلون مختلف الأقضية اللبنانية، من جميع الطوائف ومن الجنسين (صبيان وبنات) يعيش نصفهم داخل مؤسسات إجتماعية والنصف الآخر ضمن إطار الأسرة؛ وهدفنا من ذلك التوصل لرؤية علميّة واضحة حول المشاكل التي يعاني منها هؤلاء الأطفال في وضع الحرب الراهن. ولقد اتّبعنا، أثناء دراستنا للناحية

(١) نظراً لعدم وجود روائز تمثّل وضعيّة الحرب، رغم وفرة الروائز الإسقاطية المتداولة، اضطررنا لوضع رائز في هذا المجال أسميناه «رائز الحرب» الى جانب رائز آخر «رائز الحرمان» استوحينا مضمونه من رائز الحرمان الذي وضعه روزنزفايك.

(٢) اختيارنا للعمر المحدد بعشر سنوات أو إحدى عشرة سنة لم يكن وليد المصادفة بل انطلق من مميّزات النمو وصفاته الرئيسة إذ يكون الطفل قد إجتاز مختلف مراحل الطفولة وهو يتهيّأ للدخول بمرحلة المراهقة. تتميز هذه الحقبة من النمو، إذاً، بهدوء نسبي يمكّننا من التقاط شتّى أنواع الإضطرابات التي تكون قد رافقت نموّه.

التطبيقية، المنهجيّة العلمية الحديثة التي تعتمد على جمع المعلومات (عن طريق الفحص النفساني المسلّح)، وتنظيمها وضبطها ثم تحليلها وصولاً إلى النتائج النهائية أي المنهجية التي تعتمد على إستخراج السمات التي ظهرت، عياديّاً، عند الأطفال (موضوع الدراسة الميدانية) وحسب المعايير الموضوعية التي وضعها عياديّون آخرون ثم إخضاع هذه النتائج للطريقة الإحصائية وبعدها لطريقة التأويل العلمي الذي يربط الناحية التطبيقية بالناحية النظرية على ضوء عودة إلى الجذور النفسية والإجتماعية والفكرية والدينية والإقتصادية... لماهيّة الأسرة والحروب بشكل عام والأسرة والحرب اللبنانية بشكل خاص.

هذا وقد حاولنا، من وجهة النظر المنهجية، استخلاص وايضاح دور كلٍّ من المسؤولين عن تنشئة هذا الطفل (من أم وأب وأستاذ...) ووظيفته إلى جانبه. كما حاولنا، إيضاح التأثيرات النفسية للحرب على الطفل بشكل عام واللبناني بشكل خاص، لأن ما يقال عن الطفل اللبناني يمكن قوله، ضمن حدود معيّنة طبعاً، عن الطفل عامة والشرقي خاصة حتماً بعد الأخذ بعين الإعتبار للفروق الثقافية والإجتماعية والفردية التي تشكّل عوامل من شأنها التأثير على نفس الطفل وعلى إنبناء شخصيّته. تُتَرجم هذه الفروق، إجمالاً، كتصرفات متوافقة ـ سوائية أو غير متوافقة ـ مَرَضية مع المعايير الثقافية السائدة في المجتمع الذي ينتمي إليه.

ثم إننا أبدينا إهتماماً خاصاً، كلّما سنحت الفرص العمليّة لذلك، بالفروق ذات الدلالة الإحصائية différences significatives الملاحَظة بين مختلف المجموعات (طبعاً بعد مقارنتها إفرادياً وجماعيّاً) التي شكّلت العيّنة l'échantillon الممثّلة للجمهور الأصلي (جمهور الأطفال) المُتّخَذ كقاعدة أساسية لأعمالنا الميدانية(١) وذلك بهدف تبيان مدلول التأثيرات النفسية للحرب على

---

(١) ثماني فئات إجتماعية شكّلت الركيزة الأساسية لمنهجيّتنا العلمية طيلة البحث الميداني الذي قمنا به: أطفال يعيشون مع الأسرة/أطفال يعيشون داخل المؤسسة الإجتماعية (أو الميتم) بعيداً عن جوّ الأسرة وقد جُمعت هاتان الفئتان ضمن إطار عامل كبير أسميناه «الوضع العائلي»؛ أطفال ينتمون للديانة الإسلامية/ أطفال ينتمون للديانة المسيحية (جُمعت هاتان الفئتان ضمن إطار عامل «الدين»)؛ صبيان/ بنات («الجنس»)؛ أطفال عاشوا خلال الحرب/ أطفال عاشوا خلال

الطفل تبعاً لإنتمائه الى كلٍّ من الفئات المذكورة أدناه. وقد توفّر لنا ذلك بفضل الدراسات الميدانية التي قمنا بها بهدف إستقاء المعلومات الضرورية للبحث من قِبَل الأطفال أنفسهم.

بمعنى آخر، حاولنا التوّجه نحو أشخاص يعيشون بأنفسهم واقعهم وذلك لنفهم سير تكوينهم الخاص والتحوّلات النفسية والإجتماعية ـ الثقافية التي تعتري شخصيتهم من جرّاء عيشهم لواقع الحرب بدلاً من اللجوء إلى أفكار تجريدية نظريّة خاصة بالراشدين ويمكن أن تكون قابلة أو غير قابلة للتأكيد العلمي والعملي، كما يمكن أن تفسّر، أو لا تفسّر، الواقع الحقيقي لهؤلاء الأفراد.

لابدّ هنا من التذكير بأن الأسرة الشرقية، واللبنانية خاصّةً، تؤدّي دوراً جوهرياً كعامل مطمئن بالنسبة إلى الطفل الذي ما إن تجابهه صعوبة أو مشكلة معيّنة حتى يهرع إلى والديه طلباً للمساعدة (ماديّة كانت أم معنوية) من أجل التغلّب عليها وحلّها.

هذا بالإضافة إلى واقع هام يرتبط بنمو الطفل وتطوّره في الحالات الطبيعية حيث يتعرّض هذا الطفل، خلال مراحل نموه ، لشتّى أنواع المصاعب التي يضطر لمواجهتها كي يسير قدماً في طريق تطوّره؛ ومواجهته هذه تعتمد، إلى حدّ بعيد، على مساعدة أهله له في إيجاد الطريقة الخاصة به التي تمكّنه من حلّ المشاكل وتجاوزها.

ما القول، اذاً، عندما ينضاف إلى هذا الوضع مشاكل أخرى تنجم عن وضع غير طبيعي كوضع الحرب مثلاً؟ كيف سيتمكن الطفل من حلّها؟

للإجابة على هذه التساؤلات وعلى التساؤلات الأخرى المتعدّدة التي ترتبط بها إرتباطاً وثيقاً، اعتمدنا نتائج الأبحاث الميدانية التي قمنا بها ضمن إطار دراستي: الدكتوراه حلقة ثالثة والدكتوراه الدولية[1].

= السلم («وضعيّة البلاد») وقد إرتكزت مقارنتنا الإحصائية لكلٍّ من هذه الفئات على ثمانماءة (٨٠٠) حالة أي «٤٠٠» حالة لكل فئة.

(1) christine NASSAR, «problèmes posés par l'abscence paternelle au Liban», thèse inédite pour l'obtention du doctorat 3°cycle en psychologie clinique devant l'université Lyon II, 1976.

ملاحظة تجدر الإشارة إليها: من غير الممكن الإحاطة بكلّ ما يتعلق بالطفل ضمن إطار هذا الكتاب؛ لذا مهّدنا (لدراسته بشكلٍ واف) إليه من خلال الكتب السابقة التي شكّلت الإطار المتكامل لإدراك سير نموّ الطفل وتطوّره ومختلف العوامل الجوهرية المؤثّرة في تكوين نموّه، سنُتبعها بعدد من الكتب اللاحقة لإستكمال ما لم يمكن إيضاحه في طيّات الكتب الأولى حول أهميّة العائلة وثنائي الزوجين والأب والأم والأستاذ والرفاق. . . .

يتناول كتابنا الحاضر، وهو الجزء الرابع من سلسلة «الأقارب والطفل في المجتمع الشرقي المعاصر» التي نقدّمها للقرّاء الكرام، دراسة التأثيرات النفسية للحرب على شخصية الطفل حيث سنتوقف عند الطفل اللبناني كحالة خاصة لأنه شكّل موضوع أبحاثنا الميدانية في هذا المضمار.

نرجو بإخلاص أن نوفّق في عملنا هذا فنستطيع، رغم الثغرات التي لابدّ أن تعتوره، لفت الإنتباه الى مختلف النتائج السلبية المُحدَثة عند الطفل نتيجة عيشه لأجواء الحرب المدمّرة، خاصّة إذا ما تعزّز ذلك بسبب غياب معنوي لدور الأسرة ودور التربية الواعية.

أيكون أملاً واهماً ذلك الذي يعترينا بتوخّينا، نتيجة عملنا الصادق هذا، دعوة مسبّبي الحرب إلى التفكير العميق قبل إحداثهم لأي صراع؟ فمعظم مسبّبي الحرب هم أهل أو سيكونون كذلك، في المستقبل؛ عليهم، إذاً، معرفة حقيقة ثابتة تكمن في كون الطفل هو أول ضحيّة بريئة لوضعية هو غير مسؤول عنها (أي وضعية الحرب). من هنا دعوتنا لهم بالتروّي والتعقّل والتفكير به قبل الإقدام على أية خطوة في هذا المضمار.

أو يكون، كذلك، أملاً واهماً رجاؤنا الأهل، لدى قراءتهم لعملنا، أن يعيدوا النظر في دورهم ووظيفتهم إلى جانب الطفل، وهما بغاية الأهمية من حيث مساعدة هذا الأخير على تكوين شخصيّته وعلى أن ينمو بشكل سليم،

- «Effets psychiques de la guerre sur l'enfant libanais de différents groupes sociaux» (analyse clinique approffondie), thèse inédite pour l'obtention du doctorat d'état en psychologie clinique devant l'université René Déscartes, Paris, 1984.

عنـدما يـدركون كم هي سلبيـة تلك النتائـج الناجمـة عن جهلهم لخصائص ومميّزات نموّه؟

سيتضمّن هـذا الكتاب جـزأين أساسيّـين ينقسم كلٌّ منهـما إلى بضعـة فصول: يتناول الفصل الأول منها حقوق الطفل على مجتمعـه، والثاني لمحة شاملة حول «مبحث الأعراض المرضية» والثالث جـولة سريعـة حول الحـرب بشكل عام والحرب اللبنانية بشكل خاص. أمّا الفصل الرابع فيستعرض الحرب اللبنانية ومسبّباتها بينما يركّز الفصل الخامس على الـواقع النفسي لهـذه الحرب انطلاقا من الوجهة النظرية.

والفصل السادس يشكّل بداية الأساس العملي المخصَّص لدراسة تأثيرات الحرب في شخصية الطفل اللبناني كما بدت على ضوء النتائج العملية ـ الميدانية وقد آثرنا تمييزها تبعاً لمحكّات ثلاث: قطاع النمو وقد شكّل موضوع الفصل السادس تحت عنوان «إضطرابات النمـو»؛ ـ «تحوّل الأواليّات الدفـاعية الى إضـطرابات عميقـة» خصّصنـا لهـا الفصـل السـابـع، ثم: - تقـويم حـدّة الإضطراب ودرجة تأثيره في البنية العميقة لشخصيّة الطفل وقد خصّصنا الفصل الثامن لذلك تحت عنوان «اضطرابات مَرَضيّة بكل معنى الكلمة». وأخيـراً، أنهينا تقويم «مدى إنعكاس الإضطراب وخطورته» في الفصل التاسع.

الجزء الأول

إعتبارات نظرية

لفهم واقع الحرب وانعكاساتها على الطفل لابدّ من إعطاء لمحة نظرية وافية حول الطفل وحقوقه الطبيعية، حول الإضطرابات المَرَضيّة ودلالتها وتأثيراتها فنتمكّن، بعد ذلك، من عرض انعكاسات الحرب على الطفل كما تكشّفت على ضوء الدراسة الميدانية حول الطفل اللبناني والتحليل المعمّق (التشخيص النفساني) الذي تناول مختلف النتائج العملية.

الفَصْل الأوّل

الطفل وحقوقه على المجتمع
(على أسرته بشكل خاص)

١ ـ أهميّة المحيط في تأمين هذه الحقوق:

يشمل هذا الموضوع، أهم أركان المجتمع الأساسية ونعني بذلك الطفل من جهة وعلاقة الوسط (بكل من يشمل عليهم من أهل وأساتذة، . . .) به من جهة أخرى، مع كلّ ما يترتّب على هذه العلاقة من واجبات لا يمكن القيام بها دون معرفة حقوق الطفل على مجتمعه وميزات مختلف مراحل طفولته وكنه ما يتوجّب على هذا المجتمع تأمينه كي يتسنّى للطفل تحقيق نموّ وتطوّر طبيعيين. وإيفاء هذا الموضوع حقّه من البحث يستلزم دراسة مطوّلة لن نغوص بها لأنها تخرج عن إطار عملنا بل سنكتفي بذكر أهم الواجبات المطلوب من المحيط (من الأهل بشكل خاص) تأمينها بالنسبة للطفل:

مسؤولية الأهل بشكل خاص والمحيط بشكل عام تجاه الطفل هي، اليوم، بغاية الجسامة والأهمّية خصوصاً في ظل المدنيّة المميِّزة لهذا القرن، وللعقود الأخيرة منه بشكل خاص، نظراً للتقدّم العلمي السريع الذي يميّزه والذي من شأنه بثّ الشعور بعدم الإستقرار النفسي داخل الفرد بسبب كثرة العناصر الجديدة التي أُدخِلت وتُدخَل دائماً وأبداً على نمط معيشته وعلى المسائل الجوهرية الخاصة بحياته اليومية المعتادة.

والطفل هو، كما قيل عن حق «أب الرجل»، لأن السمات الأساسية لشخصية الراشد تشكّل إمتداداً لتأثير الخبرات الطفلية المبكرة التي سبق له أن مرّ بها حتّى أصبح ذلك الشخص القادر على أخذ مصيره بيده وتحمّل المسؤوليات الملقاة على عاتقه.

تجدر الإشارة، قبل كلّ شيء، لتميّز الطفل أساساً بطول المدة التي يستغرقها نموّه بعد الولادة وهذا ما يجعل فترة الرعاية التي يُحاط بها كبيرة جداً. لكنّ ذلك يساعده على بدء حياته وقد اغتنى برصيد وافٍ من الخبرات: لقد كانت مرحلة إحتضان الإنسان لصغيره تمتدّ حتّى سن الحادية والعشرين وأصبحت اليوم محدّدة بسنّ الثمانية عشر يُعد الفرد، بعدها، راشداً وقادراً على مواجهة مصيره وشقّ طريقه في الحياة بمفرده. لكنّه، خلال فترة الرعاية، يُعَلّم ويُؤدّب ويُدَرَّب لينطلق بعد ذلك في خضم الحياة الراشدة، يستكمل خلالها، عمليّة النضج والتعلّم مزوّداً بأساليب الحياة الملائمة للبيئة التي يعيش فيها.

وعمليّة الرعاية هذه تقتضي معرفة حقوق الطفل على وسطه، هذه الحقوق التي تتركّز، مبدئياً، على صفته الأساسية كشخص له حق التمتّع بالحياة كوليد وطفل ومراهق وراشد على حدّ سواء، وإن كان هذا الحق يتنوّع، دلالة وأسلوباً، بتنوّع المراحل والأعمار التي يمر بها الإنسان منذ ولادته وحتّى مماته.

أما أهم حقوق الطفل فيمكن إختصارها كالآتي: ـ حقّه بالعناية والتربية وتأمين الغذاء اللازم لنموّه وذلك بهدف إشباع حاجاته المادّية والحياتية؛ ـ حقّه أن يُفهَم فيُعامَل، بالتالي، على أساس مميّزات مراحل نموّه حتّى لا يُظلم بتحميله

أكثر مّما يستطيع أو يُبخَس قدره إذا ما كانت قدراته تتجاوز ما يُطلب منه القيام به من مهمّات وتصرّفات، وذلك لإشباع حاجاته الذهنيّة والعقلية؛ ـ حقّه بالمساعدة والتوجيه والتفهّم أي حقه على وسطه بتوفير ما يمكّنه من تفتيح قدراته (الذهنية والأخلاقية والنفسية والإجتماعية والعقلية) وبلورتها؛ ـ يرتبط كل ذلك بحقّه في تلقّي التربية والتعليم، أقلّه خلال السنوات الإثني عشرة الأولى من حياته، كي يتسنّى له إشباع حاجات نموّه فيتمكّن من إكتشاف العالم وتأكيد ذاته، تدريجاً، بهدف الوصول إلى الإستقلالية وهي الهدف المنشود من نموّ أي كائن بشري.

تُلقى المسؤولية الأولى في توفير هذه الحقوق على عاتق الأهل بالدرجة الأولى ومن ثمّ على المحيط الذي ينتمي إليه الطفل.

وبكلمة مختصرة نقول: من الضروري على الوسط إشباع حاجات الطفل الحيويّة والأساسية كحاجته إلى الحب والوداد، حاجته إلى الأمان وحاجته إلى إثبات الذات:

بالنسبة للحاجة إلى الحب والوداد يمكن القول إنّها ترتوي عندما يُحاط الطفل بجوٍّ من الإستلطاف المتفهّم والصداقة والثقة. فبمقدار ما يعرف المربّي، كأهل وكوسط، كيف يثير علاقات عاطفية مع الطفل كشخص له كيانه الخاص به، يبدي هذا الأخير تجاوباً واستعداداً متنوّعاً يحثّه نحو العطاء والحب إذ يشعر أن هناك من يحس بوجوده ويحترمه ويشجّعه فيحس، بدوره، باستعدادٍ نفسي لبذل الجهود مهما غلت ويوفّر، بذلك، الجو الملائم الذي يسمح للآخرين بتربيته وتنشئته.

أمّا حاجة الطفل للأمان فتفرض على الوسط، على الأهل خصوصاً، أن يكون قادراً على إظهار التوازن في السلوك وفي الأوامر والمفروضات التي يلقيها على الطفل؛ كما تفرض عليه أن يكون حازماً وأن يوفّر الإطار الحياتي الذي يشمل لا القواعد والمبادىء فقط بل، أيضاً، ضرورة تلقينها للطفل ومساعدته على عيشها بفضل دعمه له جسدياً وعقلياً ونفسياً وخلقياً عبر توفيره الملجأ الأمين الذي يشعره بأنّه يقف على أرض صلبة راسخة لا على رمال متحرّكة تموج تحته

وذلك بتوفيره الإجابة المقنعة والمطمئنة لنفس الطفل التي تعتريها شتّى أنواع التساؤلات والوساوس. . .

وفي ما يختص بحاجة الطفل لتأكيد ذاته يمكن القول إنها ترتبط إرتباطاً وثيقاً بحاجته لإكتشاف العالم المحيط به وبحاجته للإحساس بقوّة تأثيره على الآخرين ومقدار أهميّته بالنسبة لهم. كما أنّها ترتبط، أيضاً، بعدد من الحاجات الأخرى التي لا يستطيع الطفل إشباعها إلاّ إذا أحسّ بتفهّم الوسط له وثقته به مما يمكّنه (الطفل) من المحاورة وضبط الذات فيتمكّن، بعد ذلك، من تجاوز ذاته والتخلّي عن التمحور حول الذات ليدخل مرحلة التعاون مع الآخرين والإحساس بوجودهم إلى جانبه.

ما يسهّل على الوسط إمكانيّة إشباع هذه الحاجات عند الطفل يكمن في ولادة هذا الأخير مزوّداً بالإمكانيات والإستعدادات الكامنة بالقوّة عنده بانتظار الظروف الملائمة لبلورتها وتفتّحها. من أهم مظاهر هذه الإمكانيّات يمكن ذكر قدرته (الطفل) على التماهي أي التماثل التي تقوده للإلتفات إلى نموذج يحظى بإعجابه فيحاكيه ويتمثّل به أو إلى صديق يكبره أو إلى راشد بالغ يثيران إعجابه فيتماهى بهما. نذكّر هنا بدور الوالدين في هذا المجال، خصوصاً خلال المرحلة الأوديبية التي تتميّز، كما سبق أن قلنا في الكتاب السابق، بتماهي الطفل بالقريب الذي هو من جنسه محاولةً منه لإكتساب صفاته كرجل أو كإمرأة ينافس بها هذا القريب على حب القريب الذي هو من الجنس الآخر. يشكّل هذا التماهي، في الحقيقة، المدماك الأساسي لإكتسابه صفات الرجولة أو الأنوثة في المستقبل أي عندما يصبح راشداً.

ثمّ إن وجود هذا النموذج بمتناول الطفل ينمّي لديه الرغبة في أن يعيش ويتصرّف مثله. وأهميّة ذلك تظهر في واقع الإنسان كإنسان أي في واقع كونه يولد إنساناً بالقوّة ولا يصبح إنساناً بالفعل إلاّ إذا ترعرع ضمن إطار محيط إجتماعي بشري يقدّم له النماذج والأطر التي يمكنه أن يتماهى بها ليكتسب الصفات البشرية. بمعنى آخر نقول: صحيح أن الإنسان يولد مزوّداً بالصفات البشريّة الكامنة بالقوة لكنّ قدرته على التصرّف كإنسان (من حيث القدرة على

المشي والنطق والإبتسام والبكاء. . .) لا تتبلور وتتحقّق فعلياً إذا نشأ، مثلاً، مع الحيوانات بل يتصرّف مثلها: يمشي على الأربع، يصرخ مثلها، . . .

على ضوء ما سبق قوله ندرك أهميّة المحيط الإجتماعي في تكوين شخصيّة الإنسان وبالتالي في تأمين شتّى الإمكانيات التي تساعد الطفل على بلورة قدراته الكامنة؛ لكنّ تدخّله يجب أن يحدث دون تطرّف أو إسراف وإلاّ أحدث شللاً في عمليّة النموّ: كأن يعيش مكانه، مثلاً، الخبرات المؤلمة التي على الطفل عيشها بنفسه أو أن يقوده للإسراف بالتعلّق فيه فيشلّ عنده إمكانيّات تحقيق إستقلاليته الفردية. . . نلفت إنتباه المربّين، هنا، إلى ظاهرة خطيرة لمسناها عند المجتمع الشرقي بشكل عام واللبناني بشكل خاص وتكمن في تعلّق العديد من الراشدين، بشكل متطرفّ وغير طبيعيّ، بالأهل؛ وقد شكّل ذلك أحد الأسباب الرئيسية الكامنة وراء تفكّك أوصال الكثير من عائلاتنا وهدم بنيتها.

في الواقع، يمكننا القول لا بل التأكيد على أن تعلّق الزوج أو الزوجة المتطرّف بوالديها (بالوالدة خصوصاً) وتدخّل هذه الأخيرة المُسرِف في حياة ومُعاش ثنائي الزوجين بديا، على ضوء الأبحاث التي قمنا بها وملاحظتنا للمشاكل الزوجية، مسؤولَين بالدرجة الأولى، عن تنافر الزوجين واختلافهما. . . لدرجة الوصول إلى الطلاق أحياناً. تعليقاً على هذا الواقع نضيف: يعود هذا التعلّق الذي أقلّ ما يقال فيه أنّه طفوليّ لعدم توافر التكامل في الأدوار والوظائف التي على كلٍّ من الوالدين القيام بها داخل إطار الثنائي الذي يجمعهما؛ فالوالد (الأب) غير موجود، معنوياً، في معظم الأحيان، والأم تحسّ نفسها مهجورة من قبل الأب ـ الزوج ومتروكة لوحدها أمام المسؤولية الضخمة الملقاة على عاتقها: مسؤولية تربية الأطفال وتنشئتهم؛ هذا بالإضافة إلى عدم شعورها بكيانها إلاّ ضمن إطار الأمومة وغياب الشخص (أي الأب) الذي يؤمّن بقاءها على مسافة نفسيّة معيّنة بالنسبة لطفلها. . . من شأن كلّ ذلك تقريبها من هذا الطفل الذي تحسّه كجزء لا يتجزأ من كيانها فتتعلّق به وتعلّقه بها. . . وهذا ما يقف حاجزاً منيعاً دون تمكّنه من تحقيق إستقلاليّته الفرديّة.

أضف إلى ذلك واقعاً بغاية الأهمية ويكمن في ضرورة مساعدة الطفل لأن يتعلّم كيف يعيش في مناخ إجتماعي يحيي في نفسه ألوان الوعي الجماعي كمساعدته، مثلاً، على الإندماج والإنخراط بألعاب تضمّه مع عصبة رفاق من عمره؛ لكن وللأسف أظهرت الدراسات التي قمنا بها أنّ الأهل يعدّون مثل هذه الألعاب مضيعة للوقت وقد فاتهم أن حرمان الطفل منها، وحتّى عدم تشجيعهم إيّاه على اللعب مع رفاق من عمره، يُضيّع عليه فرصة الإستفادة من مقوّمات هامة جداً في سير نموّه الطبيعي[1]. والحقيقة أنّ للّعب مع رفاق من عمره فوائد جمّة لنموّه نكتفي بذكر إحداها: يتعلّم الطفل، لدى مشاركته عصبة الرفاق في اللعب، إحترام القواعد الإجتماعية وكيفيّة إدخالها كجزء لا يتجزّأ من شخصيّته وذلك من خلال الضرورة التي تفرض عليه إحترام قواعد اللعب وقوانينه؛ وهذا ما يشكّل المنطلق الأساسي لإحترامه، في المستقبل، مختلف القواعد والقوانين التي يفرضها المجتمع على كلّ من ينتمي إليه. هذا ويقود نموّ الوعي الإجتماعي الطفل نحو الإحساس بضرورة قيامه بعلاقات جماعيّة مع أفراد محيطه تهدف لتحقيق مثال موحّد ومشترك يتكامل مع إحساسه بفرادته واستقلاليّته فيساهم، بذلك، في تكوين مجتمع منسجم ومتناسق يحسّ كلّ فرد داخله بالطمأنينة لوجوده إلى جانب الآخرين وبالحرية لإحساسه باستقلاليّته.

ثم إنّ شعور الطفل بالمشاركة يصبح أشدّ رسوخاً وإيجابيةً بمقدار ما يزداد وعيه لنفسه ولمكانته بين الجماعة التي ينتمي إليها: في الواقع، يتميّز الإنسان الواعي بقدرته على التمييز بين نزعاته ورغباته الخاصّة وبين مفروضات العالم الخارجي. وهذا ما يمكّنه من الإختيار الحر مميّزاً بين ما ينبغي قبوله وبالتالي إشباعه من بين رغباته الخاصّة والحميمة وما ينبغي التخلّي عنه وعدم إشباعه أو تأجيل إشباعه نظراً لتعارضه مع الواقع إلى حين آخر تصبح الظروف معه أكثر تلاؤماً. وهكذا يتوصّل الطفل، تدريجيّاً، لفهم أهميّة تقبّله للنظم الإجتماعية وللتضحيات التي ينبغي بذلها من أجل الجماعة التي تضمّه إلى جانب آخرين

---

(١) سيكون لنا وقفة مفصّلة مع هذا الموضوع في الجزء التاسع من هذه السلسلة مع كتاب «رفيقي، تعال نكتشف العالم معاً»؛ لذا لن نقف مطوّلاً عنده ضمن إطار هذا الكتاب.

يشاركونه نفس القيم والمعايير والعادات. . . فيساعده ذلك على تجاوز الأنانيّة وحب الذات اللذين هما، بحدّ ذاتها، تعبير صارخ عن بقائه طفلاً وعن عدم بلوغه درجة النضج المتوجّب عليه تحقيقها تدريجاً وانسجاماً مع تقدمه في السن؛ كما يساعده، أيضاً، في سعيه لإيجاد المثال المشترك الكفيل بتأمين الحدّ اللازم لتحقيق التفاهم والإنسجام بينه وبين باقي أعضاء المجتمع الذي ينتمي إليه. وكلّ ذلك يغذّي شعوره بكرامته الشخصية وكرامته كإنسان مقبول من مجتمعه دون أن يكون مخدوعاً أو مهاناً أو خاضعاً لأي لون من ألوان العبودية (خُلُقيّة كانت أم إجتماعيّة أم ماديّة. . .).

هذه لمحة سريعة عن أهم حقوق الطفل والأسس التربوية التي تساعده، خصوصاً في سنّ المراهقة، في البحث عن ذاته واكتشافها. ولتحقيق الهدف منها، أي تحقيق الوعي المشار إليه أعلاه، ولتأمين إستمراريّته ينبغي إشراك الطفل مشاركة فعّالة، ناشطة ومعاشه من قِبَله في تحقيق مصيره كإنسان؛ بمعنى آخر، على المحيط مساعدة الطفل ودفعه لأن يعيش بنفسه المواقف الحياتيّة المفروضة عليه والتي بدأ يعيها تدريجاً، إذ بمقدار ما يحياها تترسّخ إرادته فتنضج بالتالي شخصيّته الفرديّة. لذا عليه أن يكابد هو نفسه، كما سبق أن قلنا، نتائج إختباراته الحياتيّة وتوجهاته الخاصة، محزنةً خائبة كانت أم مفرحة سارّة.

من هنا وجوب توجيهه، ومنذ سنّ مبكرة، لتنظيم حياته وعمله وأوقات فراغه ولموازنة نشاطاته وتدبير حياته تدبيراً حسناً يمكّنه لاحقاً من أخذ مصيره بيده؛ وتشديدنا على ذلك ينطلق من واقع كون التربية، بحدّ ذاتها، عمليّة شاقة جداً (على المربّي وعلى الطفل في آن معاً)، تبدأ منذ الولادة وتستمر طيلة حياة الإنسان؛ كما أنّ من أهم مبادئها ضرورة تأمينها في الوقت المناسب: لا قبل الأوان إذ تبقى فائدتها محدودة جدّاً وزهيدة بالمقارنة مع الجهود والأتعاب التي تفرضها، ولا بعده أي متأخّرة إذ يكون الأوان قد فات، في معظم الأحيان، لأن لكلّ مرحله من النموّ أسسها التربويّة الخاصّة بها.

يجدر التذكير هنا بضرورة دمج الطفل، ومنذ سنّ مبكرة، في المجتمع البشري؛ وهذا الدمج يتمّ بأشكال متنوّعة تختلف باختلاف مراحل نموّه

وتطوره. كما ينبغي مساعدته وتشجيعه للقيام بنفسه بنشاطات مسؤولة معيّنة (تحت إشراف المربّي)؛ وحتماً، يجب أن تتناسب المهمّات المطلوب منه القيام بها مع مميّزات العمر الذي يمرّ به. وينبغي، أخيراً، توجيهه لعيش مواقف تتطلب منه التضحية من أجل المصلحة العامّة والمشتركة لكلّ أعضاء المجتمع، كما يجب حثّه للمشاركة في التنظيم المعنوي والمادّي في ما يختص بحياة الجماعة التي ينتمي إليها...

وهذه المشاركة المزدوجة من حيث الفعل والوعي تغتني، بدورها، بفضل مشاركة الفرد الوجدانية ومؤازرته الواعية.

باختصار نقول: يشكّل الحب والثقة المتبادلة بين المحيط الإجتماعي (الوالدين بشكل خاص) والطفل الركيزة الأساسيّة لكلّ تربية إذ بدون إحساس هذا الأخير بحب وسطه له وبدون شعوره بالإنسجام والوداد بين الإثنين لن يتمكّن من الإستجابة للمثيرات والمفروضات التربويّة ولا من احترام قيمها ومعاييرها.

٢ ـ دور الأسرة الشرقية في نموّ الطفل وفي مواجهته لوضعيّة الحرب.

يُفهم مما سبق قوله أهمية تأثير المحيط والأسرة في النموّ السوي عند الطفل: في الواقع، يرى مختلف علماء نفس النموّ أن دور المحيط المباشر (الأسرة بشكل خاص) هو بغاية الأهمية لا بل هو حاسم في سير هذا النموّ وذلك على ثلاث مستويات متوازية ومتداخلة بعضها مع بعض: النموّ النفسي والعقلي والعاطفي:

فعلى مستوى النمو النفسي يتأمن تفتّح قدرات الطفل المتنوّعة بفضل حسن سير وظائفيته الكبرى وإشباع حاجاته العضوية؛ وعلى مستوى النمو العقلي تلعب التربية والتعليم (بالمعنى الواسع للكلمة) دوراً هاماً في بلورته. أمّا

توازن نموّه العاطفي ـ الإنفعالي وتطوره فيرتبط، بشكل عام، بالعلاقات القائمة بين الطفل ومحيطه (والديه بشكل خاص) خصوصاً في سنواته الأولى.

هذا ويمكن القول مع موريس بورو Porot [1] إنّ هدف هذا التطور الثلاثي الأبعاد يكمن في منح الطفل: القوة البدنية والنفسيّة، المقوّمات الرئيسة المثيرة لقدراته العقلية الكامنة ولتوازنه العاطفي، وهذا ما سيساعده، فيما بعد، على إختيار السلوك الذي سيعتمده، لاحقاً، بشكل حر وعلى ضوء مفروضات الواقع، وهذا ما يسمّى بالنمو الإجتماعي.

على كل حال يمكن القول إن ضرورة وجود الأسرة إلى جانب الطفل هو واقع أكّد عليه مجمل العاملين في مضمار الطفولة. وهذه الضرورة تصبح أكثر فأكثر إلحاحاً عندما يعيش الطفل ضمن وضعيّات تهدّد طمأنينته النفسية، كوضعيّة الحرب ومختلف مظاهر العنف المرافقة لها مثلاً، وهذا ما أكّدته أعمال دوروثي بورلنغهام وآنّا فرويد لدى دراستهما لسلوك الطفل الإنكليزي خلال الحرب العالمية الثانية[2] كما أكّدته ملاحظتنا العلمية ودراستنا للطفل اللبناني الذي يعيش ضمن وضعيّة حرب لا تزال ناشئة منذ سنين.

يمكن القول في الواقع إن للعنف المرافق للحرب تأثيرات سلبيةعلى كل إنسان راشداً كان أم طفلاً أكّدها معظم الباحثين في هذا المضمار؛ لكن نتائجه السلبية المُحدَثة عند الطفل يمكن أن يُخفضها وجود الوالدين إلى جانبه نظراً لكونه لا يتأثر بمظاهر العنف التي تجري حوله إلاّ بمقدار ما تؤثّر هذه المظاهر على والديه بشكل خاص لأنهما، بالنسبة له، المرجع الأساسي المحدِّد لقدرته على الإحتمال: فهو يلعب ويلهو ما داما بجانبه، لكّنه يصرخ مرعوباً ويقفز كالمجنون مفتّشاً عنهما، إذا كانا بعيدين عنه، كي يرمي نفسه في أحضانهما لدى سماعه لدوي المدافع والقصف... ونحن نقول مع بورلنغهام وآنّا فرويد: إن إرسال الطفل إلى مكان هادىء بعيد عن الأهل، لهو ذو تأثير أكثر سلبية عليه من بقائه

(1) Porot (M), «l'enfant et les relations familiales», PUF, Paris, 1954. P 13 - 15
(2) Burlingham (D) et Freud (A), «Enfants [illegible] famille», PUF, Paris, 1949

إلى جانب والديه وبظل القصف وذلك بصرف النظر عن مؤهّلات من يتولّى رعايته كبديل عن الأهل.

من شأن هذا الجو، جو الحرب، المفعم بمظاهر العنف إثارة الإضطراب في نفوس الجميع وبشكل خاص في نفوس الأطفال الذين هم أكثر حساسية من الراشدين بالنسبة لكلّ ما يهدّد محيطهم من أزمات. فكل فرد، لأي مجتمع إنتمى، يحتاج لوجود الأسرة كعامل يؤمّن له الحماية والطمأنينة كي يستطيع مواجهة وتجاوز مشاعر التهديد النفسي التي تغمر نفسه؛ وفي المجتمع الشرقي (في المجتمع اللبناني كحالة خاصة) أكثر منه في أي مجتمع آخر، يجد الفرد نفسه حبيس حلقة من الروابط الأسرية التي لا يستطيع منها فكاكاً.

ولا يمتلك الفرد، في المجتمع الشرقي، سوى القليل من الحرية والخيار في إقامة علاقات فردية مع العالم الخارج عن إطار أسرته إذ يجد نفسه مرتبطاً، وبشكل وثيق وشبه دائم، ضمن دوّامة العلاقات التي تقيمها أسرته.

لقد أعطي هذا الوصف للأسرة الشرقية أثناء السلم فما القول، إذاً، في حالة الحرب حيث تزداد حاجة الفرد لأسرته بشكل يتلاءم مع إزدياد حاجته للشعور بالأمن والطمأنينة؟ نتيجة كل ذلك تظهر في موقف الإتكالية المفرطة على الأسرة وعلى الآخرين نلاحظها ليس فقط عند الطفل بل، أيضاً، عند الشاب وحتى الراشد في المجتمع الشرقي.

ما الأسرة إذاً وما أهميّتها بالنسبة للطفل؟

تحديدات متعددّة أعطيت للأسرة بشكل عام ومن قِبَل العلماء لن نغوص في سردها[1] بل سنكتفي بعرض أهم العناصر المكوّنة لهذا المفهوم:

كي نتحدّث عن الأسرة يجب أن يكون هناك زوجان: أم وأب تجمعهما خليّة واحدة تعيش حالة من التطور الدائم تحت سقف واحد وتنجب الأطفال

(١) ستشكّل الأسرة، كما سبق أن ذكرنا، موضوع كتابنا اللاحق؛ لذا لن نتوقف هنا إلاّ عند ما نحتاج إليه لإيضاح أهميّة الأسرة في انعكاسات واقع الحرب على الطفل.

في ظل جوّ من الحب المتبادل بين الزوجين؛ بمعنى آخر، يشكّل إنجاب الطفل الركن الأساسي للأسرة التي تتمركز علاقاتها السليمة حول الطفل وله.

ينطبق هذا القول على الأسرة الغربية لأن إطار الأسرة الشرقية يبدو أوسع بكثير إذ أنّه يضم العائلة الكبرى[1] أي الزوجين والأطفال إلى جانب الأجداد والأعمام... ثمّ إنّه أكثر تعقيداً لأنه يرتبط باعتبارات شتّى سياسية منها واجتماعيّة ودينية وإيديولوجية.

هذا ويتّفق معظم الدارسين للأسرة الشرقية على قاسم مشترك يقول بانطلاق التكوين الأساسي والقاعدي لشخصية الطفل والشاب الشرقي، وبشكل شبه كلّي، من إطار العائلة نظراً لكون المدرسة لا تشكّل، في المجتمع الشرقي، سوى مركز لنشر المعلومات (لفظية كانت أم تقنية) وتعميمها بينما تبقى عمليّة التأهيل الإجتماعي socialisation وتكوين بنية الشخصية structuration de la personnalité رهناً بالقيم التي تحملها العائلة التي تنتمي، إجمالاً، إلى ديانة معيّنة لها معاييرها وقيمها الخاصة بها. وبمعنى آخر، تُستقى مجمل القيم والمراجع الثقافية والإجتماعية والفردية التي يعتمد عليها نمّو شخصيّة الطفل الشرقي وتُقدَّم من قِبَل العائلة التي تتحرك، عامّةً، ضمن إطار مغلق.

وفي لبنان، بالإضافة إلى ما سبق قوله، هناك واقع خاص يكمن في كون القيم الإجتماعيّة وُضِعت من قِبَل أسلاف عرفوا كيف يثبّتونها ضمن إطار الممارسات (الإجتماعيّة والإدارية والسياسية) بهدف المحافظة على شخصيّة الطائفة الإجتماعيّة ومصالحها الخاصة ضمن إطار المجتمع اللبناني.

الكلام على خصوصيّة العائلة اللبنانية وتركيبها وتشكيلها والإعتبارات التي تتأثر بها يطول ويخرج عن إطار كتابنا الحاليّ؛ لذا لن نسهب في هذا المجال

(١) نستعمل مفهوم «العائلة»، عامةً، للدلالة على الأسرة الكبرى التي تشمل كل من تربطهم بعضهم ببعض رابطة الدم ونقصد بذلك شمول الأجداد والأعمام والأخوال. لكنّنا نستعمل تعبير «الأسرة» للدلالة، إجمالاً، على العائلة الصغرى أي العائلة النواتية التي تضم الوالدين والأطفال ضمن إطار المنزل الذي يجمعهم كخليّة واحدة.

كي لا نبتعد عن الموضوع الذي نعالجه هنا أي «واقع الحرب وانعكاساتها على الطفل»[1]. لكننا نشير، بشكل هامشي، إلى أن تأثيرات الحرب على الطفل ترتبط مباشرة بدور الأسرة وقد تأكّد لنا ذلك على ضوء الدراسات الميدانية التي قمنا بها قبل الحرب وأثناءها حيث لاحظنا إرتباط مجمل الإضطرابات التي أحدثتها الحرب على الأطفال، موضوع أبحاثنا، بدور الأسرة ونوعيّة وجودها إلى جانب الطفل. ويمكننا القول إنّ هذه الإضطرابات طالت المظاهر الخارجية والعناصر الرئيسية المكوِّنة لشخصيّة الطفل؛ نذكر على سبيل المثال لا الحصر صعوبة التأقلم مع المحيط الملاحَظة عند الطفل اللبناني والمرتبطة بشكل وثيق بدور الوالدين التكويني والبنيوي والتي شكلّت، بناءً على التحليل النفسي المعمّق الذي أجريناه، العتبة le seuil التي منها إنطلق في إتّجاه المنحدر النفس - مَرَضي. وترجمة هذا الإنحدار المرضي عنده ظهر عبر أعراض اضطرابية خطيرة حيناً وأقل خطر أحياناً إنّما هي مرتبطة جميعها ضمن إطار التنظيم البنيوي الشامل لشخصيّته.

تساؤلات متعددّة تفرض نفسها علينا في هذا الإطار: ما المقصود بتعبير «اضطرابات الشخصيّة»؟ بمَ تكمن؟ هل تغزو مجمل ميادين حياة الطفل أم أنّها تنحصر ببعض قطاعاتها؟ ما هي ردّة فعل الشخصية تجاهها؟

عديدة ومتنوعة هي الأسئلة التي يمكن أن تُطرَح في هذا المجال والتي تتطلّب الإجابة عليها معرفةً معمّقة وشامله لـ: علم النفس العام، علم نفس الطفولة، علم النفس المرضي والطب العقلي... إلى ما هنالك من علوم إنسانية متكاملة تتناول دراسة الكائن البشري بمختلف مكوّناته والعوامل التي يؤثّر فيها ويتأثر بها؛ كما تتطلّب معرفةً معمّقةً في مجال «مبحث الأعراض symptomatologie» خصوصاً تلك التي ظهرت عند الأطفال موضوع دراساتنا الميدانية.

---

(١) نعيد القارىء هنا إلى الكتاب اللاحق الذي سيعالج موضوع الأسرة.

الفصل الثاني

«مبحث الأعراض المرضية»

هذا المجال، أي علم مبحث الأعراض، هو في الحقيقة بغاية التعقيد ويدعو للإلتباس والغموض بشكل عام، وفي ما يختص بالمفاهيم الأساسية الخاصّة بتعابير: البنية، الطبع ومبحث ألأعراض الذي يتضمن مفهوم الإضطراب بمختلف أنواعه بشكل خاص. لذا لابدّ لنا من تبديد هذا الإلتباس وتحديد ما نعنيه لأن هذه المفاهيم تشكّل نقطة الإنطلاق والركيزة الأساسية المعتمدَتين في تحليلنا النفس ـ عيادي.

بـ«بنية الشخصيّة structure de la personnalité» نقصد تلك القاعدة المثاليّة التي، على أساسها، تنتظم، وبشكل متين، مختلف العناصر المكوِّنة للشخصيّة وبخاصّة تلك العناصر النفسية الماورائية والجوهرية المسؤولة عن ثبات وحدة الشخصيّة وديناميّتها.

وبـ«الطبع caractère»نقصد المستوى الوظيفي الظاهر وغير اَلمَرَضي للبنية المحدَّدة أعلاه. يصبح «مبحث الأعراض la symptomatologie»، إنطلاقاً من ذلك، «النمط الوظيفي اَلمَرَضي لشخصيّة الإنسان عندما تتفسّخ عناصرها أي عندما تفقد العناصر (الداخلية والخارجية) المكوِّنة لها ذلك التوازن الذي على كل فرد تحقيقه لدى إستعماله، لكن بطريقة إيجابية فعّالة، مختلف الأواليات الدفاعية التي تمتلكها الأنا والتي تمكّنه (أي الفرد) من تحقيق التأقلم المتوجّب عليه تأمينه في علاقته مع محيطه الإجتماعي».

نذكّر القارىء هنا بما سبق أن قلناه حول تمتّع كلّ كائن بشري بشخصيّة ذات بنية ديناميّة أي بشخصيّة تمثّل مسرحاً دائماً لتصارع قوى متعارضة تميل

حيناً لتحقيق التوازن المنشود عند الفرد ويُتَرجم عنده بسلوك هادىء وعقلاني؛ لكنّ هذه القوى تميل، أحياناً أخرى، إلى التناقض والتنازع الدائمين فيما بينها متسبّبةً بنشوء أزمات ومآسي داخلية يدركها المحيط الخارجي عبر سلوك الفرد المضطرب وغير المتّزن.

هذا وقد لخّص فرويد مجمل هذه القوى بثلاث ركائز أساسيّة هي: الهو، الأنا، والأنا الأعلى حيث لا يتمتّع كلّ منها بكيان ثابت خاص بها بل، على العكس، تتمثّل بكونها قوى تبقى في حالة صراع دائم تُعقَد الغلبة فيها، للأقوى أو بإختصار، وكما هي الحال عند الإنسان السوي، يتحقّق التوازن فيما بينها. ثمّ إن شدّة هذه القوى تتنوّع تبعاً لعوامل متعدّدة نذكر منها:

- المحيط التربوي الذي من شأنه تعزيز أو إضعاف حدّة أي منها؛ فالمجتمع الشرقي، مثلاً، يعزِّز بشكل شبه دائم سيطرة الأنا الأعلى التي يرتبط تكوينها بالسلطة الخارجيّة، سلطة الأب بشكل خاص...
- فرادة تكوين كل فرد من النواحي النفسية والبيو- فيزيولوجيّة والعاطفيّة...
- الوضعيّة الزمانية والمكانية التي يجد كل فرد نفسه منخرطاً ضمن إطارها خلال فترة معيّنة من الزمن.

أمّا الصراع المشار إليه أعلاه فهو، أيضاً، في غاية التنوّع إن من حيث الإتّجاه والحدّة أو من حيث المعنى والشكل. هناك، في الواقع، صراعات خارجية تضع الفرد في حالة تصادم ومواجهة مع محيطه (الأسري والإجتماعي)، نتحدّث، عندها، عن وجود إضطرابات إنفعالية- مزاجيّة troubles caractériels.

وهناك، إلى جانب ذلك، صراعات داخليّة تضع الفرد في موقف مواجهة مع ذاته بسبب تنازع مختلف الركائز المكوِّنة لشخصيّته؛ تشكّل هذه الصراعات ما يسمّى بـ «الإضطرابات العُصابيّة troubles névrotiques» ما دام الصراع على درجة منخفضة من الحدّة أي ما دام الإضطراب لا يتناول البنية العميقة

لشخصيّة الفرد. أمّا إذا كانت درجة الصراع عميقة ومرتفعة فنستخلص، عندئذٍ، وجود «إضطرابات ذُهانية troubles psychotiques».

في العُصاب la névrose تبدو الأنا ضعيفة، هذا صحيح، لكنّها تميل عامّةً إلى تحقيق إستقلاليتها وتمايزها عن الخارج. بمعنى آخر نقول، هناك في العُصاب، دائماً، تمايز بين الأنا le moi واللا ـ أنا le Non - moi الخارجيّة وإن تمّ ذلك بدرجات متفاوتة عند مختلف الأفراد.

لكنّ هذا التمايز غير موجود أصلاً في الذُهان psychose نظراً لسيطرة النزوات الممثّلة لِلْهو le ça على الأنا عند الفرد؛ هذا وتبدو الأنا، في هذه الحالة، مختلطة مع اللا ـ أنا الخارجية وغير متمايزة عنها. وهذا ما يؤدّي لإحداث الإضطراب العميق في العلاقات الموضوعيّة les relations objectales الذي يؤدّي، بدوره، لنشوء الإضطراب الذُهاني.

تجدر الإشارة، هنا، إلى وجود مجموعة من الإضطرابات المتنوّعة داخل إطار كلٍّ من هذه الخطوط الإضطرابية الكبرى؛ يعود ذلك لأسباب متعدّدة نذكر أهمّها:

- تميّز التطوّر العاطفي الخاص بكل فرد بقاعدة بنيويّة ثابتة خاصة به وتتلاءم، إجمالاً، مع فترة معيّنة من هذا التطور.
- وجود تشكيلة كبيرة ومتنوّعة من العناصر الأصليّة والمتكاملة المكوِّنة لشخصيّة كلّ فرد؛ وهي تتطوّر، عامّةً، انطلاقاً من بنيته الشخصيّة الأساسية.

هذا وينبغي الأخذ بعين الإعتبار مختلف تدرّجات هذه البنية وتحرّكاتها النسبيّة (إن داخلياً أي تبعاً لتنازع القوى الداخلية المكوِّنة لها، أم خارجياً أي تبعاً لتأثيرات العوامل الخارجيّة التي تواجهها)، وتنوّع تأقلمها مع معطيات الواقع الخارجي؛ من شأن كلّ ذلك إحداث ذبذبات تظهر حتّى عند الفرد نفسه وعند مختلف الأفراد وتؤدّي، بدورها، لنشوء إختلاف في نوع وحدّة الأعراض المَرَضية التي تكون أعراضاً إنفعالية مؤقّتة تزول بزوال الحالة المسبِّبة لها، أو أعراضاً مَرَضيه متكاملة وثابتة تسيطر على شخصيّة الفرد بشكل دائم.

بمعنى آخر نقول: تتنوّع الإضطرابات الذهنيّة تبعاً لعوامل متعدّدة نذكر منها: المكوِّنات الشخصيّة الشاملة لكل كائن بشري إلى جانب المكوِّنات الخاصّة بكل فرد؛ الظروف الحياتيّة التي يواجهها الفرد خلال سير نموّه وتطوره؛ قدرة كل فرد ودرجة تحمّله للإحباطات التي يمنى بها خلال مراحل حياته؛ . . . نشير، في هذا المجال، لمسلّمة بغاية الأهمية تكمن في كون الصراع النفسي الداخلي يستقي محتواه من الوضعيّة الصراعيّة الناجمة عن تفاوت نزوات الفرد وحاجاته (الطفل خصوصاً) ومعطيات الواقع الخارجي التي يتوجّب عليه التأقلم معها.

ومع ذلك، تجدر الإشارة إلى عدم إمكانية إستخلاص وجود صراع بالمعنى المَرَضي للكلمة إلاّ حين تشكّل المعطيات الداخلية، المتناقضة والمكوِّنة للصراع النزوي صعوبة لا يرتبط حلّها بقدرة الفرد على التأقلم مع الظروف الخارجية فقط بل يرتبط بشكل خاص بقدرته الداخليّة على تحريكها وتعديلها.

باختصار نقول: إذا استطاع الفرد تجاوز الصعوبات التي تواجهه خلال فترة معيّنة من نموّه تصبح الطريق أمامه حرّة وسالكة لإجتياز مراحل نموّه اللاحقة والمتعاقبة؛ لكن إذا بقي الصراع، الذي لا بد أن يعتري حياة كلّ إنسان، دون حلّ من قِبَل الفرد فإنه، خصوصاً إذا كان طفلاً، يُثبَّت في سلوك تكراري comportement stéréotypé يكون مصيره العام الفشل ويلغي، في الوقت نفسه، فائدة الطاقة الحيويّة التي يبذلها للقيام بمهمّات جديدة.

على كلّ حال، هناك ملاحظة ينبغي التنويه لها لأهميتها بالنسبة إلى نمّو الطفل الذي: يشار إليه دائماً بصيغة الحاضر لا بصيغة الماضي لأن سياقات processus نضجه النفسي والوظائفي هي دائماً في طور التكوين؛ كذلك القول في ما يختص بمواجهة الطفل لمحيطه (الأسري والإجتماعي). من هنا سهولة الكشف عن الصراعات التي يعاني منها إن بالنسبة إلى مؤثِّرات هذه الصراعات التي تبقى حديثة العهد إذ لم تتح له (أي الطفل) الفرصة بعد كي يُحدِث فيها تحريفاً أو تحويلاً كما لم تترسّخ بعد في شخصيّته كما هي الحال عند الراشد مثلاً، أو بالنسبة إلى نوعيّة الحلّ النفسي الذي لجأ إليه للتغلّب على مشاكله وتجاوزها.

يشكّل كلّ ما سبق ذكره حول الصراع المنطلق الأساسي للتحليل

العيادي ـ النفسي الذي قمنا بـه في ما يختص بـالأطفال، مـوضوع دراسـاتنا الميدانية، والذي كشف عن وجود عدد كبير من السمات traits النفس ـ مَرَضيّة عندهم. قلنا «سمات» لا «بنى» لأن الأعراض التي ظهرت عند هؤلاء الأطفال بدت كميول مَرَضية لم تتناول بعد بنية شخصيّتهم العميقة الغور.

لكن ذلك لا يعني أن هذه الأعراض وهذه الصراعات تخلو من الخطورة لأن الخطر الحقيقي يكمن في ارتباطها أساساً بدور الـوالدين ووظيفتهم وقـد تبيّن، على ضوء التحليل، بأن العلاقات القائمة بين الطفل وأهله كانت بغاية الإضطراب لا بل كانت ذات أثر سيّء انعكس عـلى طبيعة تـوازن شخصيّة الطفل لما لها من أولويّة وأهميّة في نموّه السوي إذ عن طريق تفاعله مع المحيط بشكل عام ومع الوالدين بشكل خاص يستقي الطفل العناصر الأساسيّة التي تساهم في بلورة قدراته وتفتّحها.

كما أنّ الإضطرابات الشخصيّة التي كشف عنها التحليل بدت مرتبطةً، بشكـل مباشر، بـدور الوالـدين ووظيفتهم كـ: ضعف الأنـا، ضعف الثقـة بـالنفس، إضطراب الهـويّة، النكـوص، الإنهيـار النفسي، الصـدّ، الكبت، الإتكاليّة المفرطة على الأهل والآخرين، السلبية، الميول الفُصاميّة والإنطواء على النفس، الشعور بالذنب الذي تعدّى الحدود المعقولة، الشعور بالكآبة والعزل والإبعاد من قِبَل الأهل، . . .

بمعنى آخر، يرتبط الخطر الحقيقي بضرورة تدخّل أهل وُمربّين يعون تماماً واجباتهم تجاه الطفل ويتفهمّون حاجاته الطبيعيّة ومميزات نموّه، كي يتمكّنوا من تدارك مساوىء التأثيرات السلبيّة التي أحدثها جهلهم لها. والخطر الأهم يكمن في ما كشفه التحليل من إخفاق في دورهم إذ ظهروا دون مستوى المسؤوليّـة الملقاة على عاتقهم: فبدلاً من أن يساعدوا الطفل على النموّ بشكل سليم عزّزوا عنده الميول المَرَضية التي تجرّه في طريق الإنزلاق المَرَضي.

لذا نستغل الفرصة لدعوة المجتمع بشكل عام، والأهل والأساتذة بشكل خاص، إلى أن يتفهمّوا المخاطر التي تهدّد نموّ الطفل وتطوّره الطبيعيّين خاصةً

وأن نموّه هذا يرتبط، بمقدار كبير، بتفهّم محيطه لحاجاته الطبيعيّة وبتوفير الأجواء المناسبة لإشباعها حتى لا يكون عرضة للإحباط ولشتّى الإضطرابات النفسيّة وحتّى يتمكّن من تجاوز مختلف مراحل تطوّره والتوصّل إلى مرحلة الرشد والإستقلالية.

ولكي تكون التربية التي يتلقّاها الطفل من محيطه فعّالة لا بدّ لهذا الأخير (أي المحيط) من أن يكون ملمّاً بمختلف مميّزات مراحل النموّ، وبمختلف الإضطرابات التي يساهم إخفاق التربية في إحداثها عند الطفل؛ وهذا ما دفعنا لتقديم كتابنا «أيها الطفل، من أنت؟» حيث تناولنا دراسة النموّ على سائر الأجزاء الأخرى.

الفَصْل الثَّالِث

الحرب بشكل عام والحرب اللبنانية بشكل خاص

تفرض الحاجة العمليّة والعلميّة تحديد الموضوع وحصره قبل البدء بمناقشته.

١ ـ تحديد كلمة «حرب».

إشتقاقياً، تأتي الكلمة الإصطلاحية «حرب» من المصطلح اليوناني «Polemos» المشتق هو نفسه من كلمة «Duellum» التي استعملها بعض المؤلفين أمثال هوراس وأفلاطون للتعبير عن الحرب. أمّا المصطلح الفرنسي «guerre» فيُعتقد بأنّه ناتج عن تعبير بسيط من التعجّب عُبِّر عنه بصرخة نابعة من الحلق «werra» إشتُقّ منها، فيما بعد، الكلمات الآتية: الكلمة الإلمانية «wehr» والإنكليزيّة «war» واللاتينيّة المحرّفة «guerre». وقد دخلت الكلمة الأخيرة «guerre»، فيما بعد، إلى اللغتين الأساسيتيّن: الإسبانيّة والإيطاليّة، وعن ترجمتها إلى العربيّة نتجت كلمة «حرب» المتداوَلة في اللغة العربيّة.

يشهد هذا التنوّع والتعدّد في إشتقاق كلمة «حرب» على شمول دلالتها واستعمالها من قِبَل المجتمعات البشريّة جمعاء. تشكّل الحرب، في الواقع، مظهراً إجتماعياً شمل العالم القديم والحديث على حدّ سواء. يقول بوتول[1] بهذا الصدد: «ليس هناك ظواهر إجتماعيّة شاملة ومنتشرة عبر التاريخ كظاهرة الحرب. لقد عرفتها كافة الشعوب الأكثر بدائية منها والأكثر مدنيّة. وليس أدلّ

(1) Bouthoul (G), «traité de Polémologie, Sociologie des guerres», Payot, Paris, 1970, P 25-27.

على ذلك من ارتباطها بهمومهم وانشغالاتهم ومن ذكرها الدائم في تاريخهم وأساطيرهم».

حتّى الأطفال فإنّهم يعيشونها بالفطرة كما أنّهم يحاولون إحياءها وتقليدها في ألعابهم؛ لكن رغم أهميّة هذه الظاهرة «الحرب» بالنسبة إلى إنسان كل زمان ومكان فإنّنا لا نزال نلمس إهمالاً كبيراً في ما يختص بتحديدها وحصرها من قِبَل مختلف العلماء والمؤلّفين الذين تكلّموا عليها.

يضاف إلى ذلك حقيقة واقعية راسخة تكمن في معرفة جميع القرّاء لها (أي لظاهرة الحرب) وذلك لأسباب متنوّعة: إمّا لأنها فُرضت عليهم من خلال نتائجها وتأثيراتها حتّى وإن لم يكن لهم يد في إحداثها، أو لأنهم سمعوا عنها، أو لأنهم أحدثوها. وكما يقول بارو Barrot: تشكّل الحرب الفكرة الفطرية الوحيدة التي يمتلكها الإنسان.

ومهما يكن من أمر يمكننا القول: تشكّل الحرب آفة لا بل كارثة إجتماعيّة تهدّد بويلاتها جميع أشكال المجتمعات البشريّة والدول والتنظيمات، سياسيّة كانت أم إقتصاديّة أم إيديولوجيّة... ؛ لذا يجب أن لا نعدّها ظاهرة عابرة مرتبطة بنزوة مفتعليها ومزاجهم بل، على العكس من ذلك، ينبغي إعتبار الحرب ظاهرة إجتماعيّة phénomène social تشتمل على عدد من الوقائع: التقنيّة والنفسيّة والديمغرافيّة والإقتصاديّة والإجتماعيّة... تؤكدّ تميّزها بسمات ثابتة إنّما، وبالوقت نفسه، مواكبة وإن سلباً لتطوّر المجتمعات والحضارات.

نظرة سريعة على وسائل التدمير المستعملة (نوعاً وكمّاً) في عصرنا الحديث تكفي لإدراك مدى قدرتها الحاليّة على الهدم والتخريب التي تتجاوز، وإلى حدّ بعيد، ما كانت تحدثه خلال العصور الغابرة: فالحرب التي لم تكن، في القرن الثامن عشر، تتعدّى كونها مبارزة تقتصر على شخصين أو حرباً بين أعداد كبيرة من الأشخاص الذين يتقاتلون لكن بمواجهة بعضهم بعضاً مستعملين السيف الذي كان يُعدّ أكثر الوسائل القتاليّة فعاليّة وحداثةً، أصبحت اليوم كارثةً لا بل نكبة إجتماعيّة تحصد بوقت قصير الألوف من الناس وتهدم، في ساعات، كل ما جنوه خلال سنين وسنين من التعب والشقاء.

تشكّل الحرب في الواقع، نكبة إجتماعيّة حقيقيّة تهدّد الإنسان المعاصر إلى أي مجتمع انتمى؛ فموضوعها يندرج اليوم ضمن إطار الحاليّات نظراً لتلبّد سماء الكون بأسره بغمائم قاتمة تنذر بشر العواصف المهدّدة للعالم أجمع وليس فقط للبلدان التي تعاني ويلات الحرب المندلعة، يوماً بعد يوم، في عدد من بلدان العالم.

هذا ويمكن القول إنّ مخاطرها متعدّدة ومتنوّعة وإن كَمَنَ أهمّها في التأثير المفاجىء والعميق الذي تثيره في تفكير الإنسان والذي من شأنه تحويل حساسيّته وسياق تفكيره عن مسارّهما الطبيعيّ. فالحرب تلبّد، في الحقيقة، ميول الإنسان الفطريّة والأكثر أصالة بداخله محدثةً عنده إنقلاباً يشمل كلّ قيمه (الأخلاقيّة والمعنويّة والإقتصاديّة والإجتماعيّة والثقافيّة. . .).

في الواقع، تبدو الحرب بالنسبة إلى أي مراقب موضوعيّ غير متحيّز كوباء ذهني جهل ولا يزال يجهل الأسباب المؤديّة إلى إنتشاره رغم كلّ المحاولات التي قام بها عدد كبير من المؤلفين المنتمين إلى إختصاصات مختلفة بهدف الكشف عنها وحلّ رموزها.

ندهش، في الحقيقة، للتباين الكبير الذي نلمسه بين العدد الهائل من الأبحاث المتخصصة في فنون الحرب ونتائجها (السياسيّة والإقتصاديّة والأخلاقيّة. . .) والعدد الضئيل وشبه المعدوم من الأبحاث المخصّصة لإستكشاف أسبابها العامّة ودورها ووظيفتها الإجتماعيين، أي لدراسة الوسائل الحقيقيّة التي من شأنها حصر هذه الظاهرة وتحديدها كي يكون بالإمكان منع وقوعها أو، على الأقل، خفض عدد حالات وقوعها وخفض نتائجها على ضوء معرفة أسبابها والدوافع المؤدّية لحدوثها. . .

ومع ذلك، فالحاجة العمليّة تقتضي منّا دراسة هذه الظاهرة الإجتماعيّة دراسة وافية من شأنها توفير الإطار الوافي لمعرفتها خاصّةً وأنّ صعوبة تحقيق مثل هذه المعرفة تعود لكونها تتكشّف عن مظاهر متعدّدة في آن واحد: فهناك المظهر السياسي نظراً للدور الهام الذي تلعبه حكومة البلاد التي تحدث فيها الحرب. . .، والمظهر الدينيّ نظراً للمعتقدات والمبادىء الدينية التي يُزعَم غالباً

الدفاع عنها لدى إشعال الحرب. . .، والمظهر الديمغرافي نظراً للمجموعات البشرية التي تشملها الحرب أقلّها على مستوى الوفيات. . .، والمظهر الإقتصادي نظراً لعمليّات الهدم والتخريب المرافقة لإشعال الحرب ولعمليّات إنتقال الثروات من فئة إجتماعيّة إلى أخرى. . .، والمظهر الإجتماعي نظراً لإفتقار المجتمع الذي تندلع فيه الحرب للعديد من الأعضاء الفعّالة. . .، المظهر الأخلاقي نظراً لإنقلاب العديد من المعايير الأخلاقيّة في ظل فقدان الضبط الذي كان يبقي النزعات العدوانية مضبوطة داخل الفرد، . . .

سنحاول، من جهتنا تحديد «ظاهرة الحرب» على ضوء ما رشح لنا من الدراسات المتعدّدة الإختصاصات وبشكل خاص على ضوء أبحاثنا الميدانيّة:

هناك، بادىء ذي بدء، سمة غالبة هي «الطابع الإجتماعيّ» البارز في ظاهرة الحرب؛ وفي هذا الصدد ينبغي الأخذ بعين الإعتبار عاملين رئيسيين: طبيعة الجماعة التي تتقاتل والناحية الذاتيّة أي الهدف من افتعال الحرب. وفي هذا المجال يمكن القول إنّ السمة الأساسيّة تكمن في دوافعها وقصديّتها؛ أمّا الدوافع فتنتظم ضمن الإطار الفردي أو، على الأقل، تتعلّق بالنفسية الفرديّة بينما تدخل القصديّة المنوي تحقيقها من كل حرب ضمن الإطار الجماعي.

لكنّ هذه السمة تبدو تصويرية إلى حدّ ما إذا ما أخذنا بعين الإعتبار واقعاً يفرض نفسه على عدد من الحروب، حتّى الكبرى منها، إذ نجد أنّها حصلت، وفي أحيان كثيرة، كإمتداد لصراع فردي انجرّت إليه الجماعات التي ينتمي إليها الأفراد المتقاتلون بهدف الدفاع عنهم أو الإنتقام لهم، فيتّسع، بذلك، إطار المشاجرة الفرديّة لتصبح، فيما بعد، حرباً عامة تشمل ليس فقط الأفراد الأصليين محدثي الصراع بل أيضاً مجمل الجماعات التي إليها ينتمون.

وفي أيامنا هذه لا يزال سوء المعاملة الذي يتعرّض له بعض الأفراد يشكّل حافزاً أو ذريعة لفتح نار وسيعة المدى وحرب لبنان أبلغ مثال على ذلك إذ غالباً ما تُعلَن الحرب فجأة وبشكل وحشي بين الأطراف المتناحرة؛ ولدى إستبيان الأسباب الدافعة إلى إعلان مثل هذه الحرب نجد في معظم الأحيان، أن عضواً

من أعضاء حزب أو مجموعة معيّنة تعرّض للإهانة على يد عضو ينتمي إلى مجموعة أخرى...

إلى جانب هذه السمة ذات الوجهين المتداخلين: الفردي والجماعي، هناك سمة أخرى تتميز بها الحرب وتكمن في طابعها القانوني بمعنى أن الحرب تشكّل، بدون شك، ظاهرة عنف إنّما عنف منظّم: جولة سريعة في أفق الحروب وتاريخها تُظهر وجود قواعد وقوانين دقيقة موضوعة أساساً لتنظيم وجهتها وسيرها. بمعنى آخر، ليس هناك، إجمالاً، حرباً من أجل الحرب فقط حتّى وإن لم تبدُ هذه القوانين واضحة للمراقبين فهي، على الأقل، واضحة بالنسبة إلى مُحدِثي الحرب.

هذا ويمكن القول إن لكل حرب بداية ونهاية مهما طال أمدها، نهاية تشير عموماً للإنتقال من حالة الحرب إلى حالة السلم (أو العكس بالعكس). ويكمن هذا الإنتقال، أساساً، في إرادة مفتعلي الحروب على توجيه سيرها عبر تشكيلهم لقانون يسيّر الحرب وآخر يحدّد شروط السلم. وكما لاحظ معظم المؤلّفين في هذا المجال: ليس هناك قتال يدوم أبداً ولا معركة تستمر إلى ما لا نهاية، إنّما هناك دائماً حالة حرب تتميّز بكونها مرحلة معيّنة تُطبَّق خلالها قواعد قانونية ذات طابع خاص.

تتميّز الحرب، أيضاً، بسمة قانونيّة ثانية: تُعدّ الحرب قضيّة، هدف الدعوى إليها يكمن في وضع حدّ للخصام القائم بين فرقاء يتنازعون فيما بينهم لأسباب ودوافع محدّدة بشكل مسبق.

نتوقف قليلاً عند الحرب اللبنانية، المتّخذة كحالة خاصة في دراستنا، للتحقّق ممّا إذا كانت السمات المذكورة تنطبق عليها فنتساءل: هل هناك طابع قانوني يميّز هذه الحرب الدائرة على أرض لبنان؟ بمعنى آخر، هل هناك قواعد وقوانين وقضيّة محدّدة؟ ما هذه القواعد؟ من يسيّرها؟ وكيف؟ من يُقاتل من؟ ما الدوافع والأهداف؟ هل هي حرب أهليّة؟ هل هناك موعد معيّن يحدّد إنتهاءها؟

تساؤلات متعدّدة طرحت نفسها ولا تزال على كل من تعامل ويتعامل مع هذه الحرب تبقى الإجابة عنها غامضة إلى حدّ بعيد حتى بعد مراجعة وتحليل كل ما كُتب عنها في المقالات والدراسات المختلفة التي ظهرت ولا تزال تظهر على المستويين: المحليّ والدولي؛ والواقع الوحيد الذي يرشح عن قراءة كل ذلك يبقى متّسماً بالغموض نظراً للتسميات المختلفة التي أُطلِقَت على هذه الحرب (حرب أهليّة، حرب لبنانيّة - فلسطينيّة، حرب لبنانية - إسرائيلية أو لبنانية - سوريّة إلى ما هنالك من تسميات). ثم هناك المنعطفات والتحوّلات التي إتّخذتها هذه الحرب، والتي ظهرت داخل مختلف المعسكرات المتعادية: فهويّة حلفاء اليومَ تتغيّر باستمرار إذ يصبح حليف الأمس عدوّ اليوم ليعود فيصبح حليفاً في الغد.. والقوانين المرعيّة الإجراء في الحروب من إحترام للأسير وللأبرياء القابعين في منازلهم وللأشخاص الذين يتولّون مساعدة الجرحى ونقل الموتى وقد وهبوا أنفسهم للعمل الإنساني الشامل هل احتُرِمت؟ الجواب المباشر على ذلك يكمن بالنفي القاطع.

هذا ويمكن القول أن الغموض المُلاحَظ على مستوى المقالات والدراسات التي تناولت الحرب اللبنانية بدا واضحاً عند الأطفال موضوع دراستنا الميدانية، فلقد كشف التحليل العيادي المعمّق الذي أجريناه بالنسبة إلى معاشهم الحيوي عن غموض تناول ليس فقط هويّة المعتدي والمعتدى عليه بل، أيضاً وبشكل خاص، الهويّة اللبنانية بحدّ ذاتها رغم كون مجمل هؤلاء الأطفال، مسيحيّين كانوا أم مسلمين، لم يتحدّثوا أبداً عن وجود حرب أهلية سوى في حالات نادرة؛ لكن ما لفت إنتباهنا يكمن في أنّهم إعتبروا بعض الفئات المكوِّنة للشعب اللبناني غير لبنانيّة وغريبة، وهذا، بنظرنا، أخطر ما يمكن تقبّله لا بل هذا ما شكّل الأرض الخصبة لوقوع هذه الحرب الطويلة الأمد على أرضهم...

وفي ما يختّص بالأهداف والدوافع وأطراف النزاع ودوام هذه الحرب (بمعنى أنّ بدايتها ظاهرة أمّا نهايتها فلا يعرف إلاّ الله موعدها) فإنّنا لمسنا الغموض نفسه والتضارب نفسه في الآراء والمواقف إن على مستوى الأطفال أو على مستوى الراشدين أو، حتّى، على مستوى الكتّاب والنقّاد ...

دفعنا كل ذلك لإعتبار التحديد الذي اقترحه بوتول Bouthoul «الحرب هي قتال مسلّح ودامٍ بين جماعات منظّمة» لا ينطبق إلاّ جزئياً على الحرب بشكل عام وعلى الحرب اللبنانية بشكل خاص، خاصةً وأنّه لا يأخذ بعين الإعتبار عوامل متعدّدة، والنفسية منها بشكل خاص.

في الواقع تكفي جولة قصيرة في أفق الحروب المندلعة، اليوم بعد الآخر، كي نتأكّد من حقيقة جوهريّة تفرض نفسها اليوم وهي تكمن في إرتباط العالم المعاصر بعضه مع بعض ممّا يعني عدم إمكانيّة معرفة الإجابة الوافية على كل التساؤلات المطروحة أعلاه دون فهم الناحية النفسية ودون فهم المصالح وبالتالي الدوافع التي تحدو بالدول الأخرى (غير المعنيّة مباشرة بالحرب وخصوصاً الدول الكبرى منها) لدفع الفرقاء للتناحر والأهداف التي تنوي تحقيقها. لذا نرى في المجموعات المنظّمة المتقاتلة ستاراً لجماعات أخرى تحرّكها في الخفاء؛ كما أنّنا نرى في الدوافع المنظورة والظاهرة مجرّد قناع للدوافع غير المنظورة المحرِّكة للجماعات الخفيّة إنّما المعدّة كمسؤولة مباشرة عن إندلاع شتّى الحروب في العالم، المعاصر منه بشكل خاص...

أمّا من الناحية النفسيّة فإنّنا نجد عند العديد من علماء النفس والتحليل النفسي محاولات عدّة هدفت لتحديد الحرب لن نغوص في شرحها وتعدادها إذ يطول الشرح بل سنكتفي بذكر ما رشح عنها؛ في هذا المجال نقول: لقد انطلقت مجمل دراساتهم من معنى الإنسان وكنه وجوده ومميّزات نموّه. وتكفي مطالعة عابرة وسريعة للدراسات النفسية المحقّقة حول الحرب كي نلمس مدى تركيزهم على العدوانيّة وظاهرة العنف المرافقة لها كسمتين طبيعيّتين في شخصيّة الكائن البشري لدرجة إنّهم تساءلوا معها عمّا إذا كانت العدوانيّة تشكّل غريزة أساسيّة (كنزوة الموت مثلاً التي نجدها عند فرويد أب التحليل النفسي) أم أنّها مجرّد نزعة أصليّة يمكن للمحيط الإجتماعيّ خفض حدّتها أو تعزيزها عنده بفضل التربية والرعاية اللتين يحيطه بهما؟

يبرّر مثل هذا التساؤل، مجموعة من الأسباب تكمن بمجملها في طبيعة الإنسان وفي مميّزات نموّه السوي: ألا تتميّز شخصيّته السوائية كونها حقل صراع

بين مختلف القوى (الداخلية والخارجية) المكوِّنة لها؟ أوَ لا تشكّل المعارضة والمواجهة مع الذات ومع العالم الخارجي (مع الوالدين بشكل خاص) سمة أساسيّة في تحقيق توازنه الشخصي؟ ألا تلجأ الأنا، بشكل طبيعي، وهي التي تمثّل شخصيّة الفرد، إلى شتّى الاواليّات الدفاعيّة (من نفي وإسقاط وتماهٍ وكبت ونكوص وشعور بالذنب والعدوانيّة وارتداد العدوانيّة نحو الذات. . .) للدفاع عن نفسها تجاه مختلف الأخطار التي تهدّدها إن من الداخل أم من الخارج؟ ألا تشكّل الساديّة، بمعنى تميّز سلوك الفرد بعدائية موجّهة نحو الآخرين، إحدى أهم مميّزات مراحل الطفولة الأولى (حسب المدرسة الفرويدية والتحليل النفسي) والتي تُثبِت صحّتها الملاحظة العلمية: عضّ الرضيع ثدي الأم المغذّي له. . . ؟ ألا يكمن أحد أهم أسباب الإستياء عند الفرد في تعارض نزواته وحاجاته الخاصّة مع مفروضات الحياة المشتركة التي تجمعه مع غيره ضمن إطار مجتمع واحد؟ وهذا، بدوره، ألا يشكل سبباً رئيسياً مسؤولاً عن تعزيز شعوره بعدم الرضى والإحساس بالقلق الذي يشكّل خطراً قائماً لا يهدّد مصير الفرد وحده، بل مصير البشرية التي تبدو اليوم وكأنّها تتّجه نحو إبادة نفسها بنفسها بعدما امتلكت أشدّ الوسائل فتكاً: من مدافع ذات عيارات ثقيلة وقنابل ذرّية تفنّن عقل الإنسان في ابتكارها؟

أضف إلى ذلك واقعاً يتخبّط الإنسان في وسطه: إستحالة تأمين الشعور بالرضى والسعادة من قِبَل المجتمع لكل أفراده مهما كان النظام السياسي (أو الإجتماعي أو الإقتصادي) الذي تنتهجه حكومته إذ هناك دائماً أفراد غير راضين عن الوضع القائم، هذا بالإضافة لكون تحقيق السعادة والرضى الكامل مجرّد وهم أكثر منه واقعاً فعليّاً. من شأن كل ذلك تعزيز الشعور الإجتماعي العام، عبر الشعور الفردي، بعدم الرضى والإستياء.

هناك، إلى جانب ذلك، واقع آخر يكمن في استحالة تحديد الصحّة الإجتماعيّة، فقط، بتأمين الرضى المادّي (أي تأمين الضروريات المادّية) الضروري حتماً إنّما غير كافٍ نظراً لكون الإنسان يتجاوز، من حيث التكوين والمميّزات والتفكير، الإطار المادّي الصرف ليدخل في الإطار النفسي والماورائي

البالغ التعقيد، وهو يحتاج غالباً، للدفاع عن نفسه من نفسه ومن الآخرين ضدّ مشاعر حبّ التملك والسيطرة التي تتملّك نفسه. . . ؛ من هنا إعتقادنا بضرورة تأمين الإشباع المادّي إنّما، خصوصاً، بضرورة تأمين الرضى النفسي والداخلي الذي لا يمكن للمادّة توفيره. . .

نقول هنا مع هاكر Hacker[1]: يصبح الإنسان بوضع أفضل حين يعي وضعه كإنسان يتميّز بنزعات إنسانيّة تقوده نحو فعل الخير إنّما، أيضاً، بنزعات أخرى لا ـ إنسانية تقوده نحو فعل الشر وهذا ما يساعده على تقبّل ذاته كما هي محاولاً، وعن وعي، محاربة نزعة الشر عنده والإتّجاه نحو حبّ الآخرين والتعاون معهم ضمن إطار الحقوق والواجبات المميِّزة للعيش المشترك. . .

وهنا تتبادر إلى ذهننا حكمة باسكال Pascal الآتية: من الخطر عدم تعريف الفرد إلاّ على تشابهه مع الحيوان أو الإكتفاء، فقط، بتعريفه على سموّ مكانته بين الكائنات الحيّة؛ والأخطر من ذلك إبقاؤه بحالة جهل مطبق بالنسبة إلى هذين الواقعين. أمّا الأفضل له فيكمن في تعريفه على كليهما.

باختصار نقول: لا يمكن تجاهل دور الطبيعة النفسانيّة الخاصّة بالإنسان التي تدفعه نحو العدوانيّة وحبّ السيطرة على الآخرين. فعن تعارض ميوله هذه مع ميول الإنسان الآخر، أي عن تعارض ميل المعتدي للسيطرة على المعتدى عليه وردّة الفعل المضادّة التي تحدث عند هذا الأخير، لا بدّ أن تنشأ أزمة حادّة تدفع بكليهما لإعلان الحرب الواحد على الآخر.

لذا، وعلى ضوء كل ما سبق قوله، نحدّد الحرب من جهتنا بالآتي: «إنّها صراع دامٍ بين شخصين أو فريقين من الأشخاص يؤجّج ناره تعارض نزوات الواحد منهما مع نزوات الآخر محدثةً ردّة فعل عنيفة عند الإثنين لا يخفّف من حدّتها سوى إسقاط العدوانية المتأججة داخلهما على الآخرين». يأخذ هذا التحديد بعين الإعتبار: النزعات اللا ـ إنسانية التي تسيطر على نفسيّة تُحدِث

---

(1) Hacker (Frédéric), «Agression, violence dans le monde moderne» (trad. fr. de l'allemend par: R. Laureillard et H. Bellour), Ed. calmann - Lévy, France, 1972, p 313.

الحرب وكذلك سمة الأنانية المسيطرة على شخصيّته والتي تمنعه من إدراك شروط ومبادىء الحياة المشتركة من جهة، وتميّزها (أي شخصيّته) بالطفولية أي بعدم القدرة على ضبط الذات وضبط النزوات غير المشروعة إجتماعياً. . . من جهة أخرى.

لا بدّ، لفهم ظاهرة الحرب بصورة وافية، من إعطاء لمحة عن العنف المهيمن اليوم على المسرح الدولي خاصة وأنّ الطفل لا يتعرّف، إجمالاً، على الحرب إلاّ من خلال مظاهر العنف التي ترافقها.

٢ ـ تحديد العنف وحصره:

بدا عالم العقد الثامن من القرن العشرين منغمساً ضمن جوّ من الإرهاب والإعتداءات ومحاولات الإغتيال والمؤامرات الإجرامية والفضائح الخلقية والخطف والحروب؛ بمعنى آخر، يعيش عالم اليوم في جوّ مشبع بمظاهر العنف على إختلاف أنواعه ويُلاحَظ ذلك في معظم بلدان العالم: شرقه وغربه، شماله وجنوبه.

لقد اتّخذ العنف اليوم بُعداً مخيفاً يظهر عبر تزايده على المستويين الجماعي والفردي وعلى صعيد العالم بأسره وليس فقط في لبنان وفي الدول التي تشكّل مسرحاً للحروب المتزايدة يوماً بعد يوم. . .؛ وما يخيف في تزايده هذا يكمن في التقبّل النفسي له وبشكل طبيعي إذ يُعَد اليوم حادثاً يومياً عابراً. . .

يبدو إنسان اليوم وكأنّه فقد إحساسه بخطورة العنف لدرجة أنّه يبقى لا مبالياً بما يحصل ولا ينتزعه من لا مبالاته هذه سوى حصول أعمال وحشيّة ذات أبعاد دراماتيكية خاصّة.

في الواقع، تُقبَل كل الجرائم وأعمال الإبتزاز والخطف والتعذيب والقتل الجماعي والإغتيالات. . . التي تحصل اليوم كجزء لا يتجزّأ من مجريات الحياة اليومية وبالدرجة نفسها التي تُقبَل معها الكوارث الطبيعيّة كالزلزال والإنهيارات وما إلى ذلك. . .

ويمكن إعتبار التقبّل الطبيعي لهذه الأعمال كعدم تقبّل لا واعٍ وسلبي لها نظراً لكونها لا تحدث هكذا وبفعل الطبيعة بل إنّ الإنسان هو الذي يثيرها ويحدثها ضدّ أخيه الإنسان. ولقد أدّى هذا التعاطي النفساني بالنسبة لهذه الأعمال إلى أبعاد خطيرة جدّاً على عالم اليوم، هذا العالم الذي يعدّ نفسه متحضّراً، وهي تبدو خصوصاً من خلال خيبة الأمل الكبرى التي يُمنى بها الإنسان المعاصر الذي يبحث اليوم عن أدنى حقوقه في الحرية والإستقلال والحب (هذه الحقوق التي شرّعتها له منظّمة الأمم المتّحدة) فيصطدم دائماً بسيطرة شريعة الغاب على المدنيّة المعاصرة حيث لا مكان للضعيف وحيث يفترس القوي جاره الضعيف. . . ينطبق ذلك لا على مستوى الأفراد ضمن إطار المجتمع الواحد فقط بل، خاصّةً، على مستوى المجتمعات مع العلم بأن هذا القرن يتميّز بالتقدّم العلمي الهائل وخصوصاً على مستوى وعي الفرد لحقوقه وواجباته. يمكن القول في الحقيقة أنّ تقبّل الإرهاب الحديث وبشكل طبيعي ساهم في ازدياد فعاليّته عن طريق استخدام الأبرياء وتعريض حياتهم للخطر من أجل الحصول على مطالب معيّنة أقل ما يقال فيها أنّها، غالباً، غير مشروعة قانونياً وغير مقبولة عرفاً.

وأخطر من ذلك كلّه يكمن في تحديد هذا الجوّ المفعم بالعنف لواقع الإنسان المعاصر وتكييف ضميره الأخلاقي وقولبته تبعاً للمعطيات الحالية التي نعتبرها سبباً ومسبّباً منظورين للتحوّل والتفاعل الأحاديّ الإتجاه اللذين أصابا العالم المعاصر، أي تقهقر الضمير الإجتماعي والأخلاقي الرادع وحلول النزوات الفرديّة مكانه رغم النزعة الأمميّة المسيِّرة لعالم اليوم.

من شأن هذا الجوّ إثارة الإضطراب والشعور بعدم الأمان في نفوس الجميع وبشكل خاص في نفوس الأطفال لأنّهم أكثر حساسيّة من الراشدين تجاه كلّ ما يهدّد محيطهم من أزمات. يجدر بنا التوقّف هنا، وبشكل خاص، عند الأطفال الذين يعيشون ضمن إطار جوّ مشحون بالأحداث المؤلمة حيث يستعمل أطراف النزاع، خلالها، مختلف أنواع الأسلحة الثقيلة والخفيفة التي اخترعتها المدنيّة الحديثة، وعند الطفولة اللبنانيّة بوجه خاص، وهي التي لا تتنشّق منذ ما

يتجاوز الخمسة عشر عاماً سوى هواءٍ مشحون بالأحداث المؤلمة الدائرة على أرض بلادها.

بمعنى آخر، يتنشّق الطفل اللبناني هواء عنف مزدوج التأثير؛ فهو من جهة يشارك أطفال العالم شعورهم بعدم الإطمئنان نتيجة اضطراب الساحة الدولية، لكنّه يعيش، من جهة أخرى، شعوراً خاصاً به (وبأمثاله ممّن تدور على أرض بلادهم أحداث حروب مؤلمة) ينتج عن معايشته لكل مظاهر العنف المهيمنة على بلاده. ثم إنّ ما يزيد إضطراب مشاعره حدّةً، بالمقارنة مع أمثاله ممّن يعانون من تأثيرات الحرب الدائرة على أرضهم يكمن في كون بلادهم (لبنان) تشكّل الميزان أو بالأحرى المرآة التي تعكس ليس فقط مجمل الضغوط التي تسود العالم العربي المحيط به بل أيضاً وعبره (العالم العربي) مجمل التوتّرات المهدّدة للكون بأسره لأنّه يشكّل صورة مصغّرة عن العالم حيث يمتزج ويتحاذى الشرق والغرب معاً.

في خضم هذا العالم المضطرب هناك شيء واحد أكيد هو شمول العنف وفقدان الشعور بالأمان. هناك، في الواقع، صفة رئيسيّة تميّز الوجود المعاصر ألا وهي أمكانية إنزلاق الجميع في تيّار العنف والعدوانيّة لإنتشارهما غير المحدود وللطابع المطلق المميّز للتبريرات الهادفة لتبرئتها... وهذا ما شجّع وما زال يشجّع ذوي النوايا السيئة على ابتكار تقنيّات مستحدثة للترويع تنطلق، أساساً، من مبدأ عرض القوّة والتفاخر السائد اليوم أي من مبدأ اللجوء إلى العدوانية كهدف واستراتيجيّة في الوقت نفسه.

مهما يكن من أمر، يمكن القول أن موجات العنف المبرّرة بشكل مطلق والمستعملة اليوم كهدف للحصول على بعض المطالب لا بدّ أن تثير موجات عنف مقابلة كردّة فعل على الأولى وهكذا دواليك...؛ من هنا تُفهَم سيطرة مبدأ «العنف يبرّر العنف» على العالم الحديث الذي يتفاخر، وللأسف، بمدنيّته واختراعاته الحديثة على عوالم العصور الغابرة.

الفصل الرابع

جولة سريعة في أفق الحرب اللبنانيّة

يتطلّب البحث المعمّق في هذا المجال جدارةً وتخصّصاً لا نمتلكهما؛ إنّما لا يعني ذلك عجزنا عن فهم ما يدخل في صلب إختصاصنا ونقصد بذلك تحليل وفهم تجربة الطفل اللبناني الذي يعاني من هذه الحرب كما تكشّفت لنا من خلال روائزه الإسقاطية (رائز الحرب بشكل خاص) ومقابلاتنا العياديّة معه؛ لكنّ ذلك يتطلّب إحاطة معمّقة من قِبَلنا في ما يختص بالوضعيّة العامة المحيطة بالأزمة اللبنانيّة التي يعيش الطفل ضمن إطارها والتي تؤثّر فيه بشكل مباشر أو غير مباشر. إنّما لن نتوسّع كثيراً في عرض مجمل الآراء التي وردت عند مختلف الباحثين والمشتغلين في هذا المضمار بل سنكتفي بعرض سريع لها متوقّفين بشكل خاص عند الأسباب الداخلية التي ساهمت في إشتعال هذه الحرب على الأرض اللبنانية[1]:

أصبحت حرب لبنان، التي ظهرت طلائعها منذ وقت غير قصير، واقعاً يفرض نفسه، واقعاً دامياً تجاوز ـ من حيث الضراوة التي تميّز بها ومن حيث القدرة على الهدم والتخريب والتهجير ـ كل ما عرفه لبنان من وقائع دامية حدثت خلال تاريخه الطويل.

فبالنسبة إلى سرد الأحداث والتفاصيل، هناك دراسات تأريخيّة متعدّدة لا حصر لها تتشابه غالباً من حيث الشكل والمظهر إنّما تتباين، وبشدّة، من حيث

(١) كي لا نطيل الحواشي نعيد القارىء للفهرست حيث يجد في الخانة المخصّصة للحرب مختلف المراجع التي شكّلت المنطلق الأساسي لتحليلنا.

المضمون؛ في الواقع تبدو آراء مختلف المؤرّخين شديدة التشعّب والتباعد لكن يمكن حصرها ضمن إطار تيارَين كبيرين:

- تيّار ينادي بـ «العروبة» ويتطلّب من المواطن اللبناني أن يكون عربيّاً قبل أن يكون لبنانياً.

- تيّار ينادي بـ «اللبننة» يتطلب من اللبناني أن يكون لبنانياً بالدرجة الأولى ثم عربيّاً.

تجدر الإشارة هنا للدور الكبير الذي قام به، وما يزال يقوم به، التعصّب الطائفي الكامن وراء أنصار كلّ من التيارين؛ في الواقع، نجد أن أنصار التيّار الأوّل ينتمون، بشكل عام، للطائفة الإسلامية بينما ينتمي أنصار التيّار الثاني للطائفة المسيحية بحيث ينتابنا شعور، لدى مطالعتنا لمختلف الدراسات التاريخية، بأن التوتّر التاريخي في العلاقات القائمة بين الإسلام والمسيحية هو الذي يكمن، مبدئياً، وراء هذه المشادّات الجدليّة. ولقد بلغ هذا التوتّر درجة من الحدّة هدّدت إستقرار لبنان وبنيته القاعديّة التي تبدو اليوم وهميّة أكثر منها واقعيّة وحقيقيّة؛ لمسنا هذا التوتّر بشكله الواضح لدى الأطفال (موضوع دراساتنا الميدانية) عبر التحليل العيادي المعمّق لمختلف اختباراته الإسقاطية.

هذا ويتلخص الإختلاف بين التيّارين بما يلي:

- يرى مجمل مؤرخي التيّار الأول (تيّار العروبة) في الغبن التاريخي اللاحق بالمسلمين تجاه الإمتيازات الطائفية الممنوحة للمسيحيين (للموارنة بشكل خاص) والتي تشكّل أساس النظام السياسي في لبنان، السبب الرئيسي المسؤول عن إندلاع الحرب الطائفيّة (كما يسمّونها) في لبنان. ثم إن تفكيرهم لم ينحصر فقط في هذا الإطار بل تعدّاه ليشمل التركيز على دراسة الإسلام وإظهار قدرته على تتبّع تيّارات التجديد المعاصرة.

- أمّا التيّار الثاني (تيّار اللبننة) فيرى أن الحرب تعود لأسباب متضاربة ومتعدّدة تتناول المستويين: الداخلي والخارجي؛ وكذلك القول بالنسبة للأهداف المبتغاة من وراء إشعالها فهي، بنظرهم، شديدة التنوّع وتختلف باختلاف الفرقاء الذين ساهموا، بشكل مباشر أو غير مباشر، في سير الأزمة اللبنانية. يلخّص

أنطوان جبر هذه الرؤية كالآتي: «تتأثّر الأزمة اللبنانية بالصراعات التي تتفاعل داخل منطقة الشرق الأوسط؛ لا بل يمكن إعتبار هذه الأزمة كمحور أساسي أو كنقطة إرتكاز تتراكم حولها ومن ثمّ تتفجّر مشاكل وأزمات الشرق الأوسط. كما أنّها تتأثر بمختلف معايير الإستخفاف العالمي الذي لم يرَ حلاً للمشكلة الفلسطينية إلاّ بتصفية الدولة اللبنانية»(١).

وفي ما يختص بتحديد هويّة الحرب اللبنانية نعود إلى ما قاله فؤاد مطر في هذا الصدد: «إن الحرب اللبنانية من النوع الذي يصعب تحديد هويّته؛ فلا هي طائفية فقط ولا هي إجتماعية فقط ولا هي لبنانية فقط ولا هي إصلاحية فقط، إنّها كل هذه الأمور وغيرها مجتمعةً»(٢).

ومن وجهة نظرنا نقول: رغم أهميّة الإعتبارات الخارجيّة يمكن التأكيد على بقائها دون فعاليّة إذا لم يقدّم البلد المنوي إشعال فتيل الحرب فيه أرضاً خصبة تجعل التدخّلات والأهداف الخارجية، مهما تعدّدت وتنّوعت واشتدّت أهميّتها، ممكنة التحقيق.

في الواقع، هناك أسباب داخليّة شتّى تتناول مختلف الإتّجاهات: الثقافية ـ النفسية كمشكلة تكوين شخصيّة اللبناني وهويّته الوطنية، الدينية ـ الطائفية، الإجتماعية ـ الثقافية، الإيديولوجية، التكوينية كمشكلة تركيبة البلاد وتكوينه الديمغرافي، التاريخية والجغرافية...، وتداخل بعضها مع بعض شكّل في الحقيقة، الأرض الخصبة لفعاليّة التدخّلات الخارجيّة في إحداث الحرب اللبنانية وفي إذكاء نارها.

هذا ويمكن القول باستحالة تجاهل هذه الأسباب الداخلية خاصّةً وأنّها ترتبط، بشكل مباشر أو غير مباشر، بواقع الحرب وانعكاساتها على المجتمع بشكل عام وعلى الإنسان ـ الفرد بشكل خاص؛ كما أنّها ترتبط بمفاهيم متعدّدة لا يمكن فهم معطيات الأسرة بدونها. لكنّنا سنكتفي، في هذا المجال، بما قلّ

(1) Jabre (A), «La guerre du Liban», Ed. Belfond, France, 1980, p 268

(٢) فؤاد مطر، «سقوط الأمبراطورية اللبنانية» (الجزء الأول: «الشرارة»، دار القضايا، ١٩٧٦.

ودلّ أي بما يمكّننا من فهم تأثيرات الحرب إنطلاقاً من فهم الإطار المتكامل للوضعيّة: من أهم هذه الأسباب نذكر:

١) **مشكلة الهويّة الوطنية**: في الحقيقة، بدت الهويّة اللبنانية، على ضوء مختلف الدراسات التي أُجريت في هذا المجال، مشبعةً بمختلف المشاعر العاطفية والدينية التي تهيّئها لا للتأقلم مع ثقافة إجتماعية شاملة للبلاد بل مع ثقافة خاصة بالطائفة التي ينتمي إليها الفرد. عوامل متعدّدة عزّزت فقدان هذه الهوية: ـ تبعيّة اللبناني المفرطة لعائلته التابعة، بدورها (وبشكل مفرط) للطائفة التي تنتمي إليها؛ وقد ساهمت هذه التبعية المزدوجة في تعطيل دور عمليّة التأقلم الإجتماعي التي كان يجب أن تتم عند الفرد اللبناني على مستوى المجتمع ككل. ـ صراع نفسي داخلي يعيشه المواطن اللبناني بشكل دائم إذ يُطلب منه أن يكون لبنانياً وعربياً بالدرجة نفسها وهذا ما ساهم بجعل هويّته الوطنية كمنبع صراع لا منبع توحيد بين مختلف المواطنين بصرف النظر عن الطائفة التي ينتمون إليها. ـ تباين ظاهر بين مختلف المجموعات: الإسلامية والمسيحية، على مستوى المواطنيّة le patriotisme: فالمسيحي يخشى الذوبان في العالم الإسلامي المحيط به والمهدِّد بابتلاعه وإذابة شخصيّته الخاصّة به، بينما يبقى المسلم بعيداً عن هذا الشعور إذ يمكن القول إنّه، على عكس المسيحي، يتوق لمثل هذا الذوبان ويتمنّى حصوله.

ملاحظة تجدر الإشارة إليها: ظهرت هذه العوامل، بكل وضوح، في أبحاثنا بحيث بدت مسؤولة، وإلى حدّ بعيد، عن إضطراب الطفل لا بل الراشد اللبناني.

٢) **مشكلة الثقافة**: هناك تباين ظاهر بين المجموعات الإسلامية والمسيحية على مستوى معاشها الثقافي وقد انعكس سلباً على نفسيّة الفرد اللبناني وبوجه خاص على إمكانيّة اتصاله sa communication بأخيه اللبناني. هناك عوامل متعدّدة ساهمت في تعزيز صعوبة الإتصال بين مختلف اللبنانيين:

ـ إزدواجيّة اللغة الملقّنة للطفل منذ دخوله إلى المدرسة وحتّى منذ فترة الحضانة لا بل منذ إكتسابه لكلماته الأولى ضمن الإطار الأسري؛ سبق أن

تكلّمنا عن هذا الموضوع في طيّات الكتاب السابق، إنّما نودّ التنبيه هنا على ملاحظة بغاية الأهميّة وتكمن في خطورة إدخال لغة ثانية إلى قاموس الطفل اللغوي منذ سنّ مبكرة أي قبل أن يتمكّن من لغته الأم ويمتلكها بشكل كامل، إذ من شأن اللغة الثانوية منافسة وتعطيل الدور التكويني الفعّال الذي يحدثه إكتساب الطفل للغته الأم (اللغة العربية عندنا) بالنسبة لتنمية ثقة الطفل بنفسه عبر ثقته بلغته[1]. هذا وقد تبيّن لنا خطر هذه الإزدواجيّة اللغوية في الميول الفُصامية التي بدت عند الطفل اللبناني كنتيجة لتأثير العوامل الثقافية والتربوية لا كسياقات تكوينيّة في بنية شخصيّته.

ـ البرامج التعليميّة التي تجاوزها الزمن والتي لم يُدخَل إليها، منذ عام ١٩٤٥، أي تغيير يُذكَر خاصة وأن التغييرات التي أُدخِلت (هذا إذا ما أمكننا تسميتها تغييرات) حصلت عشوائياً لا نتيجة تخطيط تربوي يمهّد لها لتتلاءم مع وظيفة التربية الأساسية التي تجعل منها ذلك الحقل الملائم للنمو النفس ـ إجتماعي عند الطفل. بمعنى آخر، تبدو التربية في مجتمعنا كمركز لنشر المعلومات لا أكثر ولا أقلّ: فالطفل يبدو كوعاء ينبغي ملأه بالمعلومات. . . . نظرة سريعة على نوعيّة وكيفيّة تعاطي المدرسة والمُدَرِّس، حالياً، مع التلميذ (حتّى في المدارس المعدّة كفُضلى بالمقارنة مع غيرها من المدارس) تكفي لإدراك واقع التربية المؤلم عندنا: إرهاق كاهل الأهل ليس فقط بالأعباء الماديّة بل أيضاً بالأعباء التربوية لأنّ هاجس المعلِّم يكمن في رغبته بإنهاء البرنامج المطلوب مهما كان الثمن؛ لذا نرى طفلنا يعود بعد المدرسة إلى منزله وهو ينوء تحت ثقل الفروض والدروس المطلوبة منه لليوم الثاني فيقضي الأهل معه الساعات الطوال ليتمّمها فيتعب ذهنه ويملّ وينشأ بداخله كره للمدرِّس والمدرسة على حدّ سواء. . . في الواقع، أظهر التحليل العيادي الذي قمنا به إنعدام ثقة التلميذ بأستاذه وبمدرسته.

٣) **الطائفية الوظائفية**: المطبّقة ضمن إطار الممارسة العملانية والتي عزّزت، عبر

---

(١) سبق أن ناقشنا، في كتابنا السابق، أهميّة إكتساب اللغة وامتلاكها في تطوّر النموّ السوي عند الطفل.

التوزيع النسبي للوظائف على أساس الطوائف (مبدأ ستة وستة مكرّر)، مشاعر الإنفصال عند مختلف اللبنانيين نظراً لإمتلاء قلوب من لم يقع عليهم الإختيار (وهم يحسّون أنفسهم أكفأ ممّن اختيروا للوظيفة المطلوبة) بمشاعر الحقد والمرارة تجاه الفائزين خاصّةً وأن الإختيار يكون قد تمّ بناءً على إنتماء الفرد لهذه الطائفة أو تلك لا بناءً على تفوّقه العلمي والعملي. . .

ولقد انعكس هذا التنافر، وهنا تكمن خطورته الكبرى، على مجال الإتّصال والتبادل الإجتماعيين بين اللبنانيين؛ والسبب الأساسي يكمن في استحالة التفهّم والتفاهم في ما بينهم نظراً لكونهم يتخاطبون بلغة مختلفة لا يعي المخاطب منها سوى ما يريد أن يفهمه هو لا ما يريد المُرسِل (أي المخاطِب) إفهامه إيّاه. يمكن وصف لغة التخاطب بين اللبنانيين بـ «حديث الطرشان» إذ أن للمفهوم الواحد عندهم معاني تختلف باختلاف طائفة الفرد وايديولوجيتّه ومصالحه.

على أن هناك، ضمن إطار التنافر القائم بين اللبنانيين وخصوصاً على المستوى الثقافي، عاملاً إضافياً زاد من اتّساع رقعة التباين الموجود بينهم ويكمن في فهمهم المتباين للمعايير الخاصّة بالشرق والغرب من قِبَل المجموعات الطائفية: فتقبّلها للقيم الصناعية والتقنية والثقافية الآتية من الغرب تسوده البلبلة، وهذا ما أحدث تشويشاً في قيمها الخاصّة بها. في الحقيقة، يمكن القول أن كل الأوساط الثقافية اللبنانية منفتحة على الغرب لكن على طريقتها الخاصّة بها أي إنطلاقاً من حاجاتها ومفاهيمها: فالفرد اللبناني يتبنّى من النماذج الغربيّة المُقدَّمة له تلك التي تتلاءم مع مصالح طائفته (الإقتصادية والنفسية والعاطفية والإجتماعية. . .) ومع ما يؤكّد شخصيّتها على الساحة اللبنانية فيساعدها على فرض سيطرتها. . والأخطر من ذلك يكمن في تبنّي اللبناني للقيم والنماذج الغربية عن ثقافته دون أن يُحدِث فيها التعديل اللازم لتصبح متلائمة مع معطيات ثقافته وشخصيّته الخاصّتين بمجتمعه؛ ولا أحد يجهل ما للفروق الثقافية والإجتماعية من تأثير على تكوين شخصيّة الفرد والمجتمع لذا ينبغي، لدى نقل أو تبنّي سمة ثقافية معيّنة من إطار ثقافة ما إلى إطار ثقافة أخرى، تعديل هذه السمة وتحويلها بشكل يتلاءم مع معطيات المجتمع الذي تُنقَل إليه.

بالإضافة إلى ذلك نقول: هناك تسابق لا واعٍ، لدى اللبنانيين، لتبنّي القيم الغربية أدّى بهم إلى فقدان شخصيّتهم الأساسية وأدخل الإضطراب في شعور الفرد بوحدته الشخصيّة شعر معه وكأنّه غريب عن نفسه وعن إحساساته وأفكاره ورغباته الخاصّة به. لذا لم تدهشنا ملاحظة تناقض اللبناني مع ذاته حيث نراه يثور، من جهة على التقاليد والأعراف المتوارثة خلفاً عن سلف لكنّه، في الوقت نفسه، ينكص ويرتّد إليها في تصرّفاته وسلوكه اليومي، من جهة أخرى. . .

ملاحظة تجدر الإشارة إليها: هناك، لحسن الحظ، عدد وافر من اللبنانيين الذين عرفوا كيف يتأقلمون، بذكاء وانسجام، مع النماذج الثقافية الغريبة عن مجتمعهم فكان لهم الفضل الأكبر في حفظ هذا المجتمع من الوقوع فريسة الضياع التام.

مهما يكن من أمر، يمكن القول: إن مجموعة التنافرات المُلاحَظة بين اللبنانيين والمشار إليها أعلاه ساهمت، بمقدار كبير، في تفشيل وظائف التكامل في شخصيّة الفرد اللبناني بشكل عام.

٤) **الذهنية**: عامل آخر ساهم في جعل لبنان أرضاً خصبة لفعاليّة التدخّلات الخارجيّة ألا وهو ذهنيّة اللبناني التي ترسّخت عنده عبر الأجيال فشكّلت نفسيّة خاصة به؛ في الحقيقة، تميّز اللبناني بعادة كان لها انعكاساتها السلبية على تطوّر مجتمعه: فهو يريد الشيء وعكسه، يريد الغاية دون أن يتقبّل الوسائل الكفيلة بتنفيذها ودفع ثمن ما يريد. ولقد تجلّى ذلك عبر مظاهر متعدّدة تتناول مختلف أُطر حياته: فهو مثلاً، على مستوى الزواج، يريد الفتاة العذراء البريئة التي لم يتعرّف إليها أحد والتي لم تخرج أبداً من منزلها «فتاة ما باسها على تمّها غير أمها» كما يقول المثل الشعبي، لكنّه بعد الزواج يتذمّر ويتأفّف من جهلها للكثير من المعطيات الحياتية وقد جهل أو تجاهل أن مثل هذه الفتاة لم يُتَح لها مجال النضج الحياتي. . . ، مثل آخر على المستوى الإجتماعي العام: يريد اللبناني طرقات دولية واسعة على غرار تلك الموجودة في الغرب مثلاً لكنّه لا يتقبّل، بالمقابل، واقع دفع الضرائب كي يتمكّن المسؤولون من تفيذ المشروع؛ وهو يريد أن ينعم

بالرخاء الإقتصادي لكنّه يرفض الغلاء النسبي الضروري لتحقيقه؛ إنّه يتعلق بالشرعية وبوحدة لبنان واستقلاله. . . كلاميّا إذ يبقى تصرّفه معاكساً لما يقول. . .

٥) **الإيديولوجية**: وهي لا تبدو أوفر حظّاً من الثقافة في تقريب اللبنانيين، بعضهم من بعض وتأمين الإنسجام بين المجموعات المختلفة والمتباعدة. في الواقع، نلمس عند مختلف الأفراد المنتمين لإيديولوجيّات مختلفة ومتباينة نفس التعلّق بالطائفة والتباين ما بين الموقف الكلامي والسلوك الحياتي اليومي. . .

٦) **مسؤولية الدولة** في ما حلّ بالبلاد من دمار وخراب شاملين هي في الحقيقة ضخمة جداً نظراً لتجرّد المسؤولين عن مقوّمات الدولة من الحسّ بالمسؤولية والوعي لكل ما حدث في البلاد من مظاهر تشير لتحضير ما يهدّد بوقوع الحرب: لقد كان باستطاعة أيٍّ كان الدخول إلى البلاد والخروج منها كما يشاء، لا بل بإمكانه إدخال ما يشاء من أسلحة. . . دون علم المسؤولين . . . ولا نزال حتّى اليوم نلمس، عندهم، التصرفات نفسها؛ ولقد عبّرت سكارلت حدّاد[1] عن تجرّد المسؤولين من أي حسّ بالمسؤولية أفضل تعبير حين قالت: «عن عدم قدرة أو عن عدم إحساس بالخطر المهدِّد للبلاد، لا يزال بعض المسؤولين يشنّون بعضهم على بعض الحرب الكلامية فيتقاذفون التهم وينفضون الغبار عن السجلاّت القديمة البالية. . . كما لو أن هناك وقتاً يسمح لهم بذلك. إن وجود البلاد وكيانه مهدّدان بالخطر لا بل بالزوال ولا يزال بعضهم يفرض، كي يقوم بتحمّل مسؤولياته، وجود ضمانات معيّنة متناسين أن ليس هناك لبناني واحد يستطيع تأمينها لهم. . . فكأن البلاد قطعة حلوى يجري توزيعها وتقاسمها. . . وقد نسي المسؤولون أو تناسوا، في غمرة المجادلات الباطلة، أن خسارة البلاد تعود بالخسارة الشاملة دون إستثناء».

(1) Haddad (Scarlett), article paru au «Nouveau Magazine», N; 1298 du 19 Juin, 1982, P 21

ويمكن القول إن سياسة شدّ الأطراف ومحاولة اقتناص الفرص هي التي سادت الساحة اللبنانية قبل الحرب لا بل منذ إعلان الإستقلال. . .

٧) **الجيش** وهو العمود الفقري في كل بلاد انقسم على بعضه، منذ بداية الأزمة اللبنانيّة وهذا ما أضعفه وأزال مفعوله فترك الأرض اللبنانية نهباً لمطامع الغازين ومطامحهم ولسيادة الميليشيات المسلّحة بديلاً عنه. وقد قال الرئيس السابق الراحل العماد فؤاد شهاب أن «ليس بإمكان أيّة دولة أن تحكم وتفرض الأمن والإستقرار إلا إذا كان لها جيش مخلص ومستعد دائماً للتضحية بنفسه في سبيلها كي تستطيع فرض النظام والسلطة».

٨) **أساس لبنان التاريخي والإجتماعي والإقتصادي والجغرافي والثقافي:** لقد تميّز لبنان الدائم (قديماً وحديثاً) بصفة خاصة ميّزته عن باقي البلدان وطبعته بطابعها الخاص الذي هيّأه لأن يكون على ما هو عليه الآن. تكمن هذه الصفة بالواقع الآتي: لا يتحدّر اللبنانيون من أثنية واحدة بل من إثنيّات ethnies مختلفة تشاركت الوجود في لبنان نتيجةً لظروف معيّنة (منها الإجتماعية ومنها السياسيّة. . .) لكن دون أن تتشارك الإرادة في العيش المشترك الموحّد الذي من شأنه أن يصهرها في بوتقة واحدة ضمن إطار دولة موحّدة تضم كل المجموعات المكوِّنة لها داخل بنية إجتماعية صلبة تدفع بمختلف السكّان لأن يتحسّسوا المصير الواحد فيكون لهم، بالتالي، تصوّرات موحّدة حول بنية مجتمعهم الخاص بهم. على العكس من ذلك، بقيت هذه المجموعات محتفظةً، كي لا نقول متشبّثة، بالمميزات (الدينية والبشرية والمؤسسية) الخاصّة بالأثنية التي إليها تنتمي. بمعنى آخر، تتمثّل المجموعات المكوِّنة لدولة لبنان الحديثة وكأنها تراكميّة تحاول كلّ منها زحزحة المجموعة الأخرى وإزالتها كي يتسنّى لها البقاء بمفردها محتفظةً بمجمل البلاد لنفسها.

يضاف إلى ذلك كون لبنان، رغم إعلان إستقلاله في ٢٢ تشرين الثاني عام ١٩٤٣ مثبّتاً بحدوده الحالية منذ أول أيلول عام ١٩٢٠ بعد أن كان تحت الإنتداب الفرنسي، لم يتمتّع أبداً بفترة طويلة نسبياً من الإستقرار السياسي والإقليمي. يعود ذلك، بمقدار كبير، لواقع تكوينه التاريخي الذي تألّف إنطلاقاً

من مجموعات أثنية ـ دينية ـ عرقية مختلفة تميّزت كلّ منها بآمالها ومطامحها وثقافتها الخاصّة بها. في الواقع، يمكن القول إن سكّان لبنان الحاليين هم أحفاد المجموعات الأثنية المتعدّدة التي مرّت على أرضه أو سكنتها منذ ما قبل الألف الثالث قبل المسيح كالأموريين والآراميين والكنعانيين والفينيقيين والهندو-أوروبيين والعرب والعثمانيين. . . ، فطبعت المنطقة بطابعها الخاص ونتج عن ذلك مزيجاً غريباً من السكّان يبدون معه كفسيفساء تضمّ مجموعة من الأنماط البشرية.

هذا وتجدر الإشارة إلى ثابتةٍ هامّة ميّزت تطوّر لبنان التاريخي منذ قرون وتكمن في إرتباط إستقلاله الداخلي بضمانة دولة خارجية قويّة كي يتمكّن من تأمين توازنه بالنسبة لمحيطه وهذا السلاح بدا ذا حدّين إذ كان يكفي بأن تتخلّى القوّة الخارجية عن المسؤولين في لبنان (لسبب أو لآخر) حتّى يصبح تحت رحمة القوى المحيطة به.

يوضح السيد أحمد بهاء الدين عبر محاورة أجرتها معه جريدة الحياة[1] أهميّة مختلف العوامل السابق ذكرها في الأزمة اللبنانية بقوله ما معناه: إن كلّ حلّ لأي مشكلة في لبنان يبدأ في عقل الإنسان وينتهي فيه؛ كما أنّه يرى بأن شرح القضية اللبنانية يحتاج لكلام طويل ويصعب على غير اللبناني فهمه لأن «الجغرافيا لعبت دوراً أساسياً جداً، لا يقلّ عن التاريخ أهميّة في تكوين نفسيّة الشعوب: فنفسيّة الشعب المصري، مثلاً، سويّة، بسيطة وأقرب إلى الإنفتاح لأن الجوّ في مصر معتدل والأرض مسطّحة من أسوان إلى الإسكندرية. . . ؛ لكن بالنسبة إلى بلد مثل لبنان، جبلي أساساً، لا بل جبلي جداً مليء بالجبال والقرى الصغيرة المنتشرة بين هذه الجبال،» فإن من لا يعرفه يظن أن بيروت هي لبنان مع العلم أن بيروت ليست المشكلة؛ ففي الشتاء وعندما تنزل الثلوج، قبل الوسائل الحديثة وقبل إنشاء الطرق الممهّدة كانت تنفصل أقرب قريتين عن بعضهما فصلاً تامّاً ساعد في تأكيد الروح الإنغلاقية عند القروي ـ اللبناني. من

(١) «جريدة الحياة»، الجمعة ١٩ كانون الثاني، ١٩٩٠، العدد ٩٨٨١، مقال تحت عنوان «الحياة تحاور أحمد بهاء الدين»، ص ٨، (القاهرة من نوال مصطفى).

هنا يُفهم تعصّب اللبناني لضيعته (وهي أصغر من القرية) وقد أثّر ذلك على تكوين المجتمع ونمّى الفرديّة الشديدة وعدم الإعتراف بالحكومة. ثم إن الجبل هو، تاريخياً، أهم ما في لبنان إذ كان ولا يزال من يسيطر على الجبل يستطيع حكم لبنان كلّه: فمن يسيطر على الجبل تصبح بيروت تحت مرماه وأي مدينة ساحلية أخرى كطرابلس وصيدا وصور إذ أن كل هذه المدن محكومة بالجبل الذي هو قلب لبنان. ويُفهَم من ذلك، أيضاً، مطالبة الفصائل التي لا تتعدّى مئات الألوف من السكّان بدولة مستقلة في لبنان ممّا لا يخطر على بال أي مواطن آخر كالمصري أو العراقي أو السوري. . . ، مهما كان مذهبه. . . ؛ مع العلم أن لا مستقبل للبنان إلاّ بعودة سلطة شرعية كاملة يقبلها اللبنانيون؛ لكن واقعه، منذ الإستقلال خاصّة وقد أطلق اللبنانيون على بلدهم صفة «الكيان اللبناني» لا «الوطن اللبناني»، أبرز واقعاً معاكساً لذلك لأن الشعور بالكيان يختلف عن الشعور بالوطن؛ يقول السيد أحمد بهاء الدين في هذا الصدد: «عندما أقول «وطن» فذلك يعني أنني مستعد لأن أتنازل له. لكن اللبناني بحبه للإستقلال والإنعزالية فضّل الكيان على الوطن لأنه يوفّر له شخصيّاً درجة من الإستقلالية» في حين أن الوطن لا ينبني دون تجنيد إجباري مثلاً أو ما معناه «خدمة الوطن» أو تربية مدنية (نجد وللأسف أن هذه التربية أُلغيت من البرامج التعليميّة في لبنان منذ سنوات لا بل نحن نتساءل عن فحواها قبل إلغائها خاصّة وأنّها لم توفّر أي حسّ بالمواطنية عند اللبناني)، أو تنازل لسلطة مركزية عن جزء من حرّيته أو جزء من إمبراطوريته الصغيرة.

ثم إن إقامة الشرعيّة المُعتَرف بها من قِبَل الجميع يجب أن تبدأ في التربية منذ الصغر وذلك بغرس الشعور بأنه مواطن، عند الطفل الصغير؛ مواطن في وطن لا طرفاً في كيان. وهنا تكون مهمّة كل فئة أن تتنازل عن حقوقها الذاتيّة لمصلحة الوطن أي لمصلحة الجميع لكن لا بد أن يقبل بذلك مجموع الشعب. . .

٩) هناك تناقض قائم بين البنية الإجتماعية المركّبة والمكوّنة من أقليّات وبين السلطة المركزية نتج عن كل ما سبق قوله نتيجة إرتباط هذه الأخيرة

بمعادلة إجتماعية خاضعة لعملية التناغم السياسي في أدوار المجموعات الدينية التي تؤلّف تركيبة البلاد الإجتماعية. وقد شكّل ذلك عاملاً كفيلاً بإحداث الإضطراب في البنية الإجتماعية لأن وجود السلطة بالمعنى الحقيقي للكلمة يتعارض، إجمالاً، مع وجود مصالح المجموعات المكوِّنة للبنية الإجتماعية والسياسية: فقيام الدولة لا يتمّ إلاّ بإلغاء مختلف المصالح العائدة للفئات السكّانية (كما سبق أن قلنا) وهذا ما لم تسمح به، لكننا نأمل بأن تعي ضرورة القيام به، هذه المجموعات.

من هنا تأكيدنا على التعاكس القائم عند اللبناني بين شعورين يتجاذبانه: إحساس بالإنتماء لطائفته من جهة وإحساس بدولة قوية وقادرة من جهة أخرى (لقد بدا واضحاً، عنده، منذ القرن السادس عشر وحتّى اليوم). ولقد حدّد ذلك، بمقدار كبير، مستقبل بلاده التاريخي والسياسي ممّا دفع المسؤولين لإيجاد حدّ من التفاهم حول برنامج سياسي يضمن ولو الحدّ الأدنى من الإلتقاء بين مختلف المجموعات سمّي بـ «الميثاق الوطني» المُعدّ كصيغة تعايش رافق إعلان الإستقلال عام ١٩٤٣. نجد في قول ج شرف[١] الآتي أصدق صورة تعبّر عن هذا التعاكس: «لم تفقد مشكلة التعايش بين المجموعات البشرية التي تؤلّف المواطنية اللبنانية شيئاً من حدّتها وفعاليّتها. فالتفتيش عن صيغة جديدة للتعايش فيما بينها فرض نفسه كضرورةٍ ماسّة وشرط أساسي لبقاء الدولة اللبنانية الفتية ولضمان إستمراريتها إجتماعياً وسياسياً».

لكنّ «الميثاق الوطني» فشل في خلق وحدة وطنية تضمن توحيد مختلف اللبنانيين ضمن إطار وطن له حدوده رغم التصريحات الرسمية التي نوّهت إلى عكس ذلك مراراً وتكراراً. فبدلاً من الوصول لتحقيق دولة جديدة وعقيدة سياسية موحّدة، أدّى الميثاق الوطني لتعميق التناقض الذي كان سائداً على الساحة اللبنانية قبل إيجاده لدرجة شدّد معها، المسيحيّون والمسلمون على حدّ سواء، على إسقاطه لإنعدام جدواه وفاعليّته[٢].

(1) Charaf (Georges),«communautés et pouvoir au Liban», Ed. CEDRE, Beyrouth, 1981, P 203

(٢) لأخذ فكرة واضحة ومفصّلة عن كل ما قلناه في متن هذا الفصل نعيد القارىء للفهرست تحاشياً لتطويل الحواشي من جهة ولكون المراجع كاملة فيه من جهة أخرى.

هذا هو الوضع الداخلي الذي كان مسيطراً على الواقع اللبناني عند بداية الأزمة اللبنانية (واستمر طيلة هذه السنين) والذي نجد آثاره مطبوعةً بشكل حيّ في نفس وذهن الطفل اللبناني (موضوع أبحاثنا الميدانية).

ولقد ساهم هذا الواقع في جعل الوتر الديني السلاح الأمضى والأكثر فعاليّة في إحداث ومن ثم إذكاء نار الحرب تحت شعار «الحرب الأهلية» نظراً لإلتقاء جميع المصالح (خارجية كانت أم داخلية) على هذه التسمية رغم تباين الأهداف التي أدّت إلى شتّها وذلك في أحيان كثيرة.

لكن ما نودّ التركيز عليه من كل ما سبق قوله يكمن في تأكيدنا على الأثر العميق الذي أحدثه تعقيد الحرب اللبنانية من حيث العوامل والفئات المتقاتلة والأهداف المبتغاة على نفس الطفل اللبناني الذي ناء تحت ثقله فأصبح أرضاً خصبة لغزو شتّى الإضطرابات النفسية. في الواقع، كشف التحليل العيادي ـ النفسي المعمّق الذي قمنا به عن وجود عدد كبير من الإضطرابات النفسية، عنده، تمتد من غموض الهوية وازدواجيتها وصولاً لحدود الذُهان الفُصامي (وهو أخطر الأمراض النفسية) مروراً بعدد من الإضطرابات الأخرى.

هذا وتجدر الإشارة إلى عدم تجانس اللبنانيين فيما بينهم، على المستوى الطائفي، وإلى الفروق العميقة الغور التي تفصل بينهم على مستويات متعدّدة بدا موضوع «اللبننة» و «العروبة» أحد وجوهها الظاهرة والأكثر حساسية.



الفصل الخامس

واقع الحرب النفسي

١) واقع الحرب النفسي بشكل عام:

سبق أن قلنا: لكل حرب بداية ونهاية؛ ولدى الحديث عن نهاية حرب معيّنة ينبغي الحديث عن غالب ومغلوب وعن درجات متفاوتة في ما يختص بالهزيمة تتراوح ما بين الاستسلام التام للمنتصر والاستسلام دون شروط كما كانت الحال أيّام الرومان مثلاً حيث كان المغلوب يفوّض أمره للشعب الروماني، إلى القبول بمعاهدة صلح بين فرقاء النزاع وإن كانت مجحفة بحق المهزوم. نجد هذا التنويع حتّى عند الشعوب البدائية[1].

وما يلفت الإنتباه في حالة ما بعد الحرب يكمن خصوصاً في عودة المتقاتلين إلى نقطة البداية، إلا إذا تمّت إبادة الفريق المغلوب أثناء الحرب ولم يحدث ذلك في التاريخ إلا في حالات نادرة. لكن أكثر ما يلفت الإنتباه هو عودة فرقاء النزاع، بعد تهديد بعضهم بالفناء، إلى وضعيات مشابهة لتلك التي انطلقوا منها قبل اندلاع الحرب بينهم: نجدهم، مثلاً، يقبلون بعد اشتعال حرب ضروس بينهم بحلول خجولة إقترحتها عقول المصلحين منذ بداية الحرب إنّما رفضوها بشدّة واحتقار زاعمين أنّها لا تنسجم مع كرامتهم.

لكن، من وجهة النظر النفسيّة يمكن ملاحظة واقع جديد يرافق نهاية الحرب ألا وهو إنخفاض درجة العدوانيّة عند الأفراد وبالأخص عند موجّهي القتال والمقاتلين الأكثر ضراوةً؛ وعلى هذا الأساس يمكن تبيّن بداية النزوة الحربية وتحديد الأعراض المميّزة للهدوء الداخلي المرافق لعدد من الحروب:

(1) Bouthoul, op. cit, P 398 - 411.

فمثلاً، لدى بداية الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) أبدى كلّ من فرقاء النزاع تشبّثاً مطلقاً تجاه فكرة السلام؛ لكن بعد انخفاض حدّة العدوانية إنخفضت فجأةً حدّة التشبّث فقبلوا بنقاط ولسون العشر كشروط معقولة للسلام. وكذلك القول بالنسبة للألمان، خلال الحرب العالمية الثانية، حين بدأ نجمهم بالأفول.

فضلاً عن ذلك، يمكن القول إن نزعة العقل الطبيعية تميل به لإعتبار كون كل حرب كبيرة تنهي عهداً وتبدأ آخر جديداً إذ، مع إنتهاء الحرب، تنشط المشاريع المستقبلية وتنتعش الروح المؤسسية بشكل عام... خاصّة وأن أحد أهم تأثيرات الحرب يكمن في الطلب المتزايد لليد العاملة. وهذا التزايد ينتج، إجمالاً، عن فقدان العديد من الأشخاص الاصحّاء الذين قُتلوا أثناء الحرب ممّا يساهم، نسبياً، في تحسين وضع العمّال. يُلاحَظ، في الواقع بأن فترة إندلاع الحرب يسبقها، عامةً، مرحلة إنخفاض في الأجور تشهد بحدّ ذاتها على وفرة اليد العاملة يتبعها، نتيجة الحرب، إنقلاب في المعايير: قلّة اليد العاملة مع وفرة في طلبها. وهذا ما يؤدي للإحساس أن نهاية الحرب تؤمّن إستعادة الفرد لشعوره بالثبات خصوصاً وأن إحتدام العنف المميّز للحرب جعله يشعر وكأن كل ما حوله مطروح للبحث...

هذا بالإضافة إلى كون الحرب تنمّي الإحساس ببعض الفضائل كالبسالة والبطولة وروح التضحية واحترام الواجب والإخلاص... لكنّها، في الوقت نفسه، تنمّي أيضاً بعض الرذائل كالميل إلى الإجرام؛ في الحقيقة يمكن القول إن الحرب، شأنها شأن كل الأحداث البليغة الأثر، تُبرز الميول الكامنة عند كل فرد. إنها، كالسكر مثلاً، تكشف طبيعة السكّير؛ وحالة الحرب لا حالة السلم هي التي تعطّل حسّ الفرد بالعدالة: فهي تخلق أشراراً أكثر مما تزيل (أرسطو) وتنجب العديد من اللصوص والمتواطئين الذين تزيلهم حالة السلم (ماكيافل).

ومن المعروف أن إقتراب الفرد من الخطر وإحساسه باجتياز معارك هائلة ورؤيته لرفاق قُتلوا إلى جانبه يساهم، عنده، في حلّ المشاعر التي تضبطها قوانين المدنيّة: فالجنود الذين يحسّون بدنوّ أجلهم يستسلمون لنزواتهم ولضرورة

إشباعها؛ ثم إن الإعتياد على القتل والتدمير المرافق لحالة الحرب يقتل، بداخل كل إنسان حتّى داخل النفوس الأكثر نبلاً، حسّه الإنساني فيساهم، بذلك، في تنمية عدم إحساس الجندي مثلاً بشراسة ما يقوم به خاصةً وأنّه مضطر للدفاع عن نفسه كي يسلم.

وكلّما طالت الحرب إزدادت الفظائع المرتكبة نتيجة الإعتياد لأن الميل للقتل، شأنه شأن كل الميول الهدّامة، يمكن أن يصبح كالوباء: يُلاحَظ بعد الحروب الطويلة الأمد إرتفاع نسبة الجرائم؛ كشف لومبروزو Lombrozo، بالبيّنات والوقائع والإحصاءات، عن نسبة إرتفاع عدد الجرائم لدى إنتهاء كل حرب؛ وكذلك القول بالنسبة لدراسات كروسيو Crucio وكور Corr حول إيطاليا عام ١٨٦٦ والولايات المتّحدة الأميركية بعد حرب الإنفصال. يُثبِت هذا الواقع البلاغ الرسمي الذي ظهر في الولايات المتّحدة في ١١ كانون الأول عام ١٩٤٥ مورداً البيانات الآتية: إرتفع عدد الجرائم في فلوريدا بنسبة ٤٨٪ وحالات الإغتصاب بنسبة ٧٠٪ والسرقة بنسبة ٣٩٪ والإعتداء بنسبة ٧٢٪ وسرقة السيارات بنسبة ٥٥٪؛ هذا وقد أُوقِف في مجموع الولايات المتّحدة عام ١٩٤٥ ستّة ملايين شخص اتّهموا بارتكاب المعاصي (أي بنسبة واحد على ٣٥ مواطن). كما أن عدد حالات السطو في باريس إرتفع خلال العام نفسه إلى خمس عشرة مرةً عنه في عام ١٩٣٩.

حاليّاً، يمكن القول أن هذا الرقم هزيل جداً بالنسبة لما هو في الواقع؛ هذا دون إعتبار ضحايا العدوان الجماعي المميّز للحروب الداخلية المندلعة في العديد من البلدان أمثال بولونيا ولبنان ورومانيا (حيث يقع يومياً مئات الضحايا) وللحروب القائمة بين بلدان مختلفة (بين العراق وإيران، بين بريطانيا والأرجنتين، . . .)؛ فعدد القتلى وجرحى الحرب لا يمكن حصره في مثل هذه الحالات.

هذا وتجدر الإشارة لواقع بغاية الأهمية في هذا المضمار ويكمن في الصعوبة التي يجدها كلّ من اعتاد على العيش من السرقة وفرض الأتاوات وغيرها، أثناء الحرب، في العودة إلى الوراء خلال السلم والإكتفاء بالموارد الإقتصادية

المحدودة؛ يشكّل ذلك مصدراً للإجرام في حالة السلم لا يمكن تجاهله إذ يعوّض مرتكبي الأجرام، في عملهم هذا الرافض للواقع، ذلك الشعور بالإثارة والمورد المادي اللذين عرفوهما خلال الحرب.

والأخطر من ذلك كلّه يكمن في تمنّي الفرد (المُعلَن أو غير المُعلَن) لعامل الإثارة الدائمة الذي عرفه أثناء الحرب خصوصاً لدى إنغماسه في رتابة الحياة اليوميّة المميِّزة لحالة السلم. وما يعزّز مثل هذه الرغبة في أيامنا الحاضرة يكمن في ملل الوظائف الرتيبة التي يشغلها إنسان اليوم داخل المصانع والمؤسسات حيث لكل فرد وظيفته المحدّدة وحيث لا مكان لعنصر المغامرة أو الإثارة فيها. فمع المدنيّة المعاصرة التي تميل، وبكثرة، لخنق الغرائز وكبتها ممّا دفع بالفرد للدوران على نفسه داخل إطار مُغلق، تبدو الحرب الحالة الوحيدة التي من شأنها إبعاد شعوره بالملل وتوفير عنصر الإثارة والمغامرة لدرجة تدفعنا للتساؤل معها: ألا تتناقض المدنيّة التي خلقها الإنسان مع ميوله العميقة الغور أي اللاواعية؟ أوَ لا يشكّل ذلك المصدر الأساسي للدافع اللاواعي، عند الفرد المعاصر، للتمرّد عليها ومحاولة تدميرها؟

ومع ذلك يمكن القول أن هذا الإنسان لا يتمنّى، دائماً، حصول الحرب إذ يبدو أن المجتمعات تتوق، خلال فترات معيّنة، إلى حالة الحرب بحيث تستسلم خلالها لإنفلات النزوات العدوانية من عقالها فترتاح إذ تنفّس إلى الخارج ذلك الإحتقان الذي تولّد عندها والتوتر الداخلي الذي كان يضغط عليها... لتعود فتتوق، بعد حالة الإرتياح النفسي، إلى حالة السلم إذ تهدأ حدّة إحتدام النزوات الداخلية واللاواعية لكن مؤقتاً، وهكذا دواليك.

هذا غيض من فيض ممّا يمكن قوله حول واقع الحرب النفسي وقد اكتفينا بذكر ما يمكّن القارىء من تكوين صورة واضحة عنه. آن الأوان، بعد تقديم هذه الصورة، للتحدّث عن التأثيرات النفسية للحرب إنّما إنطلاقاً، هذه المرّة، من الحرب اللبنانية كي نتمكن من إستكمال الصورة عبر وقائع لمسناها بأنفسنا:

٢) الآثار النفسية للحرب على الإنسان اللبناني (على الطفل بشكل خاص):

يعيش الإنسان اللبناني، منذ ما يقارب الستّة عشر عاماً، حالة حرب مستعرة تتفاقم يوماً بعد يوم مهدّدةً توازنه النفسي والمادّي نظراً للآثار المتراكمة على مدى السنين ومتطلبّةً معرفة علمية وموضوعية لمختلف آثارها حتّى يكون بالإمكان مجابهتها مجابهةً واعية تمكّن المجتمع من تجاوزها.

وضرورة إدراك هذه الآثار تُفهَم بشكل خاص لدى معرفة إرتباطها بالدور الهام المُناط للمحيط (للأهل بشكل خاص) في مساعدة صغير الإنسان على تجاوز مختلف مراحل نموّه حتّى يصبح شاباً ثم راشداً يتمتّع بتجهيز نفسي وتكويني متوازن يمكّنه من مجابهة الصعاب المرافقة لتطوّره حتّى في حالة السلم فما القول، إذن، في حالة الحرب حيث تزداد الصعاب وتتضاعف؟

في الحقيقة، يتطلّب الحديث عن كل ما أثارته الحرب ولا تزال من انعكاسات سلبيّة على نفس اللبناني مجالاً واسعاً جداً، لكنّنا سنحاول إعطاء لمحة مختصرة إنّما وافية ومعمّقة تتناسب مع خطورة الوضع وضرورة إدراكه:

لقد أثبتت الدراسات التي قمنا بها ضمن هذا الإطار أن تأثيرات الحرب عديدة ومتنوّعة وقد أصابت المجتمع ككل، بمختلف أفراده ومؤسساته ولم ينج منها أحد؛ إنّما تجدر الإشارة هنا للآثار المتعدّدة التي لا تظهر إلا بعد إنتهاء حرب السلاح؛ وكما قال تشرشل بعد إنتهاء الحرب العالمية الثانية «. . . الحرب التي انتهت وضعتنا أمام الحرب الأخرى التي بدأت والتي ستكون أشدّ وأعنف، حرب إزالة ما تركته حرب السلاح من آثار. . .». هكذا كان واقع الحروب ولا يزال دائماً: لا تنتهي الحرب وتتوقف مع إعلان الإتفاق والهدنة بل تستلزم حرباً أخرى لإزالة آثارها؛ ولعلّ نتائج الحرب التي تبلغ مرحلة السلام والنتائج غير المنظورة (النفسية منها بشكل خاص) هي الأدهى والأشدّ رغم فداحة النتائج الأخرى أي المنظورة كالخراب والدمار اللذين طالا الأبنية والمؤسسات والمصانع والممتلكات الشخصيّة. . .

أمّا الواقع الأمرّ فيكمن في صعوبة بناء النفوس التي تتجاوز دائماً، وإلى حدّ بعيد، صعوبة بناء الحجارة، وذلك بشهادة علماء كثيرين وخبراء محلّفين في الحروب أمثال تشرشل وغيره. . . ؛ وما محاولتنا هذه لتسليط الأضواء على الآثار غير المنظورة سوى حَسّ المسؤولين، كل المسؤولين، من أصحاب إختصاص ومسؤولين عن مقدّرات البلاد. . . ، على معرفتها والعمل على إزالتها إنّما بشكل علمي وعملي ينطلق من تخطيط واعٍ تؤمّنه الدراسة والبحث المعمّقين والبعيدين عن السطحيّة والإرتجال التي سبّبتها الحرب والتي هي أخطر بكثير من أن نستطيع حلّها وتجاوزها ببساطة وسطحيّة خصوصاً وأن البناء المادّي الذي تهدّم كان ملكاً لأشخاص تعبوا لّيبنوه؛ لذا لا بدّ أن يترك دمار ما جنوه بعرق الجبين طيلة سنوات عمرهم وعيشهم لمختلف مشاعر التهديد لحياتهم وحياة أطفالهم وذويهم آثاراً سلبية تمثّل إنعكاس ذيول الحرب على نفس الفرد والمجتمع.

وهذه الآثار تكون، حتماً، أعنف وأعمق إذا ما ترافق فقد جنى العمر مع فقد أحد أفراد الأسرة أو مع تعطيل لقدرات أحد أفرادها («مُعاق الحرب») بحيث تمثّل إستمرارية حياته العاجزة، بالنسبة للأسرة والفرد، شهادةً دائمة تذكّرهما بويلات الحرب وبمعاناتها. . .

على كل حال نذكّر بأن تأثيرات الحرب لا تكون آنية فقط بل إن آثارها تمتد إلى أجيال وأجيال بعد إنتهائها فأوروبا، مثلاً، لا تزال تعاني آثار الحربين العالميتين المدمّرتين اللتين عرفتهما؛ كما أن آثارها يمكن أن تظهر عبر حالات عصبيّة وجسدية وأخرى نفسيّة لا بد أن يتأثّر بها المجتمع ككل فتنعكس عليه بالضرورة.

ثم إن تأثيرات ما بعد الحرب واقع أثبته تاريخ المجتمعات التي عانت ويلات الحروب كالمجتمعات الأوروبية مثلاً؛ ولقد حاولت هذه المجتمعات حلّ المشاكل الناتجة عن الحرب بوسائل درسها إختصاصيّوها، يجدر بنا التوقف عندها والإسترشاد بها إنّما عدم الإكتفاء بها نظراً لعدم تناسبها مع خصوصيّة مجتمعنا المرتبطة باعتبارات شتّى منها ما يعود للعوامل الدينية ومنها ما يعود للعوامل الثقافية الإجتماعية الخاصّة بكل مجتمع.

وتشديدنا على تأثيرات ما بعد الحرب يعود، في الحقيقة، إلى واقع التأثير النفسي الذي تحدثه مظاهر العنف المرافقة لكل حرب على حساسيّة الإنسان وسياق تفكيره الطبيعي بشكل تحوّل مفاجئ وعميق تُحدِث، معه، إنقلاباً في تفهمّه وتقبّله لمجمل القيم (أخلاقية كانت أم تكوينيّة أم إقتصادية أم إجتماعية - ثقافية أم سياسية. . .)[1].

بالعودة للحديث عن التأثيرات المباشرة التي كشفتها دراساتنا وملاحظتنا الموضوعية نقول إنّها أصابت المجتمع اللبناني ككل: بأفراده ومؤسساته وخصوصاً ببنيته المسؤولة عن تأمين تماسكه ووحدته.

في ما يختص ببنيته، فلقد أصابها إنهيار وتفكّك شبه تامّين بدءاً بالأسرة، مروراً بالمؤسسات (الرسمية منها والخاصّة كالمؤسسات التربوية والصناعية ومؤسسة الجيش)، وصولاً للإنهيار الإقتصادي شبه التام حيث انعدمت القيمة الشرائية للّيرة اللبنانية. . .

وبالنسبة للشباب اليافعين الذين بدأ وعيهم للحياة في ظلّ الأحداث وسماعهم دوي شتّى أنواع القصف والقذائف التي تجاوز صداها، قدرة جهازهم العصبيّ على الإحتمال، فلقد بدا العديد منهم معرّض لشتّى أنواع الإضطرابات الجسديّة والنفسية خاصّةً وأنّ بداخل كل إنسان ميولاً طبيعيّة نحو أنواع معيّنة من المرض؛ وما يميّز الإنسان السوي عن المريض هو فرق كميّ لا نوعي بمعنى أن سيطرة السمات المرضية على شخصيّة الفرد ومن ثم على سلوكه هي وحدها التي تميّزه ككائن مريض. هذا وقد ساهم الشاب (على الأقل كشاهد) في الأعمال البربرية اللا - إنسانية التي سيطرت على المسرح الإجتماعي الذي يستكمل تطوّر شخصيّته ونموّها ضمن إطاره فتزعزع توازنه النفسي المسؤول عن تحقيق ذاته واكتمال كيانه.

أما الراشد كأب وأم بشكل خاص، فلقد وجد نفسه، في أحيان كثيرة،

---

(١) سنتكلم، لاحقاً، على أهم هذه الإنقلابات المُلاحَظة عند اللبناني كما تكشّفت لنا على ضوء الدراسات التي قمنا بها وعلى ضوء ما قاله إختصاصيّون آخرون.

دون عمل أو أي مورد رزق يؤمّن قوته وقوت عيالـه كي يتمكّن من مجابهة الصعاب والإستمرار بالحياة مع أسرته. هذا إلى جانب إحساسه الدائم بخطر الموت يتربّص به أو على الأقل إحساسه بخطر التهجير من بيته وفقد كل ما جناه بتعبه وشقائه طيلة حياته.

وما القول بالطفل الذي رأى النور خلال الأحداث فبدأ مراحل نموّه، غالباً، في الملاجىء... بظلّ والدين يتآكلهما الرعب وينهشهما الخوف الـذي يقضي، يوماً بعد يوم، على البقية المتبقيّة من قوّة أعصابهما ومن أملهما بانتهاء النار الجهنميّة التي تهدّد بابتلاعهما مع كل أفراد الأسرة.

والمجتمع يظهر بأتعس حال: إقتصاد البلاد على وشك الإنهيار الكلّي إذ، بالإضافة إلى عدم قـدرة الدولـة على إستيفـاء الضرائب المتوجّبـة لها، هنـاك عمليّات الغش المتزايدة إلى جانب إنهيار العديد من المعامـل والأبنية والمـراكز التجارية والصناعية والمؤسسات الإجتماعية والبيوت والمدارس التي تُهدَم يوماً بعد يوم. والأخطر من ذلك كلّه يكمن في: - هجرة رؤوس الأمـوال إلى الخارج وتأجيل معظم الإستثمارات بانتظار انقشـاع الغيوم عن سـماء الوطن فيُصـاب المواطن، يوماً بعد يوم، باليأس من انقشاعها.

- هجرة الأدمغة إلى خارج الوطن بحيث تستثمرها مجتمعات أخرى مع العلم بأن مجتمعها هو بأمّس الحاجة إليها وهو أحقّ بها من غيره.

- أكل الشعب ممّا لا ينتجه المجتمع ويضعه إذ يتجاوز معدّل الإستيراد، وبمقدار كبير، معدّل التصدير وهذا ما يجعل حياة المواطن مرهونة بالخارج وبما يصدّره له وفي ذلك ما فيه من المساوىء والخطر على كيانه وشخصيّته وتكامل ابنائه كمجتمع موحّد متوازن...

والـتربية، بمختلف مؤسساتها، تبـدو اليوم مهـدّدة بالإنهيـار التـام: فمستوى التحصيل العلمي يتدنّى يوماً بعد يوم بسبب: - عدم إجراء امتحانات رسميّة؛ - انعدام التخطيط العلمي والموضوعي، حتّى قبل حلول الأزمة، الهادف لرفع مستوى العلم بشكل يتلاءم مع متطلّبات تطوّر الحياة واتساع آفاقها وآفاق

المعرفة العلمية والأدبية والأخلاقية ـ الحياتية؛ ـ تحوّل عدد كبير من المدارس إلى بيوت تضم المهجّرين. . . ؛ ـ تأثّر مستوى المعلّم ـ المربّي (نفسيًا وعلمياً وأخلاقياً. . .) بالحرب بحيث نشهد، تدريجياً انخفاض ثقة التلميذ به وبحيث يبتعد أكثر فأكثر عن إمكانية القيام بالمسؤولية التربوية الضخمة المترتّبة عليه تجاه تلميذه ومجتمعه: ينطبق هذا القول على مختلف مستويات التعليم: إبتدائياً كان أم تكميلياً أم ثانوياً أم جامعياً. . . ؛ ـ التوقّف عن التدريس فترات طويلة لأسباب متعدّدة منها ما يعود لتهدّم المباني المدرسية ومنها ما يعود للإضطرابات المتعدّدة والدائمة الحصول لسبب أو لآخر. . . ! فمن شأن كل ذلك التأثير على مستوى التلميذ والطالب، على حدّ سواء، وعلى مستوى تكاملهما الشامل لمختلف قطاعات النموّ: النفسي والعقلي والعاطفي والأخلاقي والإجتماعي ـ الثقافي والفيزيولوجي. . . إنهما (أي التلميذ و الطالب) في الحقيقة، الضحيّة الأولى لما يجري على الساحة الإجتماعية مع العلم بأنّهما يشكّلان عماد المجتمع وركيزته الأساسيه في حالة السلم فما القول، إذن، في حالة الحرب حيث تزداد حاجة المجتمع لوجود طلاّب واعين ومدركين لمسؤولياتهم؟ وكيف يكون هناك مجتمع في ظلّ وجود تلامذة وطلاّب نال الإضطراب من مستواهم الثقافي ومن توازنهم النفسي؟

أما الأسرة فيمكن القول إن تأثّرها بالحرب كان أقوى من تأثّر كل ما عداها لإعتبارات شتّى يكمن أهمّها في كونها المرجع الأساسي الذي تُستقى منه وتُقدّم مجمل القيم والمراجع الثقافية ـ الإجتماعية والنفسية ـ العاطفية والتكوينية والفيزيولوجية التي يعتمد عليها نمو شخصيّة الفرد بشكل عام واللبناني بشكل خاص وذلك بشهادة كل من درس الأسرة اللبنانية. فلقد تأثّرت هذه الأسرة بالأزمة لدرجة تدفعنا للتساؤل عمّا إذا كانت الروابط العائلية لا تزال تحافظ، في مجتمعنا، على دلالتها ومعناها في ظل الإنقلاب الحاصل في المعايير والقيم الذي تشهده الأسرة والذي يتّخذ أبعاداً مجهولة لا يعلم إلا الله مداها إذا لم تُستدرَك قبل فوات الأوان فتُعالَج بالموضوعية العلمية والإهتمام المطلوبين بمثل هذه الظروف الحرجة والصعبة في تاريخ المجتمع اللبناني.

باختصار نقول: لم يتوقّف دمار الحرب عند دمار المؤسسات وقتل الأبرياء بل تعدّى ذلك إلى دمار النفوس وتطلّعاتها نحو المستقبل وإلى فقدان ثقة المواطن بنفسه وبأخيه الإنسان وهذا، بنظرنا، هو الأخطر لأن الحرب في لبنان تميّزت بشكل خاص بالتدمير الذاتي حيث بدا اللبناني المسؤول الأوّل عن قتل أخيه اللبناني وحتّى عن قتل نفسه (حتّى وإن كان مجرّد أداة يستعملها الغرباء ليبقوا بعيدين عن الشاشة).

لا عجب، إذاً، في ما شهدناه من انعكاسات سلبية على نفس الشبيبة اللبنانية التي بدت، على ضوء التحليل والملاحظة الموضوعية والمعالجة العياديّة التي قمنا بها، بحالة من الإضطراب الذي يستدعي دقّ ناقوس الخطر قصد الإسراع في إيجاد العلاج السريع والمباشر.

من هذه الإضطرابات ما بدا مرتبطاً بدور الأسرة الذي يشكّل، كما سبق أن قلنا، المدماك الأساسي لنمو شخصيّة الفرد وتطوّرها؛ ظهر عند شبيبتنا تشوّش، كي لا نقول إضطراب، على مستوى نضج شخصيّتها وميوعة وضعف في الأنا المميِّزة لهذه الشخصيّة أدّيا، في النهاية، إلى خوف، وصل في أحيان كثيرة إلى حدود المرض، من تحمّل المسؤوليات المترتّبة عليها. . . وقد بدا ذلك مرتبط، وبشكل وثيق، باضطراب الصورة والدور اللذين على الأهل توفيرهما كي يتمكّن الطفل من التماهي بهما فيكتسب، بالتالي، صفات الرجولة أو الأنوثة وصفات الإنسان الراشد المستقلّ؛ كما أنّه بدا مرتبطاً باضطراب التفاهم بين الأب والأم ضمن إطار جوّ من الثنائي الوالدي le couple familial.

لقد انهار المسرح الذي كان الوالدان يختبئان وراءه قبل وقوع الحرب فسقطت الأقنعة ورأى كل منهما نفسه عارياً. ومع سقوط الأقنعة إنهار العرف الإجتماعي الذي كان يمثّل الصرح الأساسي لبنية المجتمع فظهرت أنانية الإنسان بشكلها الحقيقي المفجع دون قناع وسيطر الإبتزاز والإستغلال الشخصيّان والفرديّان على العلاقات الإجتماعية.

كما انهار أيضاً الصرح العائلي مع فقدان الزوج للقدرة التي تمكّنه من حفظ المظاهر الخارجية كتقديم الهدايا لزوجته مثلاً. . . والتي كانت تؤمّن

استمراريّة تعلّقها به بفضل تعويضه المادّي لها عن الحرمان الذي تعانيه في حياتها الزوجية معه. . . » ومع إنهيار هذه القدرة على حفظ المظاهر تجرّد الزوج من وسيلةٍ هامة كانت تؤمّن للجو الأسري نوعاً من الإستقرار والتوازن فتجلّت حقيقة كل من الزوجين كما هي مع زوال الإئتلاف الظاهري والمصطنع الذي كان نابعاً من حبّهما للمظاهر لا عن اقتناع داخلي، وعن حبّ وتفاهم بينهما كشريكين (في السرّاء والضرّاء) داخل إطار مؤسّسة الزواج. ساهم كل ذلك في إفقاد الزوجين لأهم ما كان يجمع ما اختلف بينهما ويصل ما تباعد وتنافر عندهما فأصبح الإختلاف بينهما هو السائد مع العلم أنّه (أي الإختلاف) كان موجوداً قبل الحرب لكن كان بالإمكان إخفاؤه.

هذا ويمكن القول إن الأحداث وَضَعت العلاقات الزوجيّة على المحك وتحت الإختبار: فكل زوج وزوجة وُضِعا أمام حقيقتهما مجردّة من كل المظاهر التي كانت تخفي ما يعتريها من تفكّك سيّما وأن ما «يقوله الآخرون» أصبح عاجزاً عن ربط ما انفصل إذ أحسّ كل فرد، في ظلّ الأحداث الدامية، أنه بحلّ مما كان مرتبطاً به في السابق. هذا، فضلاً عن حيلولة الحرب دون إستمراريّة التظاهر بالرضى والتفاهم بين الزوجين رغم بقاء الإرتباط الذي يجمع بين الفرد اللبناني ومجتمعه مقدّساً عنده: يمثّل المجتمع أناه الأعلى son surmoi، هذه الأنا الصارمة، القاسية، المستبدّة والسريعة الحكم التي لا يفلت أحد من عقابها والتي يهابها اللبناني ويخشاها لدرجة الإستعداد للتضحية بسعادته وسعادة أطفاله على أن يصيبه حكم هذه الأنا الصارمة؛ و «ما سيقوله الآخرون» Qu'en dira - t - on هو، في الحقيقة، سلطة خفيّة وغير منظورة توزّع الأدوار على المسرح الإجتماعي.

تجدر الإشارة هنا إلى شمول ما قلناه حول المؤسسة الزوجية على مجمل المجتمعات الشرقية وربّما بشكل أعمق منه عند الأسرة اللبنانية؛ فمجمل الدراسات التي تناولت الأسرة الشرقية والعلاقات القائمة بين الزوجين أظهرت هذا الواقع كما ركّزت على دونيّة المرأة داخل المؤسّسة الزوجية مع كلّ ما يترتّب على ذلك من انعكاسات سلبية على نموّ الطفل وتطوّره.

ومن الإضطرابات السابق ذكرها ما بدا على مستوى المراهقة ونحن نعرف أن سن المراهقة، حسب التعريف النفسي، تمثّل المرحلة الخصبة لظهور الأعراض النفسية إذ تتفجّر، أثناءها، كل النزعات المكبوتة سابقاً، خلال مراحل الطفولة. يعود ذلك إلى عجز الطفل عن احتواء المثيرات الخارجية التي يتلقّاها جهازه العصبي وأناه غير المتكاملين بعد؛ وهذا ما يثير في نفسه إنفعالات ليبيدية لا يستطيع السيطرة عليها أو تصريفها أو التنفيس عنها. ثم إن الإستعانة بالأهل واللجوء إليهم يشكّلان ضرورة ماسّة له كي يتمكّن من فرض سيطرته على العالم الخارجي: فحب الوالدين يشكّل، بالنسبة له، ضمانة تساعده في التعويض عن عدم إكتماله النفسي والجسدي. كما أن الطفل يدرك الخطر الخارجي ويتلمّسه من خلال تأثيره على الوالدين اللذين يمثّلان، بنظره، المقياس لكل ما يمكن أن يتعرّض له من الخارج.

وهكذا يكبت الطفل مجمل النزعات غير المقبولة من الخارج وغير القابلة للتصريف والتنفيس ويستمر هذا الكبت حتّى سن المراهقة حيث تتفجّر بشكل أعراض نفسية وجسدية... خصوصاً وأن نزعة الإجرام التي ميّزت اللبناني (وإن كانت نسبة اللبنانيين الذين اشتركوا في القتال ضئيلة جدّاً لكنّ الأكثرية كانت صامتة حيال كل ما يجري على أرض الوطن) خلال الحرب، عزّزت تفجير هذه النزعات كردّة فعل تجاه معاناة المراهق ذي الهوية المترجرجة لتجاذبها ما بين خصائص الطفولة وخصائص الرشد، فحطّمت آماله بالثقة المتبادلة وزعزعت أركان مجتمعه فكانت نتائجها وخيمَة جدّاً على مجمل المستويات خاصّةً وأنّها جرّدت الإنسان من إنسانيّته وأصبح نهباً للدوافع والنزوات العدوانية.

لقد بدا الإنسان اللبناني، في أحيان متعدّدة، مجرّداً من إنسانيّته وعبداً للدوافع والنزوات العدوانية التي انطلقت من عقالها دون رقيب أو قيد من قِبَل الدولة (التي جُرِّدت من دورها) أو الأسرة التي بدت، في حالات كثيرة، عاجزة عن القيام بدورها.

ربّ قارىء يتساءل: ما علاقة ذلك بالشبيبة؟ وجوابنا على ذلك بسيط وواضح، بمعنى أن علاقتها بما سبق أن قلناه مباشرة ووثيقة: إن معظم الشبّان

والشابّات الذين استشارونا لمساعدتهم على تجاوز مشاكلهم كانوا يعانون، أساساً، من انعدام الثقة بالمجتمع الذي أدّى عندهم، إلى إنعدام الثقة بالنفس خاصّة وأن خيبة أملهم بالنسبة لفهم وتفهّم الأسرة لهم عزّزت مشاعر السوداوية mélancolie والإنهيار النفسي بداخلهم؛ وقد أدّى كل ذلك إلى سيطرة الإحساس عندهم بعدم جدوى الحياة في ظل أوضاع كهذه؛ بمعنى آخر يمكننا التأكيد إن ما من مشكلة ظهرت عند شبيبتنا أثناء الحرب كانت نتيجة تأثيرات الحرب فقط بل كان للأسرة دائماً الدور الرئيسي في حدوثها.

لكن تبقى أهم الإضطرابات التي عانى منها شبابنا بظلّ الحرب تلك المرتبطة بالإنقلابات الحاصلة في المعايير الإجتماعية والمفاهيم النفسيّة على مستوى المرحلة الأوديبية وعلى وجه الخصوص بالنسبة لدور الأب كمنافس ضمن الوضعيّة الأوديبية ذات الأثر التكويني الفعّال في نمّو شخصيّة الطفل وتطوّرها اللذين يجعلانه يافعاً ومن ثم راشداً: ففي الحرب إنقلبت مفاهيم هذا التطوّر التي تعتمد، أساساً، على الأب كمنافس وكنموذج للأنا في آن معاً إذ أصبح الشاب، باقتنائه السلاح (والسلاح يرمز إجمالاً للعضو الذكري أي القضيب ومالكه هو الأب) أقوى من والده خاصّةً وأن العديد من اليافعين انتسبوا إلى مجموعات مسلحّة أثناء الحرب[1]؛ فهو يسيطر على الشارع ويتحدّى الموت كما لو كان يتحدّى، من خلاله، الأب بمفهومه البدائي. ثم إن إنتفاضته لم توجَّه ضد المجتمع فقط بل، أيضاً، ضد الأب وسلطته وكل ما يمثّله من أعراف وتقاليد لم يعد الشاب يؤمن بها؛ ونحن نعرف أن الأب، خصوصاً في المجتمعات الشرقية، يمثّل السلطة كما أنّه يمثّل المجتمع الأكبر ضمن إطار الأسرة.

---

(١) د. عدنان حبّ الله، مقال ظهر في «الحوادث» (مجلّة أسبوعية) تحت عنوان «التأثيرات النفسية للحرب اللبنانية»، عدد ١١١٩، ١٨ نيسان ١٩٧٨ (السنة الثانية والعشرين).

تجدر الإشارة هنا إلى واقع يرتبط بالأكثرية الصامتة والرافضة للعنف والإقتتال: إنّها والحق يُقال معرّضة أكثر من غيرها للأمراض النفسية والعضوية بمعنى أن السلبيات الناجمة عن الحرب وعن حمل السلاح بوجه خاص يُترجَم عندها إلى مدلولات نفسيّة كالإنفعالات والصراع الداخلي والكبت والعُقد النفسية.

هذا وقد وجد اليافع نفسه، خلال الحرب، بحلّ من كل التزام أخلاقي، فالجماعة التي ينتمي إليها توفّر له تحقيق ما لا يستطيع تحقيقه كفرد لأن المجموعة تؤمّن الغطاء لمسؤوليته التي تزول فيرتفع معها الكفّ عن الرغبات المكبوتة ويعود المكبوت إلى الشعور ويجد المجال واسعاً لتحقيق غاياته دون الإحساس، من جرّاء ذلك، بأي شعور بالذنب أو بتأنيب الضمير اللذين تتكفّل بهما الجماعة التي ينتمي إليها ويعمل معها ويتخفّى باسمها لتحقيق مآربه اللاشعورية. هذا مع العلم بأن الحرب تكون قد فجّرت بدأخله دوافع لاواعية لم تكن في حسبانه نظراً لتضاؤل لا بل لإنعدام عامل الضبط (إن من قِبَل الأسرة أو من قِبَل الدولة) وهذا ما يؤدّي إلى تحرير مشاعره العدوانية من كل قيد أو رقيب.

ولقد إرتبط هذا الإنقلاب النفسي التكويني بوضع خطر جداً ميّز مجتمع الحرب: تضاؤل، وفي أحيان كثيرة إنعدام، السلطة الوالدية على الابناء لأسباب متعدّدة يكمن أهمها في توفير الميليشيات والمجموعات المسلّحة مهرباً يمكنهم الإلتجاء إليه لدى رفضهم للضغوط الممارَسة عليهم من قِبَل الأسرة. وقد انعكس هذا الوضع، مضافاً إلى اضطراب العلاقات الأسرية، سلباً على نفسيّة الشبيبة اللبنانية؛ وهذا ما دعانا لدق ناقوس الخطر قصد إيجاد العلاج السريع والفعّال لمعالجة الإضطراب الذي يعانيه مجتمعنا ككل وشبيبتنا بشكل خاص لأن مستقبل البلاد يتوقّف على صحّة هذه الشبيبة (نفسياً وجسدياً) التي تشكّل عموده الفقري وعماده المستقبلي وعلى مدى نضجها وتوازنها النفسيّين.

لكن، وللأسف، تبيّن لنا أن السبب الرئيسي في تفكيك أوصال مجتمعنا يعود، وبمقدار كبير، لإنعدام شعور الفرد اللبناني (شأنه في ذلك شأن كل من ينتمي إلى المجتمع الشرقي) بالمسؤولية المترتّبة عليه: فهو يسعى دائماً للبحث عمّن يستطيع إلقاء اللوم عليه كي يحرّر نفسه من أيّة مسؤولية له في ما وصل إليه من ضعف وتشرذم...

ويكفي لإدراك خطورة هذا الواقع، التحدّث مع الإنسان الشرقي، حتّى المتعلّم والحاصل على شهادات عالية: إنّه، دائماً بريء من كل ما يعتريه ويعتري

مجتمعه من ضعف واضطراب، فالمسؤولية تقع على الآخرين (خارج المجتمع كانوا كالإستعمار الخارجي، أو داخله كالحكم والحكّام والمربّين...)؛ أمّا دوره هو فلا ذكر له البتّة، وهذا ما يثير قلقنا لأن تقدّم الفرد والمجتمع (على حدّ سواء) يتوقّف، إلى حدّ بعيد، على وعيهما وبالتالي على إعترافهما بالخطأ أو بالضعف الذي يعتريهما. وبدون هذا الوعي لن يتمكّنا من التغلّب على المشكلة ليتمكّنا من تحسين وضعهما النفسي والمعنوي والفكري، من مقاومة ما يفرضه الآخرون من إذلال ومن القيام بثورة سلميّة واعية (على النفس وعلى الآخرين) تتطلّبها الأوضاع الحرجة والخطيرة التي يعيشان (أي الفرد والمجتمع) ضمن إطارها.

لا يفهمنّ من كلامنا هذا تبرير دور المسؤولين عن مقدّرات البلاد في ما وصل إليه أفراد المجتمع من جهل خاصّةً وأن كل مجهود يقوم به هؤلاء المسؤولين على مستوى التوعية يوازي، من حيث الإنتشار والقوّة (مهما كان ضئيلاً)، جهوداً متعدّدة يقوم بها أفراد عاديّون خلال فترة زمنية طويلة.

كما نرجو أن لا يُفهمنّ من تشديدنا على الإضطراب الأسري إنكار فضل اللبناني بشكل عام والأسرة بشكل خاص في ما تحمّلاه من مصاعب وواجهاه من مشاكل متنوّعة فرضتها عليهما ظروف الحرب الطويلة الأمد؛ لا بل نود إبداء تقديرنا البالغ لهما إقتناعاً منّا بأن ما أصابهما لهو بالغ الخطورة ولو أصاب الإنسان في أي مجتمع آخر لانهار منذ زمن طويل... إنّما لا يمنعنا ذلك من إدراك الإضطرابات التي أصابت نسبةً مئوية كبيرة في المجتمع والتنبيه لها كي يعي اللبنانيون خطورة الوضع ويتمكّنوا من معالجته في الوقت المناسب.

على كل حال، سبق أن أشرنا لوجود إضطرابات عديدة ومتنوّعة أصابت المجتمع بشكل عام والشبيبة بشكل خاص ذكرنا بعضها وسنذكر البعض الآخر في الجزء العلمي من كتابنا هذا. لكنّنا نودّ هنا التوقف عند اضطراب لمسناه عند الإنسان اللبناني عامّةً ويكمن في اختلال علاقته بجسده: تبيّن لنا بأن صورة الجسد le schéma corporel عند اللبناني أصبحت عرضة للتجزيء لأن البدن لم

يعد موضوع ثقة بوظائفه المنظّمة والدقيقة، وهذا ما ساهم في اضطراب الهويّة الجسديّة l'identité corporelle.

لهذا الإضطراب انعكاسات سلبية خطيرة جداً نظراً لكون علاقة الإنسان بجسده هي علاقة تصوّرية يكتشفها في المرآة أثناء الطفولة الأولى وعبر الآخرين أمثاله بحيث ينتقل، بفضل هذا الإكتشاف، من المرحلة الجسديّة المجزّأة إلى المرحلة المثالية المتكاملة يصبح الآخر (أي الراشد) معها مثالاً أعلى يقتدي به ويتمنّى أن يصبح مثله لأنّه يتمتّع بالسيطرة على قواه الجسدية ويحقّق أهدافه بسهولة يعجز عنها الطفل. يقول لاكان Lacan بهذا الصدد: «إن رغبة الإنسان هي رغبة الآخر، وهو دائماً في صراع وسباق مع هذا الآخر: المنافس والدليل في آن معاً».

هذا وتعكس علاقته مع الآخرين، أي مع محيطه، إنطباعه عن نفسه فيصبح مثال الأنا عند الطفل تلك الصورة التي تعكسها علاقته بالآخرين. وبمقدار ما يتوصّل لتحقيق هذه الصورة يشعر بالرضى عن النفس والعكس صحيح بمقدار ما يعجز عن تحقيقها يشعر بالنقص والشعور بالذنب.

وأهم ما في الأمر يكمن في ارتباط هذه الصورة بالجسد كوحدة غير مجزّأة من جهة وبالقيم الإجتماعية من جهة أخرى. لذا من شأن الحرب التي تحطّم الأعراف وتقلب المفاهيم وتفرز معطيات كانت كامنة في النفس أن تؤثّر على الصورة المثالية (أي المتكاملة) التي يكوّنها الفرد عن نفسه (حيث لصورة الجسد دور هام في تكوينها) فترتّد هذه الصورة إلى الذات مشوّهة كما لو كانت قد أصابتها شظايا القذائف العدوانية. وهكذا يمثّل التوازن ما بين الجسد والأنا المثّلة للشخصيّة باختلال الصورة الوسيطة المعبّرة عن الجسد إذ من غير الممكن لأي إدراك خاص بالجسد أن يأخذ دلالته سوى عن طريق التصوّر configuration.

من الطبيعي، إذن، مع الواقع المؤلم الذي ساد جوّ الحرب، أن يصبح الجسد موطن القلق عند اللبناني، قلق يرتبط، في الحقيقة، بفقدانه العديد من التصوّرات النفسية والأخلاقية والإجتماعية الذي رافقه. بمعنى آخر، أصبح

الجسد عند اللبناني واقعاً من لحم ودم مجرّداً من وسائل التصوّر الذهني التي تساعده على تحقيق التعبير النفسي واللغوي، وبالتالي من ربط مختلف وظائفه كحلقات في سلسلة متكاملة دالّة على مختلف معاني الحياة.

تظهر أهميّة الإضطرابات السابق ذكرها عبر إرتباطها بالإضطرابات التي كشفت عنها الحرب عند الطفل اللبناني وقد تناولت لا المظاهر الخارجية لشخصيّته فقط بل، أيضاً وبشكل خاص، العناصر الرئيسية المكوِّنة لها (أي لشخصيّته)؛ وهذا ما عزّز توجّهه نحو المنحدر النفس - مَرَضي الذي تترجم عنده عبر أعراض symptômes مَرَضيه خطيرة حيناً وأقل خطر أحياناً إنّما مرتبطة جميعها ضمن التنظيم البنيوي والشامل لشخصيّته. من هذه الأعراض نذكر: - اضطراب العلاقات الأسرية القائمة بين الوالدين والطفل الذي أدّى بدوره إلى اضطراب الهويّة عند هذا الأخير المرتبط، بدوره، باضطراب النموّ السوي وعدم قدرة الطفل على تجاوز مراحل تطوّره، المرحلة الأوديبية بشكل خاص، . . . ؛ - اتكالية مفرطة على الأهل وعلى الآخرين؛ - اضطراب الثقة المتبادلة بين الطفل كتلميذ وبين أستاذه كمربّي؛ - مظاهر طفلية وتأخّر على مستوى النضج النفسي؛ - ميول فُصامية وانطواء على الذات؛ - تكوين أنا عليا صلبة؛ - جملة من السمات النفسية الإضطرابية كالنكوص والصدّ والإنهيار النفسي والكبت والشعور بالذنب. . . واضطراب صورة الجسد (كما سبقت الإشارة).

يمكن القول، إذن، أن آثار الحرب لا تقتصر، فقط، على مسائل النفس والتصرّفات بل تتناول جسم الإنسان وأعضاءه بفعل قابليّة هذا الجسم للتأثّر بالأعراض النفسية فيحدث ما يسمّى بالإضطرابات النفس - جسدية troubles psychosomatiques: - إن على صعيد القلب والشرايين حيث يولّد القلق المزمن، الحادّ والمتواصل في زمن الحروب إفرازات في مادّة «الأدرينالين» وهذا ما يعجّل في سرعة القلب ويؤدي إلى إرتفاع ضغط الدم وضيق الشرايين وازدياد الإفرازات السكّرية المؤقتة. ثم إن إستمرار هذا القلق الحادّ فترة زمنية طويلة، يمكن أن يشكّل سبباً من أسباب الذبحة القلبية والفالج وانفجار الشرايين في

الدماغ» في الواقع، شهدنا ونشهد باستمرار ارتفاع نسبة هذه الإصابات في ظلّ الأحداث اللبنانية المؤلمة.

ـ أو على صعيد الأورام السرطانية: صحيح أن السرطان لا ينتج عن أسباب نفسية لكنّ هذه الأسباب تعجّل في ظهوره. . .، فالناحية النفسية تشكّل عاملاً هاماً في مسارّ هذا المرض وفق التجارب المُلاحظة وليس من باب التأكيد العلمي الجازم[1].

وإلى جانب ذلك هناك أعراض نفسيّة قد تزول خلال الحرب وكثير من العصابيين قد يتحمّلون أهوالها بأعصاب هادئة ورباطة جأش لم يعهدوها في أنفسهم ويذوقون طعم الراحة ويتنشّقون من خلالها الصحّة والعافية النفسية. فالعارض النفسي يرتبط بخوف داخلي ملازم للمريض أينما ذهب ممّا يُقلِق راحته ويحسّ بخطر يتهدّده إنّما دون معرفة مصدره أو هويّته كلما اقترب من النزعة المكبوتة التي تمثّل هذا الخطر ذا المنشأ الداخلي الذي لا مهرب منه؛ لكنّ اندلاع الحرب يفجّر خطراً خارجياً جماعياً أكبر من الخطر الداخلي فيستقطب الأوّل الثاني ويحتويه. وهكذا يصحّ القول بحكم عمليّة الإسقاط، أن ما كان داخلياً أصبح خارجيّاً فيتبدّد عبء ثقيل عن نفس المريض نظراً لكون معالجة الخطر الخارجي أسهل بكثير من معالجة الخطر الداخلي إذ يكفي المريض أن يكون في معزل عنه حتّى يشعر بالإطمئنان والراحة.

ثم إن تجنّب القنابل والرصاص لأسهل على المريض من تجنّب خطر يكمن في داخله ويلازمه أينما حلّ أو ذهب؛ هذا بالإضافة إلى الشعور بالذنب الذي يتحوّل بدوافعه العدوانية نحو ساحة القتال بشكل يصح معه القول إنّ ما كان صراعاً داخلياً يمزّق الأنا ويهدّدها باستمرار يصبح صراعاً خارجيّاً يحرّرها من هدر طاقاتها الحيويّة.

وإلى جانب هذا التأثير الإيجابي للحرب، ذكر الدكتور زياد محيو[1] ستّة

---

(١) د. عصام الفيل والدكتور زياد محيو، مقال ظهر في «الحسناء» (مجلة أسبوعية) تحت عنوان «التأثيرات غير المنظورة للحرب اللبنانية»، عدد ١١١٥، ٢٠ ـ ٢٧ تموز، ١٩٨٤، ص. ١٧.

تأثيرات أخرى تحدّث عنها في المقال المذكور وهي ترتبط، بمجملها، بادراك اللبناني ووعيه جملة من الوقائع؛ يقول الدكتور محيو في هذا الصدد: للحرب آثار نفسية إيجابية وهي عِبَر ودروس دفع الشعب اللبناني ثمنها غالياً ومنها:

١) وحدة الكلمة وضرورتها إذ أن المواطن وعى ضرورة ذلك وأخذ يتطلّع إلى الحلول المناسبة.

٢) الإعتماد على النفس، فالأحداث اثبتت أن لا حلول بالقوة والحلّ يجب أن يكون لبنانياً.

٣) رفض شريعة الغاب والدكاكين الأمنية.

٤) التمسّك بهوية لبنان عن اقتناع مطلق.

٥) الوعي والثقة بالنفس وبالقدرات الشخصيّة خاصّةً وأنهما كانا وراء صمود اللبناني طيلة فترة الأحداث.

٦) المطالبة بالعدالة الإجتماعية وهو مطلب محق ويشغل ذهن اللبناني منذ الإستقلال وقد أدرك، خلال الأحداث، أهميّة تحقيقه.

رغم نزعتنا للتفاؤل لا نشارك الدكتور محيو تفاؤله هذا وإن كنّا نشاركه التمنّي في حصول كل ذلك عند اللبناني الذي دفع ثمناً باهظاً جدّاً لذا لا بدّ له من استخراج العبر والدروس الحياتيّة التي عايشها طيلة فترة الحرب. وما يدفعنا لمثل هذا الموقف الحذِر يكمن، أساساً، في واقع كون الحروب الدامية تُنتِج من المشاكل والمصائب أكثر ممّا تُزيل كما أنّها لن تشكّل يوماً الحلول الممكنة لصراع الإنسان مع نفسه ومع الآخرين...

لا بدّ، أيضاً، من التنويه، ضمن إطار تأثيرات الحرب وانعكاساتها السلبية على الإنسان، إلى واقع انتشار المخدّرات والكحول التي عمّ إستعمالها لا من الراشدين فقط بل من الشبيبة أيضاً كوسيلة هروب من الواقع المؤلم ومن الضغوطات والإكراهات الإجتماعية المفروضة عليها من قِبَل الأهل، لكنّه هروب خيالي مَرضي أكثر منه واقعياً لأن المشكلة الحقيقية تبقى لا بل تزيد تفاقماً. فلا عجب، إذن، إذا ما أهملت هذه الشبيبة واجباتها الدراسية

والإجتماعية نتيجة عجزها عن التركيز ذهنياً ومن ثمّ القيام بما يتوجّب عليها من واجبات. . .

وما تجدر الإشارة إليه في هذا المضمار يكمن في القول إن السلبيات النفسية الناتجة عن الحرب لم تكن بفعل صدمةٍ واحدة بل تكوّنت نتيجة صدمات متنوّعة تراكمت وتكثّفت على مدار سنين الحرب المتتالية؛ هذا وقد طبعت الحرب أكثر من جانب في حياة الإنسان اللبناني فأثّرت مباشرةً على مُعاشه الحياتي المعتاد وعلى جميع المستويات: الإجتماعية والنفسية ـ العاطفية والإقتصادية والسياسية والديمغرافية. وحفر هذه البصمات لا بدّ أن يقود، لاحقاً، مسارّ تصرّفاته إيجاباً أم سلباً على وجه الخصوص.

من هنا قولنا بعدم القدرة على التنبّؤ، مسبقاً، بالنتائج الحقيقيّة الناجمة عن الحرب قبل توقّف حرب السلاح إذ عندها فقط تبدأ الحرب الحقيقية ضدّ التأثيرات المتعدّدة: إن على مستوى الجسد لأنّ تعب الأعصاب لا يظهر فعليّاً إلاّ خلال الراحة وعودة الجسم إلى نمط الوظائفية الطبيعية التي يقوم بها، أو على مستوى النفس حيث من الممكن ظهور أعراض نفسية عميقة، متنوّعة وعنيفة ترافق حالة الإرتخاء والإرتياح المميِّزة للسلم كالإنهيار النفسي والعصبي واضطراب توازن وحدة الجسم وفقدان الثقة بالنفس وبالآخرين ومختلف الإضطرابات النفسيّة المتنوّعة. . .

وفي الختام نشدّد على واقع بغاية الأهمية: بدت الإضطرابات النفس ـ مَرَضية التي كشف عنها تحليلنا العيادي ومعالجاتنا العيادية غير تكوينيّة وإن حاذتها؛ بمعنى آخر نقول: لم تتناول هذه الإضطرابات البنية العميقة المكوِّنة لشخصيّة اللبناني بل بقيت على مستوى الميول؛ كما أنّها بدت مرتبطة بالتربية الخاطئة التي تلقّاها ضمن أسرته ومدرسته ومحيطه أكثر منها بتكوين بنائه النفسي والجسدي. وهذا هو سرّ تفاؤلنا والسبب الرئيسي الذي دفعنا لدقّ جرس الإنذار قصد تنبيه المسؤولين وعلى كافة الأصعدة لأنّ من شأن وعيهم لدورهم وإعادة النظر في كيفيّة تطبيقهم له إلى جانب الطفل خفض التأثيرات السلبية التي

أحدثها جهلهم لهذا الدور؛ لكن، عليهم البدء ببذل الجهود الإيجابية الواعية منذ اليوم وقبل فوات الأوان.

كما نودّ التشديد على واقع آخر يضاهي الأوّل أهميّة هو الآتي: لم تكن الحرب لتثير هذا القدر من الإنعكاسات السلبية على المجتمع اللبناني لولا تهيئته المسبقة (أي قبل إندلاع الحرب) للإنهيار. في الواقع، كشفت الدراسات التي قمنا بها ضمن إطار هذا المجتمع وخلال مرحلة السلم (أي قبل حدوث الأزمة) أنّ معظم الإضطرابات (النفسيّة منها بشكل خاص) التي بدت عميقة وحادّة أثناء الحرب كانت موجودة خلال السلم فزادتها الأحداث حدّةً بسبب إنهيار الصرح الإجتماعي بشكل كامل وسقوط العديد من الأقنعة التي كان اللبناني يضعها ليخفي وراءها العديد من المشاكل التي كان يعاني منها بدلاً من حلّها وتجاوزها.

خلاصة جزئية.

من كلّ ما تقدّم نستخلص واقعين بغاية الأهمية:

- يتابع الطفل نسق نموّه المتكامل بشكل طبيعي حتّى وإن هدّدته أحداث الحرب طالما هناك، إلى جانبه، أسرة مجهّزة بقدرٍ كاف من الثقة بالنفس وبنوع من الصفاء يمكّنها من مجابهة المخاطر الناجمة عن الحرب. وعلى العكس من ذلك، تضطرب وحدة الطفل النفسية ونموّه المتكامل عندما يكون وسط أسرة مضطربة.

بمعنى آخر نقول: يشكّل وجود الأسرة (الأب والأم بشكل خاص) إلى جانب الطفل ضرورة ماسّة لإستكمال تطوّره بشكل طبيعي في كل آن، وبوجه خاص خلال الحرب، إذ يتعرّض الطفل عندئذٍ لوضعيّة مؤلمة تثير بحدّ ذاتها الإضطراب في نموّه.

- حتّى وإن تمّت الإشارة إلى بعض التأثيرات الأيجابية، يدفعنا إلى ذلك هاجس الموضوعية العلمية، فإن تأثير الحرب يبقى، إجمالاً، ذا انعكاسات سلبية خطيرة على نفس الإنسان كائناً من كان (طفلاً أم شاباً، يافعاً أم راشداً).

إنّما يبقى الطفـل، وهو ذلـك الكائن في طـور النموّ، الضحيّـة الأولى والبريئة نظراً لحاجته الماسّـة إلى جوّ هـادىء وسليم وإلى رعايـة أهله ومحيطه واهتمامهم به كي يتمكّن من تحقيق مسار تطوّره الطبيعي وصولاً إلى سنّ الرشد والإستقلالية، وهذا ما لا يمكن توفيره خلال وضعيّة الحرب الإضطرابية.

الجزء الثاني

الأساس العملي

تأثيرات الحرب على شخصيّة الطفل اللبناني

مقـدمة

تشكّل مناقشتنا السابقة للإعتبارات النظرية حول: حقوق الطفـل على المجتمع (على أسرته بشكل خاص)، مبحث الأعراض المرضيّة، الحرب بشكل عام والحرب اللبنانية بشكل خاص وأخيراً حول واقع الحرب النفسي وانعكاس تأثيراته سلباً على الإنسان عامّةً والطفل خاصّة المدخل المتكـامل مـع دراستنا لتأثيرات الحرب على الطفولة اللبنانية وهذا ما نسمّيه بالأساس العملي.

لقد توفّر لنا المجال في ما يختص بتحقيق هذا الجزء بفضل مصادر متعدّدة نذكر منها: تحليل محتوى النتائج العملية الميدانية[1]، الجولة التي قمنا بها في أفق كلّ من التاريخ والجغرافيا كعوامل جوهرية في تكوين شخصيّة الإنسان وكقواعد أساسية لا بدّ من معرفتها كي يتمكّن القارىء من فهم الإطار المتكامل لنموّ الطفل وتأثّره بمختلف الوضعيّات التي يجد نفسه منخرطاً ضمن إطارها وبوجه خاص وضعيّة الحرب المفروضة عليه. من هنا كان تشديدنا على دراسة كل هذه المعطيات في الأجزاء الثلاثة السابقة نظراً لإستحالة فهم طبيعة وأسباب ومدى الإضطراب المُلاحَظ عند الأطفال موضوع أبحاثنا الميدانية بغيـاب مثل هـذه المعطيات الأساسية.

---

(١) سبق أن أشرنا، في المقدّمة إلى الأبحاث الميدانية التي قمنا بها قبل الحرب وأثناءها متّبعين نفس المنهجيّة العلمية؛ وهذا ما سمح لنا بمقارنة النتائج.

لقد كشف التحليل عن وجود اضطرابات شتّى تناولت مختلف قطاعات نموّ الطفل وبشكل خاص قطاع التفاعل القائم بينه وبين محيطه (والديه، أخوته وأخواته، رفاقه، أساتذته، . . .) وذلك خلال السلم (أي قبل اندلاع الحرب) وفي حالة الحرب حيث بدا الإضطراب أكثر عمقاً وحدّة وذا دلالة إحصائيّة dif-férence significative مـرتفعة ومـرتفعة جـدّاً: فلدى مقارنـة النتائـج على المستويين (ما قبل الحرب وخلال الحرب) وجدنا فروقاً لا تتعدّى إحتمال الخطأ المعياري probabilité d'erreur، وفي أحيان كثيرة، الواحد بالألف أو بالمليون. وهذه دلالة واضحة على مدى تأثير الحرب وانعكاسها السلبي في نموّ الطفل، على المستوى العلائقي منه خصوصاً إنّما، وبنفس الوقت، على حاجة الطفل لأسرته في مثل هذه الأوضاع. لكن وللأسف، بدت الأسرة، خاصّـة خلال الأزمة، دون المسؤولية الملقاة على عاتقها.

فوجود الوالدين إلى جانب الطفل بدا غير كافٍ وعرضة للتساؤل؛ كما أن تنشئتهما له بدت جزئيـة، كي لا نقول مثـيرة بحدّ ذاتهـا للإضـطراب، نظراً لإفتقارها إلى العديد من المثيرات الطبيعية والضرورية للتـطوّر الطبيعي عنـد الطفل فعـزّزا، بذلـك، تكوين عـدد من الإضطرابـات النفسية عنـده بدت مرتبطة، بشكل مباشر أو غير مباشر، باخفاقهما في تأمين دورهما ووظيفتهما إلى جانبه، خصوصاً في حالة الأزمة.

إن إجابتنا التفصيلية والوافية على هذا الموضوع ستشكّل محور الكتابين اللاحقين لأن الضرورة العلمية تتطلّب من الباحث تأكيد ما يقول بالـوقائـع والإثباتات المنطلقة من تجربة الطفل ومعاشه الحيويين[1]؛ إنّما لا بدّ هنـا من التوقّف عند مسلّمه أساسيّة بدت، على ضوء تحليل النتائج الميدانية، كثابتـة constante تكرّر وجودها على مستوى مختلف المعالم الإضطرابية: غالباً ما خيّبت الأسرة آمال الطفل، هذا صحيح، لكنّ وضعه لم يبدُ أفضل بـوجوده بعيـداً

(١) لن نتوقّف مطوّلاً عند دور الأسرة ولا عند النتائج السلبية الناتجة عن إخفاق هذا الدور لأننا، كما سبق أن أشرنا، سنفرد لذلك جزأين خاصّين بالأسرة وثنائي الزوجين. لذا سنكتفي ضمن إطار الكتاب الحالي، بما هو ضروري فقط لفهم ما نقوله.

عنها، داخل المؤسسة (الميتم) مثلاً، إذ بدا عرضة لاضطراب تجاوز، وإلى حدّ بعيد من حيث النوع والعمق، ذلك الذي أصابه وهو إلى جانبها: كشف التحليل العيادي والإحصائي عن وجود فروق ذات دلالة إحصائية مرتفعة بين الإثنين وذلك لصالح الطفل الموجود في الأسرة أي أنّ الإضطراب بدا عنده أقل عمقاً وخطورة من ذلك الذي ظهر عند مثيله الموجود ضمن المؤسسة.

وهذا ما دفعنا لتلخيص المشكلة الأساسية التي يعاني منها الطفل كالآتي: على المحيط (الوالدين خصوصاً) إعادة النظر بالدور الذي قام به، سابقاً، إلى جانب الطفل وذلك على ضوء معرفته للإنعكاسات السلبية التي أثارها عند الأخير نتيجة إخفاقه في المهمّة الملقاة على عاتقه (أي المحيط) تجاه الطفل.

نستنتج، ممّا سبق، ضرورة تحليل التأثيرات (سلبيّة كانت أم إيجابيّة) الناجمة عن وجود الطفل ضمن إطار قطبين يتجاذبانه:

فهو، من جهة، يعيش في جوّ مشحون بأحداث الحرب مع ما يرافق ذلك من تأثيرات سلبية من شأنها انتزاع كل شعور بالطمأنينة عنده واستبداله، على العكس، بشعور دائم أو مؤقّت بالخطر والتهديد على حياته.

ومن جهة أخرى هناك دور الأسرة (الوالدين بشكل خاص) كعامل يبثّ الطمأنينة والإرتياح في نفس الطفل التي أنهكتها مختلف المشاعر السلبية المحدثة فيها نتيجة سيطرة جوّ العنف عليها. هذه الأسرة التي تشكّل، ضمن إطار المجتمع الأكبر، أهم نواة إجتماعية تحيط بالطفل منذ ولادته وتؤمّن له الحبّ والرعاية والتربية التي هو بأمّس الحاجة إليها، مكوِّنةً بذلك الركيزة الأساسية التي عليها وفيها ومنها تنطلق دعائم وبنى شخصيّته. من هنا أهميّة وجودها إلى جانبه، خصوصاً أثناء الحرب، كي ينمو بشكل طبيعي.

ملاحظة تفرض نفسها في هذا الإطار: رأينا من الأنسب، علميّاً وعمليّاً، تمييز الإضطرابات المُلاحَظة عند الأطفال، موضوع أبحاثنا الميدانية، تبعاً للمحكّات الآتية: ـ قطاعات النموّ، سندرجها تحت عنوان «انعكاس تأثير الحرب على نموّ الطفل» (كاضطراب المرحلة الأوديبية، ضعف الأنا، اضطراب

صورة الذات، اضطراب الاوائيات الدفاعية، . . .)؛ - حدّة الإضطراب ومدى تناوله أغوار شخصيّة الطفل تحت عنوان «اضطرابات مَرَضية بكل معنى الكلمة» (كصعوبة التأقلم والإنطواء على الذات. . .)؛ - تقويم مدى خطورة الإضطراب المُلاحَظ عند الأطفال، موضوع الدراسة.

الفصل السادس

«اضطرابات النموّ»

(انعكاس تأثير الحرب على نموّ الطفل)

نقصد باضطرابات النموّ تلك التي تصيب تطوّر الطفل في سير مراحل نموّه المختلفة والمتنوّعة التي عليه إجتيازها، تدريجاً، مروراً بمرحلة المراهقة كي يتوصّل إلى سنّ الرشد، سن الإستقلالية الفرديّة .

سبق أن شدّدنا، ضمن طيّات الكتاب السابق، على أنّ النموّ هو عمليّة متدرّجة تتضمّن نواحي التغيّر الكمّي والنوعي والعضوي والوظيفي، وعلى أنّه عمليّة دائمة متّصلة منذ لحظة الإخصاب (أي بدء الحمل) حتّى بلوغ الرشد ومنه حتّى الموت، بحيث تتوقّف كل مرحلة من مراحل النموّ على ما قبلها وتؤثّر فيما بعدها. كما أنّه، بالإضافة إلى ذلك، وحدةً واحدة وإن قطع النمو مراحل متعدّدة تتميّز كلّ منها بسمات وخصائص واضحة.

هذا وقد أكّد مختلف علماء النموّ على أن الطفولة تشكّل ذلك المدماك الأساسي الذي به يوضع الأساس لبناء شخصيّة الراشد ديناميّاً ووظيفياً كما يوضع أساس السلوك المكتسب الذي يساعده في تحقيق عمليّة التأقلم أثناء إجتيازه للمراحل التالية: فالإنسان، خلال طفولته، يتميّز بالمرونة التي تسهّل عمليّة تعليمه وكيفيّة تشكيل سلوكه ليتوافق مع بيئته الإجتماعية والإندماج، من ثمّ، في الحياة الإجتماعية التي تحوّله من كائن حيوي بيولوجي إلى كائن اجتماعي (انساني).

ثم إن بناء شخصيّة الكائن البشري، أثناء كل مرحلة من مراحل النمو، يعتمد على مجموعة الصميمات schèmes، أي التصوّرات الوسط بين المعنى

المجّرد والإدراك، التي تكوّنت خلال المرحلة السابقة والتي توجِّه بنية مستوى النموّ التالي وتطبعه فيطبع هذا المستوى ما يليه... وهكذا دواليك. بمعنى آخر نقول: هناك تدرّج تشريحي وفيزيولوجي ونفسي واجتماعي وعاطفي... لمستويات تسلسلية متلازمة ومتصاعدة التعقيد بحيث يدخل كلّ منها حيّز الفعل عندما تصبح الشروط ملائمة لدخوله على خطّ التأثير في النموّ.

لكن رغم ذلك، وربما بسبب ذلك، يبقى توازن الشخصّية هشّاً إذ من شأن أي عامل اضطرابي (وبالأخص ذلك الناجم عن الحرب مثلاً) إحداث الخلل في التوازن العام عند الفرد فتشكّل عمليّة إعادة التوازن والنشاط إلى نمطها السابق من التنظيم، بحدّ ذاتها، سبباً من الأسباب الجوهرية المسؤولة، في أحيان كثيرة، عن حدوث السمات الإضطرابية وسيطرتها على شخصيّة الفرد.

وكل شخص يجد نفسه مضطرّاً لإجتياز هذا الطريق الطويل من عدم الإكتمال والنضج حيث يصبغ الماضي، دائماً، حقبات النموّ المتتالية بطابعه: وهذا ما يفرض عليه (أي على الشخص) إشباع كل مرحلة واجتيازها بشكل طبيعي قبل التوجّه نحو المرحلة التالية فيتوصّل، هكذا، وبعد اجتياز مختلف مراحل نموّه، إلى سنّ الرشد حيث تصبح العلاقة الإجتماعية التي يحقّقها وسيلة تفاعل إجتماعي سليم تحفظ فرادته الشخصيّة إنّما، بالوقت نفسه، تمكّنه من الإتصال بالآخرين ومن تحقيق عمليّة التفهّم والتفاهم المميِّزة للعلاقات الإجتماعية الفعّالة السائدة في مجتمع سليم البنية.

تشكّل الأمراض النفسيّة، إذن بالمعنى العام للكلمة، تشوّهات تصيب هذه العلاقة خلال فترة معيّنة من فترات تكوينها وتطوّرها فتنعكس، سلباً، على خصائص نمّو الفرد تحت شكل اضطرابات تبدو محدودة الخطورة حيناً أي أنّها تبقى محدودة التأثير في شخصيّته،وأحياناً أخرى شديدة الخطورة أي أنّها تمسّ مستوى التنظيم البنائي في شخصيّة الفرد.

هذا ويمكن القول إن أية ثغرة تصيب النموّ العادي وأي توقّف أو انقطاع في تطوّر الفرد التدريجي يمكن أن تُلحِق الضرر بنموّه متوجّهة نحو الإنزلاق

المَرَضي. تترجم هذا الإنحدار المَرَضي عند الطفل اللبناني، موضوع دراساتنا الميدانية، عبر ظهور أعراض مَرَضيّة متنوّعة بدت شديدة الخطورة حيناً وأقلّ خطراً أحياناً إنّما مرتبطة جميعها ضمن إطار التنظيم البنيوي والشامل في شخصيّته (كاإضطراب الهويّة المرتبط بالصراع الأوديبي وضعف الأنا. . . المرتبطين، بدورهما، بإحساس الطفل بالعزلة حتّى وهو يعيش إلى جانب أسرته مما عزّز عنده الميول الفُصامية والإنطواء على الذات. . .).

سنبدأ مناقشة «إضطرابات النموّ» بدراستنا لـ «الصراع الأوديبي» بشكليه: الإيجابي والسلبي نظراً لأهميّة المرحلة الأوديبية كوضعيّة تشكّل، كما يقول سميرنوف Smirnoff[1]، «نقطة تقاطع لا بل الأساس لمجمل العلاقات المسيِّرة لحياة الفرد الإجتماعية خاصّة وأنّها تُدخله إلى العالم الرمزي».

١) الصراع الأوديبي Problème oedipien

لمسنا، في الكتاب السابق، أهميّة الوضعيّة الأوديبية كمرحلة هامّة جدّاً ضمن إطار مراحل النموّ عند الطفل ترتكز، أساساً، على عناصر مبدئية أهمّها تجاذب الطفل بين مشاعر متناقضة تجاه القريب الذي هو من جنسه: فهو يحبّه لكنّه، في الوقت نفسه، يبادله العداء؛ ونتيجة حبّه له، يتّخذه كمثال أعلى idéal du moi يتماهى بصفاته ويتمثّل بخصائصه خصوصاً تلك التي تعجب القريب من الجنس الآخر لكنّه، نتيجة عدائه له، ينافسه على حبّ هذا القريب الآخر ويتمنّى الحلول مكانه (فالصبي، مثلاً، ينافس والده على حبّ أمّه ويتّخذه مثالاً أعلى له يتماهى به ليجذب إنتباه والدته إليه، وكذلك القول بالنسبة للبنت التي تنافس والدتها على حبّ والدها وتتّخذها مثالاً أعلى لها).

لهذا التنافس الأوديبي تأثير هام على نموّ الطفل يمكن تلخيصه بناحيتين: ـ على المستوى التناسلي التكويني المتعلّق بنموّ الشخصيّة وتطوّرها؛ ـ على المستوى البنيوي المتعلّق بتنظيم بناء هذه الشخصيّة. بمعنى آخر، نلخّص أهميّة

(1) Smirnoff (Victor), «La psychanalyse de l'enfant», PUF, 1974 (4; éd), France, p 214.

الوضعيّة الأوديبية بقولنا: يكتسب الطفل مقوّمات كيانه كرجل (مثل أبيه) أو إمرأة (مثل أمّها) لدى إجتيازه هذه المرحلة. لكن التحليل العيادي الذي قمنا به كشف عن وجود إضطراب عميق في هذا المضمار عند الطفل اللبناني، خصوصاً عند ذلك الذي يعيش خلال الحرب؛ فلقد بدت الصعوبة في تجاوز هذه المرحلة عند هذا الأخير بالغة التعقيد وقد أدّت لظهور اضطراب تناول شكلي الصراع الأوديبي (السلبي والإيجابي). يُظهِر الجدول التالي، «رقم١» وبوضوح مدى عمقه:

الصرّاع الأوديبي[1]

				م . ض (١)				م . ت			
				الجنس		الدين		الجنس		الدين	
وضعيّة السلم				ص.	ب	م.	إ.	ص.	ب.	م.	إ.
	RA	الشكل الايجابي	+	٢٤	٢٨	١٧	٣٥	٧٦	٧٦	٧٧	٧٥
وضعيّة الحرب		الشكل الايجابي	+	٣٠	١٤	٢٢	٢٢	٤٦	١٩	٣٥	٣٠
	RN	الشكل السلبي	+	٣٢	٥٠	٤٣	٣٩	٢٨	٤٥	٣٥	٣٨

جدول «رقم ١»

يكفي إلقاء نظرة سريعة على هذا الجدول لإدراك الفرق الشاسع (نوعاً وكمّاً وكذلك الفروق ذات الدلالة الاحصائيّة المرتفعة جدّاً) الذي يفصل بين الأطفال الذين عاشوا قبل إندلاع الحرب وخلالها من جهة، وبين أولئك الذين يعيشون ضمن إطار الأسره وامثالهم الذين يعيشون داخل المؤسسة من جهة أخرى.

صعوبات جمّة كانت تعترض طريق طفل ما قبل الحرب وتمنعه من تجاوز

(١) تحاشياً للتطويل سنلجأ، خلال مناقشتنا للنتائج العملية الميدانية، إلى الإيجازات الإصطلاحية الآتية: م. ض أي المجموعة الضابطة (أو مجموعة الأطفال الذي يعيشون مع الأسرة)؛ م. ت أي المجموعة التجريبية (أو مجموعة الأطفال الذين يعيشون داخل المؤسسة)؛ ص: صبيان؛ ب: بنات؛ إ: إسلام؛ م: مسيحيين.

المرحلة الأوديبية بشكل سليم هذا صحيح، لكن هذه الصعاب بدت مقتصرة فقط على شكلها الإيجابي، ممّا يعني أن نموّ الطفل يسير في الطريق السليم رغم العوائق التي تعترضه.

لكن يبدو أن هناك عوائق إضافية تعترض سير النموّ عند طفل الحرب الذي بدت معاناته، في هذا المضمار، مختلفة نوعاً وكمّاً وهذا ما أدّى لإحداث إضطراب تناول، عنده، عقدة الأوديب بشكليها السلبي والإيجابي؛ ويعني ذلك أنّ سير النموّ وكذلك التنظيم البنيوي في شخصيّة الطفل قد أصيبا بنوع من التحريف لأن الشكل السلبي للأوديب يعني، بحدّ ذاته، تماهي الطفل بالقريب الذي هو من الجنس الآخر لا إلى القريب من جنسه؛ أي أن الصبي يتماهى بأمّه وبصفاتها الأنثوية والبنت بأبيها وبصفاته الذكوريّة ممّا يعني تحوّل سير النموّ وانحراف مساره: فالصبي يصبح رجلاً لا العكس والبنت تصبح إمرأة لا العكس. والفرق بين مجموعات ما قبل الحرب والحرب يبدو ذا دلالة إحصائية مرتفعة جداً بحيث ان احتمالات الخطأ المعياري لا تتعدى أحياناً الواحد بالمليون.

ثم إن التأثير الإيجابي الذي يحدثه وجود الوالدين إلى جانب الطفل بدا واضحاً عند أطفال ما قبل الحرب إذ يكفي لإدراكه إلقاء نظرة، وإن سريعة، على الأرقام المتمثّلة في خانة المجموعة الشاهدة (م. ض) ومقارنتها مع تلك المتمثّلة في خانة المجموعة التجريبيّة (م. ت) التي تضم الأطفال الموجودين داخل المؤسسة (أو الميتم).

لكنّنا نجد أنفسنا مدفوعين للتساؤل حول مدى إيجابيّة تأثير الأهل على الطفل الذي ما إن تعرّض لوضعيّة صعبة خلقتها الأحداث المؤلمة حتّى بدا فريسةً للإضطراب ولا فرق في ذلك بين من يعيش إلى جانب الوالدين وبين من يعيش داخل المؤسسة (فالإضطراب عند الإثنين متماثل بالنوع والدرجة)؛ مع العلم أن هؤلاء الأطفال في العاشرة والحادية عشرة من عمرهم وكان من المفروض أن يكونوا قد تخطّوا، ومنذ زمن بعيد أي منذ السادسة أو السابعة من عمرهم، تجاذب المشاعر هذا بين الحب والتنافس تجاه الوالدين

أمّا خطورة هذا الإضطراب الأوديبي فتكمن في الواقع الآتي: يشكّل تتابع أحداث النموّ بشكل سوي السبيل الوحيد القادر على مساعدة الطفل في تجاوز مختلف مراحل نموّه وصولاً إلى سن الرشد والإستقلالية، كما يقول آيشهورن Aichhorn[1]، حيث ينتقل تماهيه بالوالدين من القوّة إلى الفعل أي أنّه، بتماهيه بصفاتهما واقتباسه لها، يصبح رجلاً أو إمرأة بكل ما للكلمة من معنى. وما يدفعنا للتخوّف من انعكاس هذا الإضطراب سلباً على تكوين الطفل يكمن في ما أظهره تحليلنا العيادي من اضطراب في العلاقات القائمة بينه وبين والديه وفي دور ووظيفة هذين الأخيرين وقد بديا بغاية الغموض؛ من هنا كان تساؤلنا الملحّ: كيف يتمكّن الطفل من اقتباس صفات الرجولة أو الأنوثة الحقّة طالما أن النماذج المقدّمة له من قِبَل والديه بهدف التمثّل بها يكتنفها الغموض؟

هذا إلى جانب ضرورة عيش صغير الإنسان للصراع الأوديبي بمختلف مؤثّراته التناسلية ـ التكوينية والبنيوية وبمختلف مشاعر التجاذب المميِّزة له كي يتمكّن من اكتساب سياقات نموّه الثانوية التي بفضلها يصبح كائناً بشرياً قادراً على التأقلم مع ثقافة مجتمعه ومعاييرها: فمشاعر الحب والكره المحتدمة داخل الطفل، خلال المرحلة الأوديبية، تخضع، بعد تجاوزه لها، لعمليّات نقل متتابعة ومتعدّدة على مواضيع جديدة تسهم في إعادة بناء وتوزيع الطاقات النزوية فتحوّلها إلى نشاطات واهتمامات تنصبّ على مختلف مكوّنات العالم الخارجي.

لكن ما نقوله ينطبق على الأطفال الذين تتخذ عقدة الأوديب عندهم شكلها الطبيعي أي الإيجابي؛ إنّما في الحالات الأخرى، أي الحالات المعاكسة حيث تتمثّل عقدة الأوديب بشكلها السلبي، فإن الوضعيّة تصبح أكثر تعقيداً إذ بدلاً من المشاعر الأوديبية المعتادة نشهد مشاعر معكوسة بحيث يتصرّف الصبي كفتاة والفتاة كصبي (آيشهورن). صحيح أن هذا التصرّف المعاكس يحدث نتيجة استعدادات وراثية ونفسية وبيولوجية موجودة عند الطفل، إنّما الصحيح

(1) Aichhorn (A), «Jeunesse [illegible] l'abandon», Ed. Privat, Toulouse, 1973 P 82 - 83.

أيضاً أن من شأن الشروط الحياتية والثقافية المرافقة لعمليّة النموّ تعزيز أو خفض هذه الميول عنده

لقد فسّر فرويد الصعوبة التي تعترض قدرة الطفل على تجاوز المرحلة الأوديبية بدور التماهي الهام جدّاً في بلورتها حيث «يُظهِر الصبي مثلاً إهتماماً كبيراً بوالده يودّ معه أن يكون وأن يصبح مثله فيحلّ مكانه على مجمل المستويات إنّما متّخذاً منه مثالاً أعلى له؛ وبتماهيه بالأب يوجّه الصبي ميوله الليبيدية التناسلية نحو الأم فيتمثّل الشكل الإيجابي لعقدة الأوديب عنده بتعلّق نفسي مزدوج المشاعر: ميول ليبيدية موجّهة نحو حبّ الأم ورغبة في امتلاكها دون منازع إلى جانب تماهيه بالأب مالك الصفات التي حظيت بإعجابه. . .»[1].

وهذان النوعان من المشاعر يلتقيان فينتج عن هذا اللقاء عقدة الأوديب حيث يدرك الصبي استحالة إزاحة خصمه (الأب) فيتماهى به.

أمّا الأوديب عند البنت فيكون أكثر تعقيداً منه عند الصبي نظراً لكون موضوع حبّها الأول يتركّز على الأم ـ المغذّية ليُستبدَل، من ثمّ، بموضوع حبّ ثانوي موجّه نحو الأب فتنافس أمّها على امتلاكه. . .

تعليقاً على واقع التجاذب المسيِّر لمشاعر الطفل، خلال هذه المرحلة، نقول: إنّه بالغ التعقيد بحدّ ذاته، فما القول أذن عندما ينضاف إلى هذا التعقيد عدم تفهّم الأهل لهذا الواقع إضافةً إلى تعقيد الوضعيّة الإضطرابية الموجود ضمن إطارها (وضعيّة الحرب)؛ من الطبيعي، في مثل هذه الأحوال، أن تزداد الصعوبة، عند الطفل، لإجتياز المرحلة الأوديبية.

هذه هي، في الواقع، حال الطفل اللبناني الذي يعيش، منذ سنين طويلة، ضمن جوّ من الأحداث الدامية المسيطرة على مجتمعه. هذا إلى جانب غموض دور ووظيفة كلٍّ من الوالدين اللذين عليه التماهي بهما وقد تفاقم ثقله (ثقل الغموض) نتيجة إضطراب علاقته معهما حيث أحسّ نفسه معزولاً (حتّى

(1) Freud (S), «L'identification», chap VII de: «Psychologie colective et analyse du moi», 1921, rapporté par Smirnoff, op. cit., P222

وهو يعيش إلى جانبهما) وحيث بدا مضطراً للتخلّي عن عدد كبير من حاجاته النفسية الضرورية، بحدّ ذاتها، لنمـوّه لكي يحتفظ بحبّهما الـذي يحسّه أكـثر ضرورة له.

كما ظهر أيضاً، عبر دراسة تجربة الطفل المعاشة والحيوية، أن الوضعيّة الأسرية التي يعيش ضمن إطارها مثيرة للاضطراب أكثر ممّا هي عامـل أمان وارتياح نفسيّين؛ فلقـد قادت الـطفل بـطريق الصراع بدلاً من أن تقـدّم له الطمأنينة التي هو بأمسّ الحاجة إليها كي يتمكّن من السّير قدماً في طريق النموّ المعقّد.

ينبغي التوقّف، هنا، عند ظاهرة «الهُتاك exhibitionnisme» (وهي نزعة مَرَضية إلى تعرية العورة) التي لوحظت عند طفل الحرب والتي هي شكل محرَّف من أشكال الحياة الجنسية (الجنسانية la sexualité) يرتبط مباشرةً بالـوضعيّة الأوديبية نظراً لدور الجنس وأهميّته في حدوثها من جهة، وللمعرفة الجنسية (حتى وإن كانت بدائية) الضرورية بالنسبة للطفل كي يتمكّن من تجاوزها، من جهة أخرى:

الهُتاك

	م. ض.				م. ت.			
	ص.		ب.		ص.		ب.	
	ا.	م.	ا.	م.	ا.	م.	ا.	م.
وضعيّة الحرب (RN)	٤٥	٤٨	٦٩	٧٧	٢٤	٣٣	٤٤	٦٥

جدول «رقم ٢»

واقع هام يلفت الإنتباه في هذا الجدول ويكمن في لجوء الأطفال الذين يعيشون ضمن الأسرة (إلى جانب الوالدين) إلى البصبصة Voyeurisme وإلى التلذّذ بالنظر والتلصّص لمشاهد جنسيّة (الهُتاك) أكثر من أولئك الذين يعيشون داخل المؤسسة مع أن معظم البحوث، في هذا المجال، أظهرت عكس هذا

الواقع. من هنا تساؤلنا حول معنى وسبب بروز هذه الظاهرة: أهي الحشرية الجنسيّة تجاه حياة الوالدين الحميمة داخل الغرفة التي تجمعهما ليلاً والتي هي موضوع تحريم تامّ ضمن إطار الثقافة الشرقية: إن من حيث إمكانيّة مناقشتها من قِبَل الأهل والطفل أو من حيث إمكانيّة الفرد الإعتراف بها حتّى بينه وبين نفسه، ممّا يبقيها ناشطةً في لا وعيه؟ يدفعنا إلى مثل هذا الطرح كون طفل المؤسسة أقلّ حشرية من مثيله الذي يعيش مع والديه، في هذا المجال

أم هو نقص في المعرفة الجنسية يسهر المجتمع الشرقي على استمراره نظراً للتحريم المضروب عليها من قِبَل المجتمع؟

يبدو هذان السببان، بالإضافة إلى أسباب أخرى متعدّدة، مسؤولَين عن بروز ظاهرة «الهُتاك» عند الأطفال مهما كانت المجموعة التي إليها ينتمون (صبيان أو بنات، إسلام أو مسيحيين) وبشكل خاص عند البنات. فالفرق ذو الدلالة الإحصائية المرتفعة جدّاً بين الصبيان والبنات يعود، بنظرنا، للضغوطات الإجتماعية المفروضة على البنت أكثر بكثير منها على الصبي في ما يختص بموضوع الجنس؛ وهذا ما يدفعها لإشباع حشريّتها وحاجاتها الجنسيّة عن طريق البصبصة والهُتاك طالما أن الإشباع عن طريق المعرفة والتجربة غير مسموح به لا بل تُعاقب، بشدّة، من تنتهكه متحدّية التعليمات والضغوطات الإجتماعية

ومع ذلك لا بدّ لنا من التذكير، مع مجمل علماء النموّ، بأن «الحشرية الجنسية» تشكّل جزءاً لا يتجزّأ من التنظيم البنائي والمعرفي في شخصيّة الطفل الذي يميل، منذ سنّ مبكرة، للإكتشاف والنظر خصوصاً للمس مختلف أعضاء جسمه وجسم الآخرين المحيطين به... من هنا تُفهَم محاولتنا الهادفة للفت إنتباه الأهل والمربّين إلى ضرورة إدخال المعرفة الجنسية وما يتعلّق بالجنس من مسائل ينبغي معرفتها ضمن إطار تجهيز الطفل المعرفي إذ من شأن ذلك خفض حاجاته الجسديّة الطبيعية في هذا المضمار؛ هذا إلى جانب كون أي عقاب يُلْحَق بالطفل كعقاب على محاولاته الهادفة لإشباع حشريته الجنسية يشكّل مثيراً لا

لإحداث الشعور بالقلق والذنب عنده فحسب بل، أيضاً وبشكل خاص، لإذكاء حشريّته وفهمه للمعرفة في هذا المجال.

هذا وقد أثبت معظم علماء النموّ، وعلى رأسهم أجورياغيرا Ajuriaguerra[1]، أن «الهُتاك» ظاهرة طبيعية يتواتر وجودها عند الطفل السوي وأن تقييدها بشكل مفاجىء (وهذا ما يحصل في مجتمعاتنا الشرقية) يمكن أن يذكي عند الطفل مشاعر الخجل المتطرّف؛ فالهُتاك يشكّل جزءاً لا يتجزّأ من الألعاب الجنسية القائمة بين الصبيان والبنات نتيجة حاجتهم الماسّة للمعرفة، لكنّه يبقى محصوراً ضمن إطار جماعة الأطفال الذين هم من نفس العمر ويتقاسمون نفس الحشرية الجنسية

من هنا القول إن التربية الجنسية ضرورية لإستكمال تربية الطفل ودعم المعرفة التي لا بدّ منها كي يسير نموّه بالطريق السليم؛ إنّما يجب أن تكون هذه التربية واعية، وافية وسليمة التوجيه وإلا اضطّر الطفل للبحث عنها إلى جانب أشخاص يمكن أن يشوّهوا معالمها ويقودوه في الطريق المعاكسة لنموّه السليم فينعكس ذلك، سلباً، على تطوّره.

بالعودة إلى الأطفال موضوع أبحاثنا نقول: يعود المظهر الحيوي لا بل الصراعي المرافق لعقدة الأوديب عندهم، رغم بلوغهم سنّ العاشرة والحادية عشرة، لأسباب متعدّدة سنجد بعضها ضمن إطار كتابنا اللاحق الذي سيتناول علاقة الطفل بأسرته (كاضطراب العلاقات القائمة بينها وشعوره بالعزلة حتّى وهو موجود إلى جانب أهله وامتثاله الخضوعي لهم واتّكاليّته عليهم، . . .)؛ أمّا البعض الآخر فيشكّل موضوع مناقشتنا وتأويلنا الخاصّين باضطرابات شخصيّة الطفل التي سنعالجها ضمن إطار الكتاب الحالي.

لكن، قبل البدء بدراسة إضطرابات الشخصيّة عند الطفل اللبناني، لا بدّ من وقفة سريعة عند السلوك الخضوعي والإمتثالي الذي يتبنّاه الطفل كموقف عام تجاه محيطه والمرتبط، بدوره، بموقفه الخضوعي تجاه الوالدين:

(1) Ajuriaguerra (J.De), «Manuel de psychatrie de l'enfant», 2ème Ed., Masson, France, 1977

في الحقيقة يمكن القول إن ما يسيِّر الإنسان الشرقي هو خضوع أعمى للقواعد الإجتماعية يرتبط، بحدّ ذاته، بتأثُّر الوالدين المفرط بما يقوله الآخرون Qu'en dira - t - on?أكثر منه بما يتلاءم فعلاً مع نموّ الفرد وسعادته كعضو فعّال ضمن إطار مجتمعه. لكن لا يعني ذلك إنكارنا أو جهلنا لأهميّة الضغوطات والإكراهات الإجتماعية كعنصر أساسي من العناصر المكوِّنة لشخصيّة الفرد والمجتمع وصحّتها النفسية، بل يعني أن احترام هذه الضغوطات يجب أن لا يتحقَّق على حساب الإستقلالية الفردية إذ يصبح توازن الفرد النفسي، عندها، مهدّداً بالإختلال. فالأنا المتوازنة الممثِّلة لشخصيّة أي كائن بشري هي تلك التي توازن باستمرار بين متطلّبات العالم الخارجي الممثَّلة بالأنا الأعلى والمتطلّبات الداخلية (من نزوات ورغبات) الممثَّلة بالهو le ça.

وانطلاقاً من هذا المفهوم الخاص بالتوازن النفسي يمكن القول بأن «الأنا» الشرقية تبدو بعيدة كلّ البعد عن تحقيق مثل هذا التوازن لأنّها تميل للتطرّف نحو هذا الإتجاه أو ذاك دون أن تحقّق التوازن، أي الحل الوسطي، بين الإثنين. وهذا ما يزيد من اضطراب الشخصيّة إحتمالاً لأن الطفل ذا الشخصيّة الفرديّة المميِّزة له يرى نفسه مضطرّاً إلى الإمتثال والخضوع للقواعد الأسرية والإجتماعية حتّى لا يشعر بالذنب تجاههم أو يُنبَذ من قبلهم (أي الأهل والمجتمع).

وهكذا تترعرع «الذات» الشرقية ضمن إطار جوّ يساهم في إثارة الإضطراب بداخلها نظراً للتجاذب الصراعي القائم، داخلها، بين ضرورة إشباع رغباتها وحاجاتها الحميمة من جهة، أو الإمتثال للمفروضات الإجتماعية الخارجية والمتعارضة غالباً مع الأولى من جهة أخرى. بمعنى آخر نقول: لا يتسنّى لهذه الأنا أن تحقّق إستقلاليتها وتفرض ذاتها ككيان مستقل، لذا تبقى ضعيفة، متصلّبة وعاجزة عن تحمّل المسؤوليات المتوجّب عليها القيام بها.

٢) تميّز الشخصيّة بأنا ضعيفة Moi faible

يمكن القول، بشكل عام، إن شخصيّة طفل الحرب هي شخصيّة

ضعيفة، متصلّبة وغير قادرة على تحمّل الـوضعيّات الحـرمانيـة التي لا بدّ أن تعترض سير نموّ الطفل والتي لا بدّ من اجتيازها كي يتابع تطوّره بشكل سليم؛ ولقد بدا ذلك واضحاً عبر مختلف الإختبارات الإسقاطية والمقابلات العياديّة التي أجـريت عليهم وأقيمت معهم. وكشف التحليـل العيـادي المعمّق عن تميّـز شخصيّة مجمل الأطفال بـ «أنا ضعيفة» لا تستطيع تحمّل حرمانات الحياة إلاّ بلجوئها إلى أواليّات دفاعية مَرَضيّة أكثر منها سوائية كالنكوص والصد و. . . مثلاً؛ كما أنّهم (أي الأطفال) بدوا عاجزين عن مواجهة الواقع والوضعيّات التي تعترض سير حياتهم

ومع ذلك فإنّهم بسن العاشرة والحادية عشرة من العمر، ومن المعلوم أن الأنا تكتسب، على حدّ قول كورمان Corman، منـذ تجاوز الـطفل المـرحلة الأوديبية، أي منذ السادسة من العمر، القدرة على إستبدال مبدأ اللذة بمبدأ الواقع وإظهار القدرة على تحمّل بعض الوضعيّات المؤلمة وتجاوزها ممّا يؤمّن له بعض الإستقلالية تجاه محيطه. وهذه الإستقلالية تتعزّز تدريجاً كلّما تقدّم الطفل بالعمر

أنا ضعيفة

	م. ض.				م. ت.			
	جنس		دين		جنس		دين	
	ص.	ب.	إ.	م.	ص.	ب.	إ.	م.
وضعيّة الحرب (RN)	٨٨	٨٦	٨٧	٨٧	٩٣	٩٣	٩٧	٨٩

جدول «رقم ٣»

يعود ضعف الأنا هذا إلى أسباب متعدّدة منها ما هو نفسي وعاطفي ومنها ما هو إجتماعي، إنّما تبدو كلّها مرتبطة بدور المحيط (بالوالدين خصوصاً)كعجز الطفل مثـلاً عن الإستفادة من تجـارب الماضي لأن الأهـل، ظنّاً منهم بـأنّهم يساعدونه، يعيشون بدلاً عنه صعوبات الحياة التي تعترضه والتجارب الحياتية

التي عليه أن يخوضها بنفسه كي يتجاوزها فتغتني، من ثمّ، شخصيّته وتتأكّد بوجه الصعوبات الجديدة التي سيلتقيها لاحقاً.

أمّا الأسباب النفسية والعاطفية لضعف الأنا فترتبط بالصعوبة التي يجدها هؤلاء الأطفال من حيث القدرة على التماهي بصورة الوالدين والتي تنعكس سلباً على صورتهم الذاتية وشكّاً بقدرتهم على أن يحبّوا ويُحبّوا من قِبَل الآخرين.

هذا ويمكن التأكيد مع آنّا فرويد[1] على إرتباط قدرة الأنا ومرونتها في ما يختص بالتأقلم المفروض عليها وبقدرتها على إقامة التوازن بين مختلف القوى المتصارعة والمكوِّنة للشخصيّة، وبشكل خاص بين نزواتها ورغباتها من جهة وقدرة الأنا على الضبط من جهة أخرى. هذا هو الشرط الأوّل والأساسي لنموّ الشخصيّة المتناسق والمتناغم. بمعنى آخر نقول: يبقى سير النموّ الطبيعي والمتوازن ممكناً طالما بقيت العلاقة القائمة بين المتطلّبات النزوية وقدرة الأنا على ضبطها وملاءمتها مع مبدأ الواقع تتّسم بالمرونة الكافية التي تمكّن الفرد من إشباع هذه الرغبات النزوية بشكل مقبول من الوسط الإجتماعي.

لكن، في الحالات المغايرة، من شأن هذه المرونة أن تنقلب إلى تصلّب يُترجَم عند الفرد بسلوك مقولب stéréotypé، يتكرّر على نحو لا يتغير أبداً وتنقصه الصفات الفردية؛ وهذا السلوك المقولب يميِّز مجمل التدابير التي تتّخذها الأنا لمواجهة المتطلّبات النزوية المسيِّرة لها. لقد بدا هذا السلوك واضحاً عند الأطفال، موضوع دراساتنا الميدانية، من خلال الإختبارات الإسقاطية حيث سيطر التكرار المملّ على مختلف إجاباتهم والقصص التي سردوها والرسوم التي قاموا بها..؛ كما بدت الأنا، عندهم، ضعيفة، متصلّبة وعاجزة عن تحقيق الدور المتوجّب عليها القيام به وهذا ما ألحق الأذى بعمليّة التكامل التي تجعل الإنسان ينظر إلى نفسه كوحدةٍ نفسية ـ جسدية لا تتجزّأ.

يكون نشاط الأنا واعياً بمقدار ما يمثّل، في الوقت نفسه، الإدراك الخارجي والداخلي والسياق العقلي... أي، بمقدار ما يتمكّن من حفظ الذات

(1) Freud (Anna), «Le moi et les mécanismes de défense», (tr. fr), PUF, Paris, 1952, p130

وإدراك مختلف المثيرات الخارجية الذي من شأنه تجنيب الفرد كل ما هو متطرّف منها؛ وبنشاطها هذا تفرض الأنا على العالم الخارجي إحداث التعديلات اللازمة ليتلاءم معها[1]. أمّا بالنسبة للأحداث الدخلية الحميمة فباستطاعة الأنا، عندها، ضبط المتطلّبات النزوية إذ تكون مدركةً لما يمكن إشباعه لأنّه يتلاءم مع مفروضات الواقع الخارجي وتأجيل أو حتّى إلغاء ما لا يمكن إشباعه لتعارضه مع الواقع الخارجي ومفروضاته. من هنا القول بأن وظيفة الأنا الأساسية تكمن في قدرتها على القيام بالخيار الواعي بالنسبة للوسائل الكفيلة بتحقيق هدف معيّن تصبو إليه وبالبحث عن الحلول الملائمة للقيام بتنفيذه.

ومن وجهة نظر التحليل النفسي، تقوم الأنا بدور الوسيط ما بين الهو le ça الممثّل للرغبات والنزوات الداخلية من جهة والأنا الأعلى le surmoi الممثّلة للعالم الخارجي من جهة أخرى. فكما يقول ناخت Nacht[2]: «على الأنا أن تتجاوز، وفي كل لحظة، الخوف الثلاثي الذي يعتريها تجاه: الواقع واللاوعي والأنا الأعلى».

شكّلت كل هذه الإعتبارات المنطلق الأساسي لتحديدنا المميّـز لـ «أنا» الأطفال، موضوع أبحاثنا، بالقوّة أو بالضعف لدى قيامنا بالتحليل العيادي: فالأنا الضعيفة أبدت، في الحقيقة، خوفاً شديداً تجاه النزوات اللاواعية ومواجهتها بينما بدت الأنا القويّة قادرة على إشباع ما يتلاءم من النزوات مع مبدأ الواقع وعلى تعديل الأخرى بحيث تتوافق مع اهتماماتها وفائدتها.

تجدر الإشارة هنا لإستحالة فهم الأنا خارج إطار الأواليّات الدفاعية les mécanismes de défense التي تستعملها أو بالأحرى مجمل التقنيات التي تستخدمها لحماية نفسها من الأخطار الداخلية (الناجمة عن تطرّف المتطلّبات النزوية) والخارجية (الناجمة عن تطرّف المفروضات الإجتماعية الخارجية) التي تهدّدها.

هذا ويمكن اعتبار القلق l'angoisse كإحدى ردّات الفعل الخاصّة بالأنا

(1) Ajuriaguerra (J. De), op. cit, p39 - 40
(2) Nacht (S.), «La théorie psychonalytique», PUF, France, 1969

وهو بمثابة «جرس إنذار» يضع الفرد بحالة يقظة ودفاع ضد المخاطر اللاواعية التي تهدّدها والتي تنجم، كما سبق أن قلنا، عن الخارج ومن الداخل على حدّ سواء. لكن، هناك إلى جانب ردّة الفعل المميِّزة هذه، عدد آخر كبير من ردّات الفعل كالكبت والنفي والصد والإسقاط والنكوص والشعور بالذنب. . . (ذكرنا في كتابنا السابق مجمل ردّات الفعل «الأواليّات الدفاعية» هذه، نعيد القارىء إليها).

وللمرء مختلف الوظائف المقدَّر على الأنا القيام بها ينبغي أن تتميّز بالقوّة؛ لكن، وللأسف، بدت شخصيّة أطفالنا، خصوصاً أطفال الحرب، ضعيفة وعاجزة عن مجابهة الصعاب واجتياز العوائق والحواجز (وما أكثرها خلال الأحداث الدامية التي يعيشون بظلّها) التي تعترض سير نموّها وتطوّرها. لكن لا يعني ذلك أن أولئك الذين عاشوا خلال السلم كانوا يتمتّعون بأنا قويّة فالبراهين على ذلك عديدة نكتفي بواحد منها: لو كانت هذه الأنا أكثر قوّةً وتوازناً لما كان تأثّرها بوضعيّة الحرب إلى الحدّ المَرَضي الذي لاحظناه وعلى مستوى مختلف قطاعات الشخصيّة، ومع ذلك يمكننا التأكيد على أنّهم كانوا أكثر توازناً. وهذا ما يفسّر وجود اضطرابات إضافية متعدّدة ظهرت بوضوح عند أطفال الحرب ولم تظهر عند من شكّلوا موضوع الأبحاث التي قمنا بها قبل الحرب (خلال السلم)؛ أما البرهان العلمي الآخر على ذلك فيكمن في الفروق ذات الدلالة الإحصائية المرتفعة جدّاً التي ميّزت أطفال الحرب بالمقارنة مع أطفال السلم.

ومسؤولية الأهل في ما وصل إليه الأطفال من ضعف في الأنا هي، في الحقيقة، ضخمة جدّاً وتستحق منهم الإهتمام الضروري لإعادة النظر في ما يختصّ بالدور الذي لعبوه إلى جانب طفلهم إذا كانوا فعلاً يودّون مساعدة هذا الأخير على تجاوز الصعاب التي تعترضه حتّى في حالة السلم فما القول، إذن بحالة الحرب حيث يواجه صعوبات إضافية تنشأ، بحدّ ذاتها، عن وضعيّة الحرب المؤلمة؟ ونحن لا نشكّ مطلقاً في رغبتهم هذه وقد لمسناها مراراً من

خلال تعاطينا الإجتماعي معهم وأثناء المحاضرات التي قمنا بها في مختلف مدننا وقرانا.

ثم إن تشديدنا على حثّ الأهل والمحيط لإعادة النظر بالدور الفعلي الذي قاموا ويقومون به إلى جانب الطفل ينطلق، في الحقيقة، من الواقع المُعاش الذي أثبتته ملاحظتنا العياديّة المدعومة بالنتائج العمليّة كما تكشّفت لنا من خلال تجربة الطفل المُعاشة: لقد بدوا، في الواقع، مماثلين لأنفسهم قبل الحرب وأثناءها، مع العلم بأن الضرورة كانت تقضي عليهم إحداث تعديلات في سلوكهم تجاه الطفل كي يصبح تصرّفهم متلائماً مع الوضعيّة الحاضرة التي يعيشها هذا الأخير.

أكثر من ذلك نقول: عدم تعديلهم لسلوكهم، كي يتمكّنوا من ضبط المواقف المستجّدة وبالتالي مساعدة الطفل على إدراكها ومن ثم تجاوزها، كان السبب الجوهري الكامن وراء إختلال توازن الطفل ووقوعه فريسة الإضطرابات النفسيّة التي كشف عنها تحليلنا العيادي.

كما أن هذا الواقع، أي خيبة الطفل من جرّاء تصرّف أهله ومحيطه، هو الذي دفع به لمحاولة تعويض ما ينقصه من الناحية العاطفية ـ النفسية عبر تعلّق متطرّف وغير سليم بالأخوة والأساتذة والرفاق... الذين خيّبوا، هم أيضاً أمل الطفل بهم(١).

كشف التحليل النفسي عن وجود قصور عاطفي carence affective عند الأطفال ترافق مع تعلّق تعويضي تجاوز الـ ٧٥٪ عند أولئك الذين يعيشون إلى جانب الأهل:

(١) سنعالج، في الأجزاء اللاحقة، هذا الموضوع بشكل وافٍ يركّز على أهميّة كلٍّ من هؤلاء إلى جانب الطفل وكنه دورهم وأسباب عجزهم...

٣) قصور عاطفي وتعويض اتّخذ شكلاً مَرَضيّاً pathologique

	م . ض .				م . ت .			
	الجنس		الدين		الجنس		الدين	
	ص.	ب.	أ.	م.	ص.	ب.	أ.	م.
وضعيّة الحرب (RN)	٨٤	٨٦	٧٧	٩٣	٣١	٦٣	٥٢	٤٢

جدول «رقم ٤»

يُبرِز هذا الجدول الثابتة constante التالية: يسهل على الطفل الذي يعيش ضمن إطار الأسرة تعويض القصور العاطفي الذي يعاني منه أكثر بكثير من زميله الذي يعيش داخل المؤسسة، والفرق بينهما ذو دلالة إحصائية مرتفعة جدّاً على كافة المستويات (الفئات الإجتماعية)

من شأن هذا التعويض خفض تأثير الإنعكاسات السلبية التي يحدثها الحرمان العاطفي عند الطفل؛ قلنا «خفض» لا «إزالة»، لأن هذا التعويض بقي محدود الفائدة لأسباب متعدّدة أهمّها: سمة التثبيت fixation أو التعلّق المتطرّف التي اشترطت وجوده أصلاً. لقد تميّزت علاقة الطفل بالأفراد، موضوع تعويضه العاطفي، بسمة الإضطراب أكثر منها بسمة التطوّر لأنها لم تحدث نتيجة إتّصال إجتماعي حرّ حصل بين الطفل والآخرين بل فُرِضت عليه فرضاً إذ كان الهدف الأساسي الدافع لها هو التخلّص من الحرمان العاطفي الذي يتألّم منه.

أكثر من ذلك نقول: صحيح أن الطفل بحاجة لمحيط نفس ـ اجتماعي يساهم في بلورة هويّته الإنسانية المتكاملة لكن فعاليّة وجود هذا المحيط تتوقّف على توفّر الشروط الملائمة التي تؤمّن له (أي للطفل) حرّية الإختيار وحرّية القيام بالتحويلات والتعديلات الضرورية بالنسبة للتبادلات الإجتماعية والنفس ـ عاطفية التي يحقّقها مع الآخرين خاصّةً وأن هذه التبادلات تتنوّع وتختلف باختلاف مراحل النموّ التي يمر بها. لكن التبادلات عند أطفالنا تميّزت،

وللأسف، بسمة الفرض لا بسمة الإختيار الحرّ من قِبَل الطفل، لذا بقيت فعاليّتها محدودة، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى نقول: يستحيل على الطفل تعويض عاطفة الأهل التي تشكّل، بالنسبة له، ضرورة ملحّة كي ينمو بشكل طبيعي وتتبلور مختلف القدرات الكامنة عنده بالقوّة. لذا تبقى أية محاولة تهدف لتعويضها، جزئية جداً كي لا نقول معدومة، لأن تطوّر شخصيّة الطفل لا يتحقق خارج إطار جوّ الأسرة (يتّفق مجمل علماء النموّ على هذا الرأي)؛ يستحيل تعويض الأدوار المتكاملة المنسوبة إلى الوالدين ضمن إطار جوّ المنزل الذي يضمّهما مع طفلهما وحيث تكمن الوظيفة الرئيسيّة التي تمكّن كلّ من الأب والأم من القيام بدوره في الأنسجام والحبّ المتبادلين بينهما من جهة وبين الطفل من جهة أخرى، وهذه الوظيفة المنسوبة للأهل لا يمكن أن تتحقّق بدونها وهي فريدة من نوعها.

ثم إن هذه الوظيفة تكمن في مساندة كلّ من الوالدين للآخر حتّى يتمكّنا من تحقيق دورهما على الوجه الأفضل: فالأب يدعم الأم معنوياً ونفسياً واجتماعياً. . . ، وهذا ما يريحها نفسياً وجسدياً ويجعلها قادرة على التفرّغ لطفلها وعلى التحرّر من الإحساس بكونها وحيدة، معزولة ودون معين يساعدها على القيام بالدور والوظيفة المتوجّب عليها القيام بهما إلى جانب الطفل بهدف تنشئته ورعايته؛ لكن، وللأسف، لا يتوفّر ذلك إلاّ في حالات نادرة في المجتمع الشرقي، بشكل عام، لأن الوالدين يعيشان في عالمين متباعدين، متراكمين وفي أغلب الأحيان متنافرين. هذا إلى جانب كون الأم تتحمّل وحدها -مسؤولية التربية وعليها وحدها تقع المآخذ لدى فشلها في القيام بالواجب على خير ما يرام. لكن، كيف يتسنّى لها النجاح وهي، غالباً، تعيش دورها كعمليّة شاقّة يزيد من صعوبتها إحساسها الدائم بأنّها مهجورة من قبل الوالد (الزوج) ومتروكة لوحدها لمواجهة الصعاب... ؟

والأم، بدورها، تساند الأب وتقدّمه لطفله وترسم له عنه صورة إيجابية تساعد الأخير (أي الطفل) على تقبّل والده فيتسنّى له، عندئذٍ، القيام بوظيفته إلى جانب طفله بحيث يتمكّن من تجسيد دوره كحامي وعالِم savant ورمز

للسلطة وللرجولة. . . ؛ لكن وللأسف يفشل الإثنان في لعب دورهما لأسباب متعـدّدة[1] نكتفي الآن بذكر أحدهما وهو الأساسي والمسؤول عن مجمل الإنعكاسات السلبية الناجمة عند الطفل ويكمن في الذهنيّة la mentalité السائدة في المجتمع الشرقي الذي منح الأب كرجل حريّةً مطلقة وعلى جميع المستويات: التمتّع بحياته خارج إطار المنزل مع ما يتطلّب ذلك من نفقات ماديّة ومن البقاء بعيداً عن عالم الأسرة، إمكانية خيانة زوجته دون حسيب أو رقيب، حقّه في مطالبة الزوجة في مجال رعاية الطفل وتنشئته وفي تحميلها مسؤولية الفشل بتربية «أولادها» كما يقول العديد من الآباء وكأن هؤلاء الأبناء هم أطفالها وحدها. . . ومن الطبيعي، في ظل غيابه عن المنزل وفي ظل مرارة الزوجة وعدم قدرتها على مضغ تصرّفاته وبوجه خاص خيانته لها أن يحسّه الطفل بعيداً عنه وأن تكون الصورة التي تقدّمها الأم مصبوغة بطابع المرارة والإحساس بالوحشة، أي سلبيّة، تساهم في إبعاد الواحد منهما عن الآخر بدلاً من تقريبهما من بعضهما. . .

وفضلاً عن ذلك نقول: لا يتوفّر الإنسجام الضروري كسمة طبيعية تميّز علاقة الأب بالأم في علاقة الزوجين مع بعضهما؛ لذا تتّخذ كلّ محاولة لتعويضه مظهراً مصطنعاً يشوّه طبيعتها ويبقيها بعيدة عن تأمين الإيجابية المتوخّاة. يُضاف إلى ذلك مختلف الصراعات التي ترافق، وبشكل طبيعي، علاقة الطفل بوالديه أثناء اجتيازه لمختلف مراحل نموّه حيث يشكّل كلّ منهما نموذجاً يتماهى به لكن، وفي الوقت نفسه، منافساً له على حب قريبه من الجنس الآخر؛ يكفي القول هنا أن الوضعيّة الطبيعية للأسرة هي، بحدّ ذاتها صراعية، فما هي الحال، إذن، عندما تنضاف إليها وضعيّات صراعية أخرى كاستبدال الأهل بأشخاص آخرين لتأمين ما ينبغي عليهم توفيره من دور ووظيفة إلى جانب الطفل؟

من هنا يُفهم السبب الرئيسي لإخفاق أيّة محاولة تعويضيّة تهدف إلى سدّ

---

(١) سنذكر كل هذه الأسباب لدى مناقشتنا لدور الأب والأم في الكتب المخصّصة لهما.

العجز والقصور الناجمين عن الأهل؛ ففي أقصى الحالات الناجحة، يمكن أن تكون هذه المحاولة جزئية ومصبوغة بالطابع المَرَضي البعيد عن السوائية.

إلى كل ما سبق قوله نضيف: يحتاج الطفل، حتّى وإن قام والداه بدورهما على خير ما يرام، للقيام بتبادلات إجتماعية تشمل محيطه الواسع الإطار الذي يشتمل بالإضافة إلى الوالدين، على: العائلة الواسعة الإطار (التي تضم الأخوة والجدود والأعمام والأخوال...) والرفاق والجيران والأساتذة... كي تتطوّر شخصيّته بشكل طبيعي. بمعنى آخر نقول: طالما يحتاج الطفل لوجود مثل هؤلاء الأشخاص إلى جانب وجود والديه فإن دورهم، بالتالي، كبديل عن الأهل يتّسم، منذ البداية، بطابع عدم السّواء وبالتعلّق المَرَضي.

لربط مختلف السمات التي تكلّمنا عنها ببعضها، نعود إلى ضعف الأنا ألملاحَظ عند الأطفال لنضيف: إنّه يرتبط مباشرةً باضطراب علاقتهم مع أهلهم، هذا الإضطراب الذي يرتبط بدوره، باختلال توازنهم العاطفي (الذي بدا مميِّزاً لهذه العلاقة) وبالصعوبة التي يجدونها في ما يختّص بقدرتهم على تجاوز المرحلة الأوديبية ممّا يقف حائلاً بينهم وبين قدرتهم على الإنخراط بشكل سوي في المراحل التالية من النموّ والكفيلة بإيصالهم إلى سنّ الرشد. أدّى كل ذلك لإحداث اضطراب عميق تناول البنية العميقة لشخصيّتهم وبشكل خاص الصورة التي كوّنوها عن ذاتهم ممّا أدّى، بدوره، لإحداث إضطرابات أخرى أكثر عمقاً كالإنهيار النفسي والنكوص والإنطواء على الذات والميول الفُصامية...

بالنسبة لإضطراب صورة الذات عند هؤلاء الأطفال نشير، باديء ذي بدء، لواقع إرتباطه المباشر والوثيق باضطراب «دور وصورة le rôle et l'image الوالدين. وهذا ما عزّز عندهم، بالإضافة إلى ما سبقت الإشارة إليه من اضطرابات، اضطراب صورة الجسد لا بل اضطراب التكامل النفسي والجسدي والعاطفي والذهني والعقلي والإجتماعي... عندهم:

٤) اضطراب صورة الذات image de soi troublée

	م . ض .				م . ت .			
	جنس		دين		جنس		دين	
	ص.	ب.	إ.	م.	ص.	ب.	إ.	م.
-	٤٧	٤٤	٤٥	٤٦	٧٨	٥٥	٥٦	٧٧
+	٤٨	٤٦	٤٦	٤٨	١٥	٣٥	٣٧	١٣
وضعيّة الحرب (١)- و +	٩٥	٩٠	٩١	٩٤	٩٣	٩٠	٩٣	٩٠

جدول «رقم ٥»

الجدول، بحدّ ذاته، بغاية البلاغة والتعبير إذ يكفي إلقاء نظرة سريعة عليه ليلاحظ القارىء مدى إضطراب الصورة التي يكوّنها الطفل اللبناني عن ذاته؛ هذا بالإضافة إلى تراوح عمق هذا الإضطراب تبعاً لإنتماء الطفل إلى مختلف الفئات المُتّخذة كمنطلق علمي لدراستنا الميدانية وبشكل خاص تبعاً لوجوده داخل المؤسسة أو، على العكس، ضمن إطار الأسرة.

بدا وجود الطفل إلى جانب والديه كعامل يفقده معنى الإتجاه ويشوّش إدراكه لذاته؛ فالفرق بين المجموعتين الضابطة والتجريبيّة بدا ذا دلالة مرتفعة جدّاً إلاّ على مستوى البنات حيث يعود هذا الإستثناء للمسلمات اللواتي بدا الإضطراب العميق عندهنّ بمثابة ٥١٪ مقابل ٢٠٪ عند المسيحيّات).

وبربط نتائج هذا الجدول مع نتائج الجدول السابق نستنتج السبب الأساسي في كون محاولة التعويض العاطفي عند الطفل باءت بالفشل: فهي لم تساهم، مطلقاً، في تحسين الصورة التي كوّنها عن ذاته؛ كما أنها بدت كميّة أكثر منها نوعيّة وذات طبيعة اتكاليّة أكثر منها تعويضيّة وإيجابيّة.

(١) نلفت إنتباه القارىء الكريم إلى أن الإشارة «-» تعني أن السمة المشار إليها لم تظهر بالشكل المسيطر والمتواتر الظهور كما هي الحال مع الإشارة «+»؛ ونظراً للموضوعيّة العلمية التي ميّزت عملنا منذ البداية فضّلنا فصل النتائج الخاصّة بكلّ من هاتين الحالتين لإعطاء صورة أكثر واقعيّة حول المعاش الحقيقي الخاص بالأطفال وبروز مختلف السمات عندهم.

هذا وينبغي التنويه إلى أن تقييمنا للإضطراب على مستوى صورة الذات إرتكز، أساساً، على عنصرين هامين: الصورة التي كونها الطفل عن جسده كما تمثّلت في رسمه لمختلف الأشخاص وبشكل خاص في رسمه لنفسه، والتقويم النفسي الذي كشف عنه تحليلنا العيادي الشامل لمخلف الإختبارات الإسقاطية les tests projectifs التي أجريناها عليه ولمختلف المقابلات والملاحظات التي تمكنّا من القيام بها أثناء عملنا الميداني.

تجدر الإشارة هنا إلى أن الصورة الإيجابية عن الذات تشكّل، بحدّ ذاتها، عاملاً أساسياً تكوينياً في تطوّر الشخصيّة عند الطفل؛ هذا وقد شدّد معظم العلماء الدارسين لهذا المجال على أهميّة التطوّر الذي يكوّنه الطفل عن جسده son schéma corporel في تطوّره النفسي والعكس بالعكس، أي تداخل الإثنين وتفاعلهما الواحد مع الآخر. يقول دروبسي Dropsy[1] في هذا الصدد إن «تعبير الجسد يعكس الشخصيّة بأكملها، نفساً وجسداً؛ فالحياة الداخلية الحميمة والتعبير الخارجي عن الجسد لا يمكن أن ينفصلا عند الإنسان النشِط». لإثبات ما يقول يقدّم دروبسي البرهان الآتي: «إذا شئنا دراسة معنى التعبير الجسدي نجد ثلاثة عناصر: هناك، أوّلاً، القوى التي ندركها بداخلنا والتي تضغط علينا وتدفعنا لتنفيسها إلى الخارج؛ ثم هناك العالم الخارجي الذي ندركه والذي تتجّه حياتنا الداخلية نحوه؛ وأخيراً، هناك الجسد كوسيط بين هذين العالمين (العالم الداخلي والعالم الخارجي). إنّه (أي الجسد) موضوع كباقي مواضيع العالم الخارجي لكنّنا ندركه كخاصّتنا وملك لنا وحدنا دون الآخرين: إنّه «نحن»، كما أنّنا ندركه من الداخل بمقدار ما ندركه من الخارج»[2].

كثيرون هم العلماء أمثال دولتو Dolto، مانوني Mannoni، بانكو Pankow، ...، الذين تكلّموا عن أهميّة التصوّر الجسدي في مُعاش الفرد. لقد شدّدت بانكو[3] على أهميّة هذا التصوّر في التجربة التي يعيشها الذُهاني le

(1) Dropsy (Jacques), «Vivre dans son corps» (expressions corporelles et relations), Ed. Epi, Paris, p16
(2) Dropsy (Jacques), op. cit., p175
(3) Pankow (G), «l'homme et [illegible] psychose», Aubier Montaigne, France, 1969

psychotique؛ كما أنّها أوضحت أهميّة الوظيفة البنائية لصورة الجسد ليس فقط في هويّة الفرد بل، أيضاً، في الإطار العام الذي تتكوّن فيه هذه الهويّة. وهكذا يؤمّن إدراك التصوّر الجسدي ذلك الرباط المنعقد بين الجسم ككل والجسم كأجزاء خصوصاً وأن الفرد يعيش جسمه، في البداية، كأجزاء منفصلة عن بعضها».

نجد نفس الفكرة تقريباً عند سميرنوف Smirnoff[1] الذي يقول: «كي يصبح الطفل قادراً على إدراك أمّه كوحدة متكاملة يجب أن يدرك ذاته كفرد كامل، شامل وغير مجزّأ». بتعبير آخر نقول: عليه إكتساب صورة كاملة عن جسده تمكّنه من التعرف على هويّته كإنسان متكامل.

هذا وقد شكّلت إستفادة الجسد من مختلف التجارب الحاسّية (أي المرتبطة بالحواس) المؤمّنة بفضل مختلف الإشباعات الغلمية وأهميّتها في تأكيد هويّة الفرد موضوع العديد من الدراسات التي قام بها عدد كبير من أرباب علم نفس النمّو أمثال: فرويد (١٩٠٥، ١٩٢٣ أ)، ڤالون (١٩٣٤)، شيلدر (١٩٣٥)، لاكان Lacan (١٩٤٩)، هوفر Hoffer (١٩٤٩، ١٩٥٠)، سبيتز Spitz (١٩٥٥)، ميتلمان Mittelmann (١٩٥٧)، غريناكر Greenacre (١٩٥٨) ووينّيكوت Winnicott (١٩٦٠).

وكذلك القول في ما يختّص بمرحلة المرآة stade de miroir وأهميّتها في تكوين وحدة الفرد؛ يقول سميرنوف[2] بهذا الصدد ما يلي: «تبدو وظيفة مرحلة المرآة، بالنسبة لنا، كحالة خاصّة لوظيفة «الأمجيّة imago» التي تكمن في تأمين العلاقة بين جهاز الفرد العضوي وواقعه الخارجي». نجد نفس الفكرة عند ريلاّير Rillaer[3] وإن تبسّط أكثر من سميرنوف بتفسيرها مُدخلاً دور الآخرين

(1 et 2) Smirnoff, op. cit., p176 et p181

(3) Rillaer (Jacques Van), «L'agressivité humaine», Ed. Dessart et Mardaga, Bruxelles, 1975, p191.

في تكوين الوحدة والتكامل عند الفرد: «دور النرجسية لا ينتهي أبداً وكذلك القول بالنسبة لأهميّتها في نموّ الفرد وتكوينه. فمنذ اللحظة (أي ما بين الثمانية أشهر والثلاث سنوات) التي تتشكّل معها صورة الأنا في المرآة على غرار فردٍ آخر شبيه له وموجود على مسافة معيّنة منه، يبدأ وجود الإنسان بالجري المستمر الهادف للبحث عن الذات. لذا يشكّل أي تنافر discordance يحصل بين الوالدين أثناء وعي الفرد لذاته جرحاً نرجسياً يصعب التآمه، لأنّه (أي الفرد) يحسّ نفسه ناقصاً خاصّة وان وحدته كإنسان له كيانه الخاص به لا تتأمّن إلاّ من الخارج (أي بفضل الآخرين الذين يشكّلون مرآة الفرد) وتدريجاً فتبقى، من جرّاء ذلك، عرضة للإنتقاص والإضطراب. لذا يبدو وكأن كل عضو من أعضاء المجتمع يتوسّل إلى الآخرين توفير السبيل الذي يمكّنه من إيجاد نفسه وحب ذاته».

هناك الكثير الكثير ممّا يمكن قوله في هذا الصدد خاصّةً وأن «البحث في الهويّة وصورة الذات» شكّل موضوعاً رئيسياً لمئات الدراسات العلميّة. لكننا نكتفي بما ذكرناه لأنّه يلخّص الأفكار الأساسية لمجمل ما قيل حول هذا الموضوع كـ : تداخل النفس بالجسد والعكس بالعكس أي تداخل الجسد بالنفس، أهميّة وحدة النفس التي تتأمّن بفضل وحدة الجسد، أهميّة الآخرين في تكوين هذه الوحدة حيث يشكّل الآخر جحيم الفرد كما يقول سارتر «l'enfer, c'est les autres» وأخيراً، أهميّة تواصل هذه الوحدة واستمراريّتها عند الفرد منذ لحظة ولادته لا بل منذ لحظة إخصابه وحتّى مماته. يقول ريفز H. Reeves[1] في هذا الصدد: «تنطبع حياتنا النفسية ليس فقط بتاريخنا الفردي والأسري بل، أيضاً، بماضي البشرية جمعاء الذي يتأثّر، بدوره، بمصير الكون أجمع».

نعود، ضمن هذا الإطار، للطفل اللبناني فنشدّد على واقع اضطراب «صورة الذات» خاصّة وان هذا الإضطراب بدا واضحاً في مجمل إختباراته

(1) Reeves (Hubert), «psychologie», Année 1983, N; 154, p3

الإسقاطية حيث ظهرت صورة الجسد بغاية التشويش إن عبر رسومه أم عبر الصورة التي كوّنها عن نفسه وعن الآخرين.

يمكن إعادة هذا التفكّك المُلاحَظ على مستوى «صورة الذات» عند اللبناني لأسباب متعدّدة ذكرنا بعضها ضمن إطار تأويلنا الحالي كإضطراب علاقة الطفل بأهله وصعوبة تجاوزه المرحلة الأوديبية وضعف الأنا...، والبعض الآخر ضمن إطار الجزء النظري حيث تكلّمنا بالتفصيل عن مشكلة الهويّة عند اللبناني وانعكاسها على إدراكه لذاته وتقييمه لها خصوصاً في ظل الأجواء الأسريّة العامّة التي تكلّمنا عنها والتي من شأنها تعزيز مثل هذا الإضطراب.

ثم إن ملاحظة مدام برنس لإضطراب الهويّة عند الشبيبة اللبنانية[1] يدعم ما لاحظناه عند أطفالنا منَ اضطراب ظاهر في هويّتهم؛ لا بل، أكثر من ذلك نقول: يكفي إلقاء نظرة موضوعيّة على مجتمعنا كي ندرك مدى أهميّة إضطراب صورة الذات واضطراب الهويّة الوطنية في احتدام شدّة الأحداث وخطورة انعكاساتها السلبية على مستوى المجتمع ككل.

بكلمة مختصرة نقول: أهم وأخطر انعكاسات اضطراب «صورة الذات» عند الطفل اللبناني بدا من خلال غموض هويّته، الجنسية بشكل خاص:

٥) غموض هويّة الطفل اللبناني والإختلاط الذهني الذي رافقها:

هناك إلتباس واضح في إدراك الطفل اللبناني، لا بل اللبناني بشكل عام، لهويّته (الجسدية والجنسية والوطنية) بحيث ينبغي أن لا تعمينا التصرّفات الدونجوانيّة التي نلاحظها عند العديد من اللبنانيين عن هذه الحقيقة والتي تشكّل قناعاً يخفون وراءه الكثير من مظاهر الضعف لا بل الشك بالذات التي يعانون منها

هذا إلى جانب إنغماس الطفل ضمن إطار جوّ عام من الإلتباس الذي

(١) شكّلت الشبيبة الجامعيّة الجمهور الأصلي لدراستها:
Mme Prince (M - A), «Dualité des rôles dans le passage d'une culture à l'autre: le cas du Liban», publi. de l'Université liban., Beyrouth, 1982

انعكس سلباً على كافة قطاعات شخصيّته، وبشكل خاص على قطاع هويّتـه الجنسية ذات الأهمية الرئيسية في اكتسابه اللاحق لرجـولته كصبي أو لأنـوثته كفتاة. وقد ظهر هذا الإلتباس مشتركاً عند طفل ما قبل الحرب وبالأخص عند طفل الحرب:

		م. ض.				م. ت.			
		جنس		دين		جنس		دين	
		ص.	ب.	إ.	م.	ص.	ب.	إ.	م.
وضعيّة ما قبل الحرب	-	٥٢	١٦	٣٠	٣٨	٣٤	٢١	٣٠	٢٥
	+	٢٠	٨	١٩	٩	٤٧	٦	٢٨	٢٥
	- و +	٧٢	٢٤	٤٩	٤٧	٨١	٢٧	[illegible]٨	٥٠
وضعيّة الحرب (١)	-	٣٦	٥٣	٤٩	٤٠	٤٥	٤٦	٤٥	٤٦
	+	٥٧	٢٥	٤٤	٣٨	٤٠	٢١	٢٩	٣٢
	- و +	٩٣	٧٨	٩٣	٧٨	٨٥	٦٧	٧٤	٧٨

جدول «رقم ٦»

يكفي إلقـاء نـظرة سريعـة عـلى هـذا الجـدول لنتبيّن فيـه عـدداً من الملاحظات: ـ يعاني الصبي من اضطرابات في هويّته (الجنسية بشكل خاص) أكـثر من البنت أكان يعيش داخـل المؤسسة أم ضمن إطـار الأسرة؛ ـ تعاني المجموعة التجريبية التي كانت تعيش أثناء السلم أكثر من المجموعة الضابطة في هذا المجال؛ ـ يعاني أطفال الحرب من هذا الإضطراب أكثر بكثير من أطفال السلم والفرق بين الإثنين هو ذو دلالة إحصائية مرتفعة جدّاً على مستوى كافة الفئات الإجتماعية.

(١) نودّ تذكير القارىء أننا بقولنا: «وضعيّة ما قبل الحرب» و «وضعيّة الحرب» إنّما نقصد نتائج الدراسات الميدانية التي قمنا بها قبل إندلاع الحرب وأثناءها ضمن إطار المجتمع اللبناني. كما أنّنا نودّ تذكيره بأن إشارة «+» تدل على سيطرة السمة المذكورة وتواتر وجودها بكثرة عند الطفل بينما تدلّ الإشارة «−» على وجود تواتر للسمة إنّما بشكل أقلّ سيطرة.

سؤال يطرح نفسه علينا: لَمَ يعود الفرق ذو الدلالة الإحصائية الثابتة على مستوى أكثر من جدول والُملاحَظ بين الصبيان والبنات حيث بدا الصبي أكثر إضطراباً من البنت؟

تتضمن الإجابة على هذا التساؤل مناقشة عدد من جوانب النموّ لكن، بشكل مبدئي وأوّلي، نقول: يعود ذلك لترعرع الصبي ضمن إطار أسرة يسودها طغيان العنصر الأنثوي الممثَّل بالأم وحدها؛ فالعنصر الذكوري شبه مفقود لأن الأب الذي يمثّله، خصوصاً في فترة الطفولة الأولى، غائب عن مسرح الأسرة إذ تقتصر تربية الطفل، كما سبق أن قلنا، على الأم وحدها. هذا إلى جانب طغيان العنصر الأنثوي داخل حضانة الأطفال jardin d'enfants التي تشكّل إمتداداً طبيعيّاً لجوّ الأسرة.

وغياب الأب عن الأسرة لهو، كما سبق القول، ذو انعكاسات سلبية خطيرة على دوره ووظيفته إلى جانب الطفل بشكل عام والصبي بشكل خاص كنموذج ومنافس، في آنٍ معاً[1]، يشكّلان سياقين هاميّن في تكوين أناه وبناء هويّته كرجل يتمتّع بصفات الرجولة مثل أبيه.

لكن وجود الأب هامّ ليس فقط بالنسبة للصبي بل أيضاً بالنسبة للفتاة؛ من هنا تُفهَم محاولة ربطنا، ضمن حدود معيّنة طبعاً، إضطراب هويّة البنت بغياب الأب عن جوّ الأسرة: صحيح أن وجودها إلى جانب والدتها يؤمّن لها فوائد لا يستفيد أخوها منها، لكن ذلك لا يعني أن طغيان وجود الأم يشكّل عاملاً إيجابياً فعّالاً يساعدها على إدراك هويّتها بشكل واضح وذلك لأسباب متعدّدة: - إحساس الأم بالطفل كجزء منها وهذا يحدّ من قدرتها على فهمه؛ - لا ترتكز تربية الأم لطفلها على معرفة منطقية تمكّنها من إقناعه عقليّاً حتّى يتسنّى له (خصوصاً للبنت) إستيعاب ومن ثمّ إجتياف دورها المستقبلي كأنثى (أفضل برهان على ما نقول يكمن في ملاحظة الإضطراب عند البنت، كما عند

(١) نعيد القارىء، هنا، للكتاب المخصّص ضمن هذه السلسلة التي نقدّمها له.

الصبي، على مستوى العديد من السياقات التكوينيّة رغم وجودها إلى جانب الأم بشكل شبه دائم).

هذا بالإضافة إلى غموض المكانة التي تشغلها المرأة ـ الأم داخل الأسرة الشرقية المرتبط في الوقت نفسه باحتقار المجتمع الشرقي للعنصر الأنثوي الذي لا بدّ أن ينعكس عليها سلباً كفتاة؛ في الواقع، تتغذّى الأم بشكل لا واعٍ من هذا الإزدراء الإجتماعي ويُترجَم ذلك، عندها، من خلال مواقفها المختلفةّ تجاه الفتاة وتجاه نفسها: حزنها العميق لدى ولادة البنت وموقفها الشديد التسامح تجاه خيانةُ زوجها لها، هما أصدق مثالين يعبّران عن موقفها من نفسها ومن الفتاة.

وبما أن كل الأبواب موصدة أمامها في ما يختص بقدرتها على تأكيد ذاتها كفتاة وكإمرأة لا يبقى أمامها، إذن، سوى باب الأمومة مفتوحاً في هذا المجال فتحقّق ذاتها إنّما على حساب الطفل (الصبي بشكل خاص) الذي تعلّقه بها وتتعلّق به. وهذا ما يشكّل سبباً من الأسباب التي تفسّر الصعوبة التي يجدها الطفل (الصبي خاصّةً) في تجاوز مختلف مراحل نموّه، المرحلة الأوديبية خاصّة، بشكل سليم يمكّنه من تحقيق الرشد والإستقلالية الفردية المميِّزة له.

ربّ معترض على ما نقول بحجّة انّنا نقدّم لوحة كاريكاتورية مشوّهة للواقع وعلى ذلك نجيب: هذه هي، للأسف، حقيقة الكثير من العائلات عندنا وما على المعترض سوى القيام بتحليل موضوعي للسلوك الأسري في مجتمعنا والمجتمع الشرقي بشكل عام حتّى يكشف عن سيطرة هذا الواقع إنّما مقنّعاً، في كثير من الأحيان، وراء مظاهر خادعة تخفيه عن الأنظار؛ أكثر من ذلك نسأله: كيف نفسّر تدخّل الأهل، الأم بوجه خاص، في حياة أبنائها، حتّى بعد الزواج؟ وهذا التدخّل يشكّل، في الحقيقة، السبب الرئيسي لتفكّك الأوصال التي تربط بين الزوجين ضمن إطار ثنائي الزوجين.. داخل عدد كبير من الأسر اللبنانية والشرقية.

تعليقاً على ما سبق نضيف: لا يكفي وجود الأم الجسدي إلى جانب

الفتاة كي تفهم هذه دورها وتدركه فتكتسب، مستقبلاً ، صفات الأنوثة وهويّتها كإمرأة.

وبالإضافة إلى ذلك، هناك عوامل متعدّدة تتلاقى لتزيد الإلتباس، المحيط بهويّة الفتاة كإمرأة، حدّةً: فهي، منذ نعومة أظافرها، تعاني من عقدة خصاء حقيقيّة تنتج عن تمنّيها لإمتلاك قضيب مثل أخيها؛ complexe de castration وهذا الشعور بالخصاء لا يزول بسهولة ويحتاج لوجود أم مُدرِكة لدورها تعزّز عندها تقويمها الإيجابي لذاتها وهذا للأسف، غير متوفّر إلاّ في حالات قليلة.

يُضاف إلى ذلك واقع آخر يكمن في الإمتياز الممنوح، دائماً، للصبي على حساب البنت في المجتمع الشرقي حيث يكون الأول موضوع مجمل الإهتمامات والحقوق غير المحدودة بينما يُفرَض على البنت، بالمقابل، العديد من الضغوطات والإكراهات[1]

تُفهَم، على ضوء الإعتبارات المقدّمة أعلاه، أسباب سيطرة الإلتباس على هويّة البنت رغم وجودها شبه الدئم إلى جانب والدتها داخل إطار الجوّ الأسري.

هذا وقد شكّلت الحرب عامل إضطراب إضافي ساهم، إلى جانب تأثير الأهل السلبي، في تعزيز درجة إلتباس الهويّة عند الطفل اللبناني الذي يعيش مع أسرته: تكفي مقارنة نتائج الجدول «رقم ٦» على مستوى وضعيّتي: ما قبل الحرب وأثناء الحرب، لإدراك الفروق ذات الدلالة الإحصائية المرتفعة جدّاً وعلى مستوى كافة الفئات الإجتماعية الممثّلة للمجموعة الضابطة. ومع ذلك كان من المتوقّع أن يكون تأثير الأهل أكثر إيجابيّةً، فدراسة ما قبل الحرب كشفت عن قدرتهم في خفض درجة الإضطراب عند الطفل [يكفي لإدراك ذلك مقارنة نتائج المجموعتين (الضابطة والتجريبية) على مستوى وضعيّة ما قبل الحرب «+»].

لكنّ وجود الأهل بدا وللأسف هشّاً وعاجزاً عن مواجهة الصعاب والوضعيّات المؤلمة التي يتخبّط الطفل داخلها، خصوصاً تلك الناجمة عن

(١) لمزيد من التفاصيل والوضوح، نعيد القارىء للكتاب المخصّص للأم.

الحرب؛ وهذا ما يفسّر إلتباس الهويّة عند من يعيش داخل الأسرة أكثر منه عند من يعيش داخل المؤسسة.

أمّا أهميّة وجود الوالدين وخطورة عدم إستفادة الطفل منه فتتخذان معناهما من واقع النموّ نفسه: تتشكّل أولى العلاقات الإجتماعية القائمة بين الطفل والآخرين بفضل سياقات التماهي اللاواعي التي تتبلور عند الطفل من خلال إتخاذه للأب والأم كنماذج يقلّدها ويتمثّل بصفاتها. وبمقدار ما تتنوّع الأحداث النفسيّة وتتّحد مواضيع التماهي الأوّلي ضمن إطار تماهي متناغم ينسجم مع النموذج السلوكي وشكله أو، على الأقل، تبقى محفوظة كردّات فعل منعزلة تؤثّر بطريقة إلزامية. ونحن نعلم، بفضل تعاليم التحليل النفسي، أنّ ردّات الفعل الناتجة عن التماهي الأوّلي بالوالدين يميل، قسراً وبشكل لاواع، للتكرار؛ يعود ذلك بنظر ميتسشرليش Mitscherlisch لكونها تجري خارج إطار الوعي وبعيدة كل البعد عن تأثير الضبط والإدراك. لكنّ ذلك لا يمنع الفرد من أن يتلقّى من الآخرين سمات خاصّة بشخصيّتهم حتّى وإن عانى منها وثار عليها بشكل واع[1].

هذا ويحدّد فيّو Filloux[2] الهويّة كونها «دينامية لا جامدة إذ أنّها الهويّة التي يحقّقها الفرد رغم التغيير وبفضله. إنّها الهويّة المركزيّة التي تجسّدها نشاطات الفرد الذي يبحث دائماً عن الوسائل الكفيلة بتحقيق وحدة الكيان التي تكلّم عليها جانيه».

يُضاف إلى ذلك كون هذه الهويّة تتحقّق رغم تنوّع التماهيات (بنماذج وكائنات وأدوار مختلفة) وبفضلها نظراً لكون تعدّدها هذا يساهم، لا في استلاب فرادة الإنسان كفرد، بل في بناء ديناميّته الفردية المميِّزة لشخصيّته ككائن فريد لا يشبه، تماماً، أي إنسان آخر.

على كل حال، يمكن القول إن الهويّة لا تشكّل مجرّد فكرة بسيطة منظّمة

(1) Mitscherlisch (A), «vers la société sans père» (Essai de psychologie sociale), trad fr., Ed. Galimard, Paris, 1969, p157
(2) Filloux (J. - cl), «La personnalité», PUF, Paris, 1967, pp116 et 118

للماضي إنّما هي وعي معاصر وقصد دائم نحو ما ينوي الفرد تحقيقه في المستقبل، حتماً ضمن حدود كونها مُعاشاً زمنياً أي إستعادة واعية للماضي وفي الوقت نفسه ترقّباً وبرنامج عمل لنشاط مستقبلي.

نعتقد، من جهتنا، أنّه من غير الممكن فهم الإلتباس المُلاحَظ في هويّة اللبناني إذا لم نضعه ضمن الإطار الزمني أي: ماضي، حاضر ومستقبل آخذين بعين الإعتبار مختلف التماهيات التي يحقّقها الطفل بفضل تمثّله بمختلف النماذج والكائنات والأدوار التي تماهى بها. يدفعنا لهذا الإعتقاد ما سبق أن قلنا حول غموض الأدوار والنماذج المقدَّمة للطفل؛ وحتّى هويّة الأشخاص الذين يتماهى بهم يسودها الإضطراب وهذا ما تسبّب بشيوع الإلتباس في معاشه اللاواعي وهو المسؤول الأول عن تكوين مختلف سياقات نموّه النفسي.

ثم إنّه لمن غير الممكن، أيضاً، فهم إلتباس هويّة الطفل اللبناني (الجسدية والجنسية) دون وضعها ضمن إطار الهويّة الوطنية التي بدت هي أيضاً بغاية الغموض: لقد تأكّد هذا الواقع من خلال تحليلنا العيادي لُمعاش الطفل الحيوي وقد أكّدته أيضاً مجمل الدراسات التي تناولت هذا الموضوع.

في الواقع، كشف هذا التحليل عن وجود سمات إضطرابية متعدّدة تبرز غموض الهويّة عند الطفل اللبناني، نكتفي بذكر بعضها: الصورة التي كوّنها الطفل عن ذاته وعن الآخرين (خصوصاً الوالدين) بدت، في الكثير من الأحيان مشوّهة ومبتورة؛ تفاوت إهتمامه بالوالدين بمعنى أن إهتمامه بأحدهما كان يتم على حساب إهتمامه بالآخر؛ وجود إهتمامات أنثوية عند الصبي (كالإهتمام المتطرّف بمظهره الخارجي ورغبته في أن يكون أمّاً بالمستقبل... وقد بدا ذلك واضحاً في مختلف إختباراته الإسقاطية) واهتمامات ذكورية عند البنت التي لم تبدُ بوضع أفضل بكثير من وضع الصبي؛ جهل مطبق في ما يختص بالذكورة أو الأنوثة (حتّى السمات الثانوية المميِّزة لها إذ كان تمييزه بين الإثنين يقتصر فقط على القول: المرأة تلبس فستاناً وشعرها طويل والرجل يلبس بنطلوناً وشعره قصير.. مع أن هذا الطفل في العاشرة والحادية عشرة من عمره...)؛ ...

وما يعزّز إلتباس الهويّة (الجنسية بشكل خاص) يكمن في «الإزدواجية الجنسية المميِّزة لبنية الكائن البشري الجسدية»: فالرجل يمتلك مكوّنات جنسية أنثوية والمرأة مكوّنات جنسية ذكورية وهذا ما يتسبّب، خلال فترة معيّنة من نموّ الفرد، بالتردّد المُلاحَظ بالنسبة لسلوكه الجنسي؛ هذا مع العلم بأن المكوِّنات الجنسيّة الغالبة، أي المكوِّنات الأنثوية عند الفتاة والذكورية عند الصبي، هي التي تحدّد جنس الفرد بحيث تُكبَت المكوِّنات المناقضة لـه في اللاواعي تحت شكل ميول وتماهيات أنثوية عند الرجل وذكورية عند المرأة. من هنا يُفهَم الدور الرئيسي والهام الذي تلعبه التربية التي يتلقّاها الفرد من قِبَل أسرتـه ومجتمعه وكذلك المفروضات الثقافية والمعايير السائدة في المجتمع بالنسبة لتأكيد الشكل النهائي لجنس الفرد. لذا يمكن القول بأن حالات «اللواط» أو «السحاق» (أي حالات الشذوذ الجنسي) تـرتبط بمورفـولوجيـة مميِّزة هـذا صحيح، إنّما أيضاً وبشكل خاص، بطريقة تعامل الأهـل مع الـطفل إذ من شـأن التربيـة التي يتلقّاها، خصوصاً خلال مراحل نموّه الأولى، إمّا تعزيز هذا الإنحراف الذي تقود الفرد نحوه تلك المورفولوجية المميِّزة له أو، على العكس، خفض هـذه الميول الإنحرافية.

تُفهَم، على ضوء ما سبق قوله، وأكثر فأكثر، أهميّة تجاوز الطفل للمرحلة الأوديبية (أي تصفية عقدته الأوديبية) في سلامة تكوينه البنيوي والتناسلي نظراً للعناصر التكوينيّه المبدئية المرافقة لها من تماهٍ وخصاء ونموذج للأنا وتنافس... ذات الدور الرئيسي في تحقيق فرادته الشخصيّة وبالأخص في اكتساب هويّته.

وضمن إطار هذه الوقائع يبدو «انكماش الشخصيّة» المُلاحَظ عند الطفل اللبناني كنتيجة شبه طبيعيّة لما يدور حوله من غموض يشكّل الأرض الخصبة التي ساهمت في تمكين شتّى الإضطرابات من غزو نفسه الحائرة:

٦) انكماش الشخصيّة **personnalité rétractée**

	م . ض .				م . ت .			
	جنس		دين		جنس		دين	
	ص.	ب.	إ.	م.	ص.	ب.	إ.	م.
وضعيّة الحرب +	٤٢	٣٨	٣٩	٤١	٩	٢٦	٢٦	٩

جدول «رقم ٧»

يكفي إلقاء نظرة على هذا الجدول لملاحظة تأثير الوالدين السلبي على تكوين شخصيّة الطفل وقدرته على الإنفتاح بالمقارنة مع مثيله الموجود ضمن إطار المؤسسة (الفرق بين الإثنين هو ذو دلالة إحصائية مرتفعة جدّاً على مستوى الفئات المكوِّنة للعيّنة المختارة في البحث الميداني، وعلى مستوى الصبيان والمسيحيين بشكل خاص).

تجاه هذا الواقع، يتملّكنا الإحساس بأن وجود الأسرة إلى جانب الطفل يشكّل عائقاً يمنعه من بلورة شخصيّته وتفتّحها وذلك نتيجة الضغوطات العاطفية المتطرّفة التي يمارسها الوالدان على الطفل كثمنٍ للحب الذي يمنحانه إيّاه والذي هو بأمسّ الحاجة إليه كي ينمو ويتطوّر بشكلٍ طبيعي.

في الواقع، يبدو هذا الطفل فريسة دائمة للحيرة والتساؤل: كيف يتصرّف حتّى لا يسيء إلى أهله؟ أيتصرّف تبعاً لحاجاته ورغباته الداخلية أم، على العكس، يمتثل لتعليمات الأهل وأوامرهم وفي ذلك ما فيه من كبت للكثير من الحاجات التي يحسّها كحقوق مشروعة له لكنّه لا يستطيع إشباعها كي لا يخسر حب الأهل له وهو بمثابة غذاء روحي لنفسه الناشئة؟ بدا هذا الجوّ الذي يغمر الطفل عاملاً حدّ من حريّة التصرّف عنده وبالتالي من قدرته على التفتّح بالمقارنة مع مثيله الموجود ضمن المؤسسة الذي بدا حرّ الحركة والتصرّف وبالتالي أكثر قدرة على الإنفتاح.

وما يؤكد إفتراضنا هذا يكمن في السمة الإضطرابية التالية «السلبية أو القصور الذاتي» التي بدت مميِّزة لسلوك أطفال الحرب:

	م . ض .				م . ت .			
	جنس		دين		جنس		دين	
	ص.	ب.	إ.	م.	ص.	ب.	إ.	م.
La passivité السلبيّة أو القصور الذاتي −	٤٢	٢٨	٣٦	٣٤	٣٤	٢٣	٢٩	٢٨
+	٢٧	١٤	١٩	٢٢	١٩	٦	١٢	١٣
وضعيّة الحرب − و +	٦٩	٤٢	٥٥	٥٦	٥٣	٢٩	٤١	٤١

جدول «رقم ٨»

تبدو «السلبية» بغاية الوضوح وأكثر عمقاً عند الصبيان منها عند البنات وذلك على مستوى المجموعتين: الضابطة والتجريبية؛ يبدو هذا الإستنتاج مناقضاً لما اتُّفِق عليه إجتماعياً حيث تُنسَب صفة السلبية والقصور الذاتي إلى البنت بينما يُنسَب النشاط وشدّة الفعاليّة إلى الصبي في مجتمعاتنا الشرقية (ومن ضمنها المجتمع اللبناني).

بالإضافة إلى ذلك تبدو السلبية عند الأطفال الذين يعيشون مع الأسرة أعمق منها عند من يعيشون داخل المؤسسة، والفرق بينهما هو ذو دلالة إحصائية مرتفعة ومرتفعة جدّاً.

تدفعنا المُلاحَظات المشار إليها أعلاه لإعادة النظر في كل ما يتردّد من أفكار شائعة ومستحسَنة من قِبَل العرف الإجتماعي وعدم قبولها قبل التأكّد من صحّتها بشكل علمي وعن طريق البحوث الميدانية. والحذر الذي ندعو لإتّخاذه لا يقتصر على الأفكار المنتشرة عند العامّة فحسب بل يشمل، أيضاً، مواقف متعدّدة نجدها عند المثقّفين؛ كما يشمل نتائج البحوث العلمية وبوجه خاص نتائج البحث الواحد؛ أفضل برهان علمي على ما نقول يكمن في ما لاحظناه،

ضمن إطار بحثنا، من تناقض ظاهر على مستوى النتائج الميدانية: فبينما بدا الصبيان أكثر إنفتاحاً من البنات على مستوى سمة «انكماش الشخصيّة»، نجدهم أكثر سلبية من البنات على مستوى سمة «القصور الذاتي»...

نتساءل هنا حول ما يمكن إستخلاصه من مواقف عامّة: أنميل تارةً إلى هذه النتيجة وطوراً إلى النتيجة الأخرى حتّى وإن تعارضتا من حيث المعنى والدلالة؟ أم نتّخذ موقف التريّث بانتظار الإستخلاص النهائي الشامل لمجمل النتائج، وهو، بالحقيقة، الموقف العلمي والموضوعي المفروض على أي عالِم تبنّيه؟... على كل حال، هناك حقيقة نستخلصها على ضوء ذلك وتكمن في الإستنتاج الآتي: لا يعني وجود سمة إضطرابية معيّنة، حتّى وإن تأكّدت بشكل لا يمكن معه الشك، كونها محدَّدة وبشكل نهائي لتكوين بنية الشخصيّة المتكاملة عند الإنسان.

بمعنى آخر نقول: لا يمكننا التسليم بواقع كون التطوّر المَرضي لشخصيّة الطفل، كما بدا لنا على ضوء النتائج العمليّة، سيحدِّد مستقبلاً شخصيّته ومسارَ حياته المستقبلية بل، على العكس من ذلك، يمكننا القول: إن الأمل في أن يتوصّل الطفل، مستقبلاً، لحالة من الثبات النفسي الذي يجعله يخطّ طريقه نحو مستقبل زاهر هو كبير جدّاً شرط أن يلتقي بظروف أفضل من تلك التي عرفها سابقاً وبأشخاص يكون أثرهم عليه إيجابياً؛ من شأن ذلك ليس فقط خفض تأثير الإنعكاس السلبي المُحدَث بداخله نتيجة التوتّرات الماضية التي تعرّض لها بل، خصوصاً، دفعه في طريق السواء والنضج المطلوبين كي يحقّق ذاته كراشد مسؤول ومستقل.

هذا هو في الحقيقة السبب الأساسي الذي دفعنا، علميّاً وموضوعيّاً، لاتّخاذ موقف الحذر والتحفّظ تجاه العديد من المسائل المرتبطة بمواضيع النموّ وبشكل خاص موضوع فعاليّة الأهل إلى جانب الطفل. وبما أنّنا نتكلّم على هذا المجال، نضيف إلى ما سبق قوله الملاحظة الآتية: ما ساهم في جعل وجود الأهل مثيراً للإضطراب بدلاً من أن يكون عامل تطوّر يكمن في عدم سماحهم للطفل بإبداء بعض المعارضة تجاههم إذ من شأنها مساعدته على تنفيس

صراعاته بإسقاطها على الخارج، ممّا اضطره إلى كبتها في لا وعيه. لكنّ كبت الصراع في اللاوعي لا يعني إزالته بل، على العكس، فهو يبقى ناشطاً، يتحيّن الفرص للظهور من جديد وهذا ما يؤدّي إلى إضعاف طاقته الإحتياطية.

في الواقع، بدا جزء كبير من هذه الطاقة دائم الإنشغال في ردّ هجمات النزوات الصراعية الناجمة عن كبت صراعاته ومضغها بدلاً من حلّها، مع العلم أنّه لو تمكّن من تنفيس ما يزعجه (وهنا يلعب وعي الأهل لذلك دوراً بغاية الأهميّة) إلى الخارج والإحساس بوجود أشخاص (من الأفضل أن يكونوا راشدين) يقاسمونه هذا الشعور بالإنزعاج لكان إستطاع تحرير طاقته الإحتياطية واستثمارها للقيام بنشاطات تطوّريه مثمرة وبنّاءة. لكن، وللأسف، خوف الطفل من أن يشكّل مشكلةً لأهله جعله فريسة صراع باطني لم يجرؤ على تنفيسه إلى الخارج؛ في الواقع، أظهر التحليل العيادي الذي قمنا به أن الطفل الذي يعيش مع أسرته يخاف، أكثر بكثير من زميله الموجود ضمن المؤسسة، أن يكون طفلاً ـ مشكلة وذلك نتيجة خوفه من خسارة حب والديه الضروري له كما الماء الذي يشربه والغذاء الذي يتناوله. وهكذا، يمكن القول إن وجود الأهل يشكّل عائقاً في طريق نموّ الطفل بدلاً من أن يكون عامل نضج يساعده على تجاوز مشاكله وحلّها؛ كما يمكن القول بأن هذه الحالة ترتبط، وبشكل وثيق، بموقف الإستسلام والإمتثال الدائم الذي يتطلّبه الأهل من الطفل لقاء رضاهم عنه بينما يمتلك الطفل، داخل المؤسسة، حرّيةً نسبيّة في هذا المجال وهو أساساً بعيد عن أسرته.

وفي الحقيقة، بدا خوف الطفل من أن يُعزَل من الأسرة ويُستبعَد عنها شعوراً لازم ذهنه خصوصاً أثناء الحرب حيث تزداد حاجته لها:

شعور بالإبعاد والعزل

		م . ض .				م . ت .			
		جنس		دين		جنس		دين	
		ص.	ب.	إ.	م.	ص.	ب.	إ.	م.
Sentiment d'exclusion	−	٢٨	٢٨	٣٥	٢١	٣١	٤٠	٤٠	٣١
ما قبل الحرب	+	١٦	—	٣	١٣	١٦	١٥	١٢	١٩
(RA)	− و +	٤٤	٢٨	٣٨	٣٤	٤٧	٥٥	٥٢	٥٠
	−	٤٢	٣٩	٤١	٤٠	٤٦	٤٥	٤٨	٤٣
	+	٢٨	٣١	٣٥	٢٤	١٧	٢٢	١٨	٢١
وضعيّة الحرب	− و +	٧٠	٧٠	٧٦	٦٤	٦٣	٦٧	٦٦	٦٤

جدول «رقم ٩»

إحساس الطفل بالإبعاد عن العائلة أو، على الأقل شعوره بالإستبعاد، شغل ذهنه خصوصاً أثناء الحرب حيث يشكّل الجو المفعم بالتهديد على الحياة وبالإبعاد عن مكان السكن الذي يعيش كل إنسان ضمن إطاره عاملاً يبرّر وجود مثل هذا الإحساس الطبيعي؛ يُضاف إلى ذلك خوف الطفل من فقدان أهله في غمرة الأحداث الدامية التي تتسارع أمام ناظريه، ممّا يـذكي بداخله شعوره بالحرمان خاصّة وأنّه لا يزال غير قادر على تدبّر أموره بنفسه فهو يحتاج إليهم حاجةً ماسّة.

نظرة سريعة على الجدول «رقم ٩» تكفي لإدراك مدى تأثّر المجموعـة الضابطة بوضعيّة الحرب بالمقارنة مع المجموعة التجريبية التي بدت مماثلة لذاتها قبل الحرب وخلالها: فالتأثير يبدو واضحاً وذا دلالة إحصائية مرتفعة جدّاً عند مجمل الأطفال.

عيادياً، يمكن ربط هذا الإحساس الذي يغمر نفس الطفل بتقويم الجو العام كما بدا من خلال تجربته المعاشة وتقويمه الخاصيّن به، إن من ناحية سرده

للقصص حيث كان يضع نفسه بعيداً عن الآخرين، خصوصاً عن الأهل، إذ لا مكان له إلى جانبهم، أو من ناحية رسمه لمختلف أفراد الأسرة حيث رسم نفسه بعيداً عن الآخرين وبمعزل عنهم أو من حيث وصفه الدقيق لحاجته الماسّة إلى والديه وطلب مساعدتهما لكنّهما وللأسف بديا منشغِلَين عنه بأمور أخرى. . .

بمعنى آخر نقول: لقد انطلقنا، عيادياً وفي ما يختص بتقويمنا لشعور الطفل بالإبعاد من قِبَل أهله، من مُعاشه الحيوي وكما وصفه هو نفسه عبر إختباراته الإسقاطية ومختلف المقابلات العياديّة التي أُجريت معه.

بالعودة إلى الجدول «رقم ٩» يمكننا إستخلاص ثابتة constante طالما لاحظناها وسنلاحظها في كتبنا اللاحقة، خصوصاً تلك التي ستتناول دراسة الأسرة وثنائي الزوجين؛ تكمن هذه الثابتة في ملاحظة مدى تأثير وضعيّة الحرب على نفس الطفل الذي يعيش إلى جانب أسرته أكثر منها على نفس من يعيش داخل المؤسسة. يؤكّد ذلك، مرةً أخرى، ضخامة المسؤولية الملقاة على عاتق الأهل الذين بدوا عامل إضطراب أكثر منهم عامل إطمئنان يثير إرتياح الطفل وشعوره بالأمان النفسي الداخلي، مع العلم بأن الأسرة تشكّل المكان الأمثل لنموّ الطفل وتطوّره.

على الأقل، هذا ما نستنتجه من مُعاش الطفل الحيوي للوضعية المفروضة عليه حيث يصف نفسه بغاية البؤس والتعاسة إذ «لا أحد يهتم به ويقدّم له يد المساعدة» عندما يكون بعيداً عن أسرته (على حدّ تعبير العديد من الأطفال)؛ لذا فهو يبدو مستعدّاً للإمتثال لأوامر الأهل والخضوع لهم وإن بشكل أعمى حتّى وإن تمّ ذلك على حساب رغباته وحاجاته الداخليّة الحميمة. فالمهم بالنسبة له يكمن في الحصول على حبّهم ورعايتهم؛ وهذا ما يفسّر، وبمقدار كبير، موقف الإتّكالية العام الذي لاحظناه عنده والذي أثّر، وإلى حدّ بعيد، على بنية شخصيّته المتكاملة، هذا من جهة

ومن جهة أخرى، يمكن القول أن موقفه هذا يشكّل أفضل برهان على حاجته الماسّة لوجود أهله إلى جانبه؛ كما يُظهِر ذلك كم يكون الطفل أرضاً

خصبه لغزو شتّى أنواع الإضطرابات عندما يفشل الأهل (أحَدَث ذلك نتيجة جهلهم لدورهم أم نتيجة عدم إدراكهم لمسؤوليّتهم) في القيام بالدور المتوجَّب عليهم تجاهه. وهذا ما يفسّر السبب الرئيسي الذي أدّى لإنهيار الصرح النفسي الذي بنته الطفولة، موضوع الإستقصاء الميداني، وقد بـدا في غايـة التشوّش والضباب إذ بدت هذه الطفولة محتارة، لا تعلم كيف تتّجه ولا كيف تتصرّف.

هذا وينبغي أن لا ننسى خضوع الأهل الأعمى للقواعد الإجتماعية ولما يقوله الآخرون الذي يعيشه الطفل بشكل مزدوج: خضوع للأهل وعبرهم إمتثال أعمى للقواعد الإجتماعية تم، غالباً، على حساب إستقلاليّته لا بل، في أحيان كثيرة، على حساب حرّيته الفردية ومصيره الشخصي

ففي غمرة هذا الجوّ المفعم بالسلبية، من الطبيعي أن يكون الطفل عرضة ليس فقط للإضطرابات التي ذكرناها بل، أيضاً، لإضطرابات أخرى كالنكوص والصد والإنهيار النفسي،... نتجت عن ضياعه وبالتالي عن لجوئه المتطرّف لأواليّات دفاعية طبيعية يلجأ إليها الفرد، عادةً، للدفاع عن نفسه وحمايتها من الأخطار التي تهدّدها (سواء من الداخل أم من الخارج). في الواقع، لاحظنا عند الطفل اللبناني إضـطرابات عميقـة سيطرت عـلى شخصيّته وهي تـرتبط بـأواليّات الـدفاع التي يلجـأ إليها كـل إنسان سـوي، أمّا سبب كـونها (أي الأواليّات) تحوّلت إلى عامل إضطراب لا عامل توازن فيكمن في سوء إستعمال الطفل لها وفي سيطرتها على شخصيّتـه. مُحدِثةً، بالتـالي، الإختلال في تـوازنه النفسي.



الفَصْل السَّابِع

تحوّل الأواليات الدفاعية، السوائيـة بشكل عـام، إلى إضطرابات عميقة

الإضطرابات التالية هي، في الحقيقة، عناصر بنائية تساعد الأنا في حماية نفسها ضدّ الأخطار (الداخلية والخارجية) المهدِّدة لها؛ لكن ضعف الأنا المميِّز لشخصيّة أطفالنا حوّل مسارّ هذه العناصر من الإتّجاه السوائي للمنحى المَرَضي. أحد هذه الإضطرابات يكمن في النكوص الذي يُعَد كإحدى أهم الأواليّات الدفاعية المبدئية التي يلجأ إليها الإنسان، الطفل خصوصاً، عنـدما تعـترض طريق تطوّره مشكلةٌ يصعب حلّها وتجاوزها

١) النكوص **La régression**

بدا النكوص كسمة تميِّز ليس فقط أطفال الحرب بـل وبشكل خـاص أطفال السلم.

		م . ض .				م . ت .			
		جنس		دين		جنس		دين	
		ص.	ب.	إ.	م.	ص.	ب.	إ.	م.
قبل الحرب	+	٣٦	٣٦	٤٢	٣٠	٣٦	٤٦	٣٥	٤٧
أثناء الحرب	+	٢٨	٢٩	٢٣	٣٤	٢٥	٣٢	٢٢	٣٥

«جدول رقم ١٠»

هنا، أيضاً، تبدو الأسرة مخيِّبة نوعاً ما لآمال الطفل الذي يميل إلى النكوص عندما يكون إلى جانبها بقدر ما يميل ذلك الموجود داخل المؤسسة (خصوصاً عند الطفل المسلم) مع العلم بأن العكس كان متوقّعاً نظراً لدور الأهل في إشباع مختلف الحاجات الطبيعية والضرورية لنموّ الطفل وتطوّره التي تعجز المؤسسة، إجمالاً، عن إشباعها مهما كانت طبيعة لا بل الصفات المتوفّرة في شخصيّة من يتولّى رعايته داخلها؛ هذا بالإضافة إلى كون الأسرة تشكّل الإطار الطبيعي والأكثر ملاءمة لتطوّر الطفل التدريجي عبر مختلف مراحل نموّه وبالتالي توفير الجوّ الملائم لعدم نكوص الطفل إلى مراحل سابقة من نموّه.

مهما يكن من أمر يبقى النكوص بصفة عامّة، خصوصاً كما ظهر عند أطفالنا، سمةً إضطرابيةً نظراً لسيطرتها على شخصيّتهم؛ والخطر الأكبر في ذلك يكمن في كونها تُعيد مجمل الشخصيّة إلى مرحلة سابقة، إلى الماضي الذي تميَّز نموّ الطفل، خلاله، بالسعادة وبانتفاء وجود أيّ مشكلة لديه. لكنّ الحياة تطوّر نحو الأمام وتقدّم مستمر بحيث يكتسب الفرد، تدريجيّاً، القدرة على إحتمال الحرمان وتجاوز المصاعب.

ومع ذلك فإن هذا التطوّر يتعرّض، خلال النموّ، لنكسات يمكن أن توقف سيره مؤقّتاً (بسبب التعب مثلاً) أو بشكل دائم: ففي الحالة الأولى ليس هناك أيّ خطر أمّا في الحالة الثانية فإن النكوص يمكن أن يستتب لفترة طويلة خاصّةً بوجود عوامل تعزّز وجوده فيؤثّر بشكل هام على إستعداد الفرد وقدرته على التأقلم. عندها يعود مبدأ اللذّة ليسيطر على النموّ ويسيّره: إذا كان الفرد سعيداً خلال فترة زمنيّة معيّنة من وجوده ثم تعرّض، فيما بعد، لنكسة كبرى ولحرمانات يصعب عليه تحمّلها فإنّه يعود، تلقائياً، إلى الوراء بحثاً عن حالة السعادة السابقة التي يأسف لفقدانها؛ إذا إكتفى بمجرد التحسّر فلا خطر في ذلك لأنّ التأسف يبقى، كما حدّده كورمان(1)، واعياً. لكنّ النكوص يشكّل حالةً لاواعية حيث يعود الإنسان بمجمله جسداً وروحاً إلى الوراء؛ من هنا الإنعكاس السلبي الهام الذي يحدثه النكوص في شخصيّة الفرد الذي تعود

(1) Corman (L), «le test PN» (Manuel), Tome I, Paris, PUF, 1966, P37 et 38.

طريقة تأقلمه العاطفي والفكري إلى نمط طفلي لا يتلاءم مطلقاً مع عمره الزمني.

تقول آنّا فرويد A. Freud في هذا المجال[1]: تبقى عودة الفرد إلى الوراء خيِّرة ومفيدة طالما بقيت عودته هذه مؤقّتة؛ لكنّها عندما تصبح دائمة وثابتة فإنّها تتحوّل، عندئذٍ، إلى عامل إضطراب لا عامل بناء في النموّ.

يمكن القول، إنطلاقاً ممّا سبق، إن النكوص دلالة على ضعف مقاومة الفرد تجاه الوضعيّات الصراعية المفروضة عليه، وبالتالي على إستمراريّة الصراع داخل هذا الفرد ودرجة الخطورة التي بلغها نموّه من جرّاء تأخّره كلما تقدّم عليه الزمن دون أن يترافق ذلك بتطوّر تدريجي يتلاءم مع عمره الزمني.

أمّا الخطر الأساسي الذي ينجم عن نكوص الفرد وعودته إلى الوراء فيكمن في تعزيزه قابليّة الطفل النفسيّة واللاواعية للوقوع فريسة سهلة لشتّى أنواع الإضطرابات النفسيّة الأخرى. في الواقع، لا يشكّل النكوص سوى حلقة من حلقات السلسلة الإضطرابيّة التي بدت عند هذا الطفل نذكر من بينها سمة الصد المسيطرة على شخصيّته:

٢) الصدّ L'inibition

		م . ض .				م . ت .			
		جنس		دين		جنس		دين	
		ص.	ب.	أ.	م.	ص.	ب.	أ.	م.
وضعيّة السلم	+	١٢	٨	٧	١٣	٢٢	٢٧	٣٠	١٩
وضعيّة الحرب	+	٢٢	٢٢	٢٠	٢٤	٢٢	٢٥	٣٢	١٥

جدول «رقم ١١»

يبدو تأثير الأهل الإيجابي، إذا جاز القول، واضحاً عند مختلف الجماعات

(1)Freud (A), «Le normal et le pathologique chez l'enfant», Gallimard, Paris, 1968, P84

التي تشكّل المجموعة الضابطة (م. ض. أي مجموعة الأطفال الذين يعيشون ضمن إطار الأسرة) بالمقارنة مع تلك التي تشكّل المجموعة التجريبية (م. ت أي مجموعة الأطفال الذين يعيشون داخل المؤسسة)؛ والفرق بينهما ذو دلالة إحصائية مرتفعة باستثناء جماعة الأطفال المسيحيين؛ لكن هذا التأثير الإيجابي بدا، وللأسف، هشّاً وسريع العطب إذ ما إن تعرّض الطفل للعوائق الناتجة عن الأحداث حتّى انعدم هذا التأثير. نظرة سريعة على الأرقام المتمثّلة في خانة وضعيّة الحرب تكفي لإدراك مدى تأثّر الطفل بها: فالإضطراب عنده وهو يعيش إلى جانب الأهل يبدو مماثلاً لذلك المُلاحَظ عند من يعيش داخل المؤسسة.

لقد انعكس تأثير أحداث الحرب سلباً على نفس الطفل وقد بدا ذلك واضحاً على مستوى مجمل السمات الإضطرابية من خلال الفروق ذات الدلالة الإحصائية المرتفعة والمرتفعة جدّاً بين وضعيّتي ما قبل الحرب والحرب؛ وهذا ما يدفعنا لتكرار حثّ الأهل لأن يكونوا على مستوى المسؤلية الملقاة على عاتقهم ولأن يقدّموا للطفل المقوّمات التي تساعده على النموّ بشكل طبيعي. أكثر من ذلك نقول: باستطاعة الأهل خفض الإنعكاسات السلبية التي تحدثها الحرب في نفس الطفل شرط أن يدركوا فعاليّة دورهم ووجودهم إلى جانبه.

بمعنى آخر نقول: يكفي إحداث بعض التعديل الإيجابي في سلوك الأهل حتّى يحصل عند الطفل أثر ثابت يمكّنه من مواجهة الصعاب والتغلّب على الإضطراب الناتج عن الحرب.

فضلاً عن ذلك، يُعَد الصد نتاجاً طبيعياً لكبت المشاعر والنشاطات غير المقبولة من قِبَل البيئة الإجتماعية لأن هذا الكبت الذي يحدث على مستوى الوعي يبقى ناشطاً على مستوى اللاوعي يتحيّن الفرص المناسبة للظهور من جديد؛ لذا يذهب جزء كبير من طاقته الحيويّة هدراً نظراً لتوظيفه في ردّ المكبوت إلى حالة اللاوعي. وعندما يطول الأمر، يترافق المكبوت بشعور مثقل بالصد تجاه نشاط الفرد؛ وكلّما طال أمر المكبوت أصبح الصد أكثر قوّةً وتأثيره أكثر سلبية.

تری آنّا فروید A. Freud في صدّ الإنفعال النزوي نوعاً من انكماش في الأنا المُعدَّة لتجنّب كل شعور غير سارّ يحدثه العالم الخارجي. كما يرى كورمان Corman بأن الوضعيّة الإسقاطية تثير، بشكل عام، حالةً من الصد عند الأطفال تعود إمّا لطابعها الثانوي المرافق للكبت إمّا للصراع العصابي الذي يعانون منه. يتترجم هذا الصد برفض قاطع، أو جزئي، للإجابة على الإختبارات رغم محاولات عالم النفس المتعدّدة للحؤول دون هذا النوع من ردّ الفعل. كما أنّه يتترجم، لدى قبول المفحوص ـ الطفل الإجابة على الإختبار: بطول زمن ردّة الفعل، باختصار سرده للقصص، باتخاذه مسافة كبيرة تفصله عن الأشخاص الآخرين أو بإيراده لبعض التفاصيل التافهة متجنّباً ذكر الهامّة منها. . .، كل هذه الحالات وغيرها برزت عند الأطفال موضوع أبحاثنا الميدانية.

أهميّة هذا الصدّ تكمن، أساساً، في تحضير الطفل سرّاً وعبر صمته الطويل للدفاع النفسي القادر على وقايته من ردّ هجمات المخاطر التي يتعرّض لها. والخطر الأكبر في هذا الصدّ يكمن في تحقيق الطفل له على حساب مشاعر يحق له التعبير عنها كحقّه، مثلاً، في إبداء بعض المعارضة تجاه محيطه (تجاه الأهل بشكل خاص) كي يتمكّن من تحقيق ذاته وتأكيد شخصيّته. هذا مع العلم أن مراحل نموّ الطفل تتميّز بأزمتين كبيرتين يسمّيها علماء النفس بـ «أزمات تأكيد الذات» حيث تشكّل كلمة «كلاّ» إجابة الطفل الدائمة تجاه الأوامر الملقاة عليه حتّى وإن نفّذ ما يؤمَر به.

ثم إن للطفل الحق في أن يختار بنفسه نوع النشاط المناسب له لملء أوقات فراغه؛ فهو يعرف أكثر من غيره ما يتلاءم مع ميوله الشخصيّة ويؤمّن له ما يبحث عنه من سرور ورضى، وهذا ما لا يمكن توفيره من قِبَل الآخرين كما لا يمكن أن يُفرَض عليه من الخارج. لكنّ طفلنا يجد نفسه، وللأسف، فريسةً دائمة للحيرة والتمزّق نتيجة فرض المحيط لموقف معيّن عليه فيصبح أمام خيارين أحلاهما مرّ: إمّا القيام بما يحسّه كحق مشروع له لكنّه سرعان ما يتبيّن بأن ثمن هذا الحل باهظ جدّاً إذ أنّه يتحقّق على حساب حقّ آخر مشروع

وضروري له يكمن في حاجته الماسّة لعاطفة محيطه (خصوصاً والديه) ودعمه له اللذين يُعتبر حرمانه منهما بمثابة موت معنـوي له، وإمّـا الإمتثال لأوامـر هذا المحيط ورغباته ممّا يعني حرمانه من بعض حقوقه الطبيعيّة. ومن بين خيارين كلاهما صعب يختار الطفل ما يبدو كضرورة ملحّة أي عاطفة الأهل ودعمهم له متخلّياً عن الحقوق الأخرى.

وهذه الحقوق الأخرى غير المُشبَعة لا تُلغى بل تُكبَت وبذلك تبقى ناشطة متحيّنةً الفرص المناسبة للظهور من جديد؛ كما أنّ الطفل يضطّر لتجديد هذا الكبت، بشكل دائم، وهكذا تتعقّد الأمور عنده فيصبح النزاع النفسي المتفاعل بداخله أكثر فأكثر خطورة والصدّ أكثر فأكثر انعكاساً سلبياً عنده.

وسلبيّة هذا الإنعكاس تتعزّز لأسباب متعدّدة يكمن أهمّها في غزو الإنهيار النفسي (الخَوَر) لنفسه المضطربة ممّا يجعلها أكثر ضعفاً وبالتالي أقلّ قدرة على متابعة الصراع المعتمل في داخلها.

وتكمن إحدى أهم الأواليات الدفاعية، التي تحوّلت إلى إضطراب نفسي بدلاً من أن تشكّل عامل بناء تكويني في شخصيّته، في الإنهيار النفسي الذي لفت إنتباهنا أثناء قيامنا بالتحليل العيادي:

٣) الإنهيار النفسي (الخَوَر) Dépression

		م . ض .				م . ت .			
		جنس		دين		جنس		دين	
		ص.	ب.	إ.	م.	ص.	ب.	إ.	م.
وضعيّة السلم	+	٨	١٢	١٢	٨	١٩	٢٨	١٧	٣٠
وضعيّة الحرب	+	٢٦	٢٧	٢٣	٣٠	٢٢	٢٩	٢٩	٢٢

جدول «رقم ١٢»

مرّةً أخرى نلمس نفس السياق التأويلي المشار إليه أعلاه: يـظهر عنـد أطفال ما قبل الحرب فرق ذو دلالة إحصائية مرتفعة بين المجموعتين: الضابطة

(م. ض) والتجريبية (م. ت)، بينما يبدو الخَوَر مماثلاً عند الأطفال الذين يعيشون إلى جانب الأهل وأولئك الذين يعيشون داخل المؤسسة على مستوى وضعيّة الحرب.

بمعنى آخر نقول: بدا تأثير الأهل الإيجابي واضحاً خلال السلم لكنّه بدا بغاية الهشاشة وعاجزاً عن مجابهة تأثير الحرب حيث تتعرّض شخصيّة الطفل لمواقف أكثر إثارةً للإضطراب والغموض، خاصّةً وأن حالة الإنهيار تتميّز بنوع من الكآبة وانعدام الفعاليّة والشعور بالدونية والخوف من الفشل القابل لأن يصبح إخفاقاً فعلياً.

بالإضافة إلى ذلك، يشكّل الخَوَر، غالباً، «نوعاً من ارتداد العدوانية نحو الذات يترجم عبر مخاوف خاصّة تقابل النزوات السادية ـ الفمّية. فالرغبة في عضّ أو في إبادة الخصم المنافس (الأخ مثلاً) تتحوّل إلى خوف من الموت أو من افتراس الآخرين له»[1].

ويرى برجيريه Bergeret[2] بأن «الطبع الإنهياري يُلاحَظ عند مجمل النرجسيين بدرجة تشتد أو تخف حدّةً بشكل يجد الفرد نفسه معها مرتبطاً بمرحلة ما قبل التناسلية المتميّزة بالتنظيمات النرجسية وينجم عن ذلك نوع من العودة إلى التجاذب في المشاعر الذي عرفه سابقاً يؤدّي لحدوث صراع بين ميول الحب والعداء لا غلبة فيه لأحد الميول على الأخرى».

هذا وقد أخذ كارل أبراهام (١٩٢٠) بعين الإعتبار إرتباط الميول الإنهارية بحالات التثبّت fixation التي تحدث عند الفرد خلال المرحلة الفميّه؛ فهو يرى بأن تجاذب المشاعر يتحدّد، إجمالاً، على مستوى الإثارة الفمّية.

أمّا علم نفس الأعماق فقد أشار إلى دور الأنا الأعلى في تتابع حالات الإنهيار عبر استتباب ضمير قاسٍ لا يرحم يكون، غالباً، مخالفاً للصواب وللتعقّل فيرهق الأنا تحت وطأة التأنيب والتهديد ممّا يحرم الفرد إحساسه

(1) Corman (L.), «ıe Test PN», op. cit., p106 et 250
(2) Bergeret (J.), «La personnalité normale et pathologique, les structures mentales, le caractère, les symptômes», Bordas, Paris, 1974, P214

بالعاطفة والإعتبار وهما حقّان مشروعان له. وهكذا تضاعف الأنا تأنيبها لنفسها تحت وطأة ثقل الأنا الأعلى، متّهمة ذاتها بشتّى أنواع الإساءة والتقصير ممّا يشيع بداخلها مختلف مشاعر الكآبة والحزن.

لتقويم سمة الإنهيار النفسي إنطلقنا، عيادياً، من العناصر التحليلية الآتية: إلغاء الذات، خفض الفرد قدر نفسه، تمنّيات يعبّر الفرد من خلالها عن رغبته في تحقيق التحسّن المعنوي، إعتبار الذات كونها الأكثر تعاسة والأقل لطفاً، . . .

تجدر الإشارة هنا إلى عودتنا الدائمة للأبحاث العلمية الغربية التي يضطرّنا إليها إفتقار المجتمع الشرقي عامّةً والمجتمع اللبناني خاصّة لأبحاث علمية في مجالي علم النفس العيادي وعلم النفس المَرَضي. لكنّنا، وكما أشرنا لذلك مراراً وتكراراً، نذكّر بأن اتّخاذنا لهذه المراجع الأجنبية تمّ عن وعي دائم لخصوصيّة مجتمعنا الثقافية؛ لذا نؤكّد بأن ما ورد عندنا من سمات نفس ـ عياديّة إستقينا مصدرها من إختصاصيّي مجال علم النفس العيادي الغربي ينطبق على أطفالنا نظراً لكوننا لم نعتمد، ممّا قاله هؤلاء، إلاّ على ما بدا قابلاً للتعميم على الطفل اللبناني. ينطبق هذا القول ليس فقط على سمة الخَوَر بل على جميع السمات الإضطرابية التي كشف عنها تحليلنا العيادي.

تعقيباً على ما سبق قوله حول الإنهيار النفسي نضيف دور الأنا العليا الصارمة وأهميّة تدخّلها في إخضاع الأنا للمفروضات الخارجية أملاً بالحصول على تسامح الرقابة الممثّلة بالوالدين في الدرجة الأولى، خاصّةً وأن معارضة الأنا لهذه المفروضات وثورتها عليها تشكّلان خطراً يتهدّد بعزلها من نعيم الحماية الوالدية؛ في الواقع بدا الطفل اللبناني يعاني من شعور عميق بالعزل من إطار الأسرة وإحساس بإبعاده عنها.

لكن، إلى جانب ذلك، هناك ملاحظة تفرض نفسها في ما يختص بالجدول «رقم ١٢»: صحيح أن سمة الإنهيار بدت مسيطرة لكنّ ذلك لا يسمح لنا بالإستخلاص لوجود حالة «مَرَضية بكل معنى الكلمة خصوصاً «وأنّ

مجمل العلماء يرون في الخَوَر ظاهرة نفس ـ إجتماعية متواترة الوجود لدرجة أن أي فرد، ولأي مجتمع إنتمى، يتعرّض لها خلال فترة معيّنة من تاريخ حياته.

إلى ذلك ينبغي إضافة واقع إختلاف معنى ودلالة الإنهيار باختلاف أعمار الفرد، وهذا ما يفسّر لجوء العلماء للعديد من المصطلحات المتنوّعة بهدف التعبير عنه مثل «المؤثّر الإنهياري»، «المرض الإنهياري»، «لحظات الإنهيار»، «نمط الإنهيار»، «المراحل الإنهيارية»، «سياقات الانهيار»، . . .

واقع آخر تجدر الإشارة إليه: لم يرتكز العلماء في تمييزهم بين مختلف هذه المصطلحات على دلالة الإنهيار (كونه حالة مَرَضيّة أو سوائية) فقط بل اعتمدوا أيضاً محكّات قاعدية تمكّنهم من فهم الحالة الخورية. نجد عند مختلف العلماء العاملين في المجال العيادي عدداً كبيراً من السمات الدالّة على هذه الحالة الإنهيارية وهذا ما يساعد في فهم «تزامن الأعراض» الخاصّة بها son syndrome كما وبالإحاطة بنمط ردّ الفعل الخَوَرى.

هذا وتتناول السمات مختلف أنواع التنظيم الخَوَري: الجسدية منها والنفسية والإجتماعية، سنكتفي بإعطاء لمحة سريعة حول ما بدا منها مشتركاً عند مختلف العلماء وقد عُدّت كمحكّات أساسيّة تسمح باستخلاص وجود الحالة الخَوَرية.

ـ أطفال يبدون بحالة من الحزن والتعاسة أو الإنهيار دون أن يشكوا، بالضرورة، من البؤس خلال هذه المرحلة بالذات أو أن يكونوا مدركين لحالتهم هذه

ـ أطفال يبدون إنطواءً على الذات وانعدام الإهتمام عندهم بالأشياء المحيطة بهم

ـ أطفال يوحوا بالإنطباع عند الآخرين بأنّهم يعانون من شعور بالنبذ ومن سرعة في التحوّل عن المواضيع المخيِّبة لآمالهم.

ـ أطفال يُبدون ميلاً عاماً نحو النكوص والعودة بشكل خاص إلى مرحلة السلبية ـ الفمّية المميِّزة لفترات نموّهم الأولى.

- أطفال يعجزون عن القيام باتّصال طبيعي مع الآخرين فيُبدون، من جرّاء ذلك، نوعاً من القلق والصد والشك بالذات وبالآخرين والعدوانية. . .
- أطفال يوجّهون إلى أنفسهم إنتقادات متطرّفة وتغمر نفسهم مشاعر العجز عن التأقلم ومشاعر الخوف المتطرّف تجاه الموت. . .
- أطفال يملكون عن أنفسهم صورة سلبية مترجرجة ويصفون أنفسهم بالغباء والبلاهة كما يخافون الإخفاق وظلم الآخرين لهم. . .، أو يُظهرون شعوراً عميقاً متجذّراً بداخلهم في أنهم سيّئون ويكون هذا الشعور مرفقاً، عادةً، بمشاعر المهانة والإنتقاد الذاتي. . .
- أطفال يمنعهم التلعثم عن طلب المساعدة والعون.

يرى بوزنانسكي Poznanski وزرول Zrull[1] أن السلوك الإنهياري يتأثّر، بشكل عام، بما يسمّى «علم الأمراض الأسريّة» الذي يؤثّر على الطفل تبعاً لثلاثة مستويات أساسية:

١) تماهي الطفل بوالدين مصابين بانهيار نفسي يشكّل، بحدّ ذاته، مصدراً أساسياً لإنهيار الطفل خاصّةً وأن الأهل يلجأون للإنهيار كوسيلة دفاعية معتادة أو ان الأطفال يعبّرون بطريقة خَوَريّة لدى عجزهم عن تنفيس توتّرهم عبر الألعاب العدوانية الإسقاطية مثلاً.
٢) عجز الطفل عن إدراك عدوانيّة الأهل الموجّهة ضدّه والمبطّنة بمظاهر الحب والحنان
٣) رفض الأهل للطفل بشكل ظاهر

وكل هذه الميول، من رفض وعدائية مبطّنة وتماهٍ خَوَري، ترتبط ببعضها بعضاً بشكل وثيق.

لكن إلى جانب الأصوات التي ترتفع محمِّلة الأهل مسؤوليّة نشوء الحالة الإنهيارية عند طفلهم هناك أصوات أخرى حاولت الدفاع عنهم. . .

(1) Poznanski (E), Zrull (J.P), «Chilhood depression, clinical characteristics of overtly depressed children», In: Arch. Gen. pdychiat., 1970, 23, P 8 - 15

ومهما تكن مواقف العلماء متناقضة تجاه مسؤوليّة الأهل في هذا المجال نقول: إذا كان من الصعب ربط إنهيار الطفل بإنهيار والديه بشكل جازم فإنّه من الصعب، أيضاً، نفي وجود الإرتباط بين الإثنين إذ للجوّ الأسري، بما يقدّمه من نماذج سلوكية وأدوار وصور كي يتماهى الطفل بها، دور هام في ترسيخ حالة الإنهيار بشخصيّة الطفل

ثم إن مسؤوليّة الأهل في إذكاء ميل الطفل نحو الإنهيار لا تتوقّف فقط عند هذا المجال بل تتعدّاه لتصيب مجمل الإضطرابات التي يُصاب بها الطفل.

ومع ذلك فإن تأكيد الحالة المَرَضية يبقى أمراً صعباً إذ ينبغي الأخذ بعين الإعتبار لعدد من العوامل مثل:

- وجود ظروف غير متلائمة يطول أمدها ويصعب على الطفل تجاوزها
- تميّز الفرد باستعداد بيولوجي يهيّئه للإصابة أو لا نظراً لإختلاف إستجابة الأفراد وردّة فعلهم تجاه الظروف غير الملائمة باختلاف قدرتهم، مثلاً، على تحمّل درجة معيّنة من الحرمان؛ فهناك من يمتلك طاقةً كبرى على تجاوز الوضعيّات الحرمانيّة (الخارجيّة والداخليّة) لا يمتلكها غيره من الأشخاص الآخرين...
- اختلاف ردّة الفعل ودرجة حدّتها باختلاف الأفراد
- مرحلة التطوّر التي يمرّ بها الفرد لدى تعرّضه للإصابة...

من جهتنا، نؤكّد على ارتباط ردّة الفعل الحَوَرية عند أطفالنا بمختلف السمات الاضطرابية الأخرى التي ظهرت عندهم والتي ارتبط حدوثها عندهم، وبمقدار كبير، بإخفاق الاهل في القيام بدورهم الى جانبهم. فلقد بدت مرتبطةً، باديء ذي بدء، باضطراب العلاقات القائمة بين الطفل ومحيطه (والديه بشكل خاص) ممّا أدّى إلى تكوين: أنماط علائقية نرجسية تختلف باختلاف نوع العلاقات الموضوعية التي كوّنها الطفل، - صراعات ناتجة عن تجاذب مشاعره العاطفية تجاه الأهل؛ - انخفاض قيمة الذات؛ - ضعف في الأنا؛ - صعوبة في تجاوز مختلف مراحل النمو وبشكل خاص المرحلة الاوديبية، ...

كما بدت، أيضاً، مرتبطة بالسمات الإضطرابية الأخرى كالنكوص والقصور العاطفي والصد والشعور بالذنب والإحساس بالعزل والإبعاد والميول الفُصامية والإنطواء على الذات وانعدام الشعور بالأمان... التي من شأنها تعزيز شعور الطفل بالخيبة لدى إصابته بالإنهيار وقد انعكس كل ذلك سلباً على صورة الذات المتكاملة فأدّى عنده إلى نوع من كره الذات.

بالتالي، كسبب ومسبّب لضعف الأنا عند الطفل اللبناني، تجدر الإشارة لإنخفاض طاقة العدوانية الكامنة عنده رغم تعرّضه لشتّى مظاهر العنف والعدائية:

٤) العدوانية l'agressivité

		م . ض .				م . ت .			
		جنس		دين		جنس		دين	
		ص.	ب.	أ.	م.	ص.	ب.	أ.	م.
	-	٦٤	٥٢	٧٤	٤٢	١٨	٣٧	٣٣	٢٢
	+	٢٤	٢٤	١٥	٣٣	٥٠	٣٢	٤٠	٤٢
(RA)وضعيّة السلم	- و +	٨٨	٧٦	٨٩	٧٥	٦٨	٦٩	٧٣	٦٤
	-	١٧	١٨	١٥	٢٠	٢٠	١٩	٢١	١٨
	+	١١	٣	٤	١٠	٦	٢	٥	٣
(RN)وضعيّة الحرب	- و +	٢٨	٢١	١٩	٣٠	٢٦	٢١	٢٦	٢١

جدول «رقم ١٣»

تبدو قدرة طفل ما قبل الحرب على التعبير عن عدوانيّته تجاه من يخيّب آماله من أشخاص أو أشياء مرتفعة جدّاً بالمقارنة مع تلك التي يمتلكها طفل الحرب، والفرق بين الإثنين ذو دلالة إحصائية مرتفعة جدّاً جدّاً على مستوى

كافة المجموعات التي ينتمي إليها الأطفال، خصوصاً على مستوى سيطرة السمة «+» على شخصيّة الطفل[1]

بدا الحديث عن العدوانية في مجال الطفولة، وخلال فترة زمنيّة طويلة جدّاً، بغاية الغرابة نظراً لإعتبار الطفل كائناً بريئاً وطاهراً؛ لكنّنا نعلم اليوم أن هناك نزوات عدوانيّة تظهر عند الطفل منذ نعومة أظفاره ثم تتطوّر تدريجيّاً كلّما تقدّمت به السن. هذا وقد كشف التحليل النفسي عن أهميّة هذه العدوانيّة في النموّ فعبّر عنها بتعابير متنوّعة مثل: «نزوات عدوانيّة»، «نزعة إلى الهدم»، «نزعة إلى الموت».

أكثر من ذلك نقول: تُقبل اليوم فكرة شموليّة العدوانيّة وفكرة وجود تنظيم بيولوجي معيّن يُحدِث تطوّره ردّات فعل عدوانية معيّنة تنجم، أساساً، عن تحوّلات بيو- كيميائية أو هورمونية يوجّهها المجتمع. كما أنّنا نعلم أيضاً، وعلى المستوى الفردي، أنه من الممكن أن تصبح العدوانيّة مثمرة وأن تكون متسامية

لكنّ القول بوجود غريزة عدوانيّة عند الكائن البشري لا يزال حتّى اليوم مجالاً للشك والمناقشة: فبينما يرى بعض العلماء في العدوانية نتاجاً لاختلال تنظيم النزوات المرتبطة بعوامل داخلية وخارجية متعدّدة ولنقص في التحوّلات الثقافية وفي قدرة الفرد على الضبط، يرى البعض الآخر بأنّها، على العكس، فطريّة وتكوينيّة نظراً لكونها تلازم كل كائن حي (من حيوان وإنسان)، تولد معه وهي وراثية وتندمج مع خصائصه التكوينية[2]

على كل حال تُقبَل اليوم، بشكل عام، فكرة العدوانية المرافقة لأولى

---

(١) نذكّر القارىء الكريم إلى أن الإشارة (-) تعني بأن السمة ظهرت بشكل متوسّط من حيث تواتر وجودها داخل نفس الرائز وعبر مختلف الروائز tests؛ بينما تدلّ الإشارة (+) على سيطرة هذه السمة بشكل لا يقبل الجدل. من هنا يُفهَم هاجسنا الموضوعي والعلمي في ما يختّص بفصل هذين المستويين.

(2) Merloo (J.A.M), «La violence humaine opposée à l'agressivité humaine», Méd. et Hugg., 1968, 821, P457 - 462

علاقات الطفل مع محيطه (مع والديه بشكل خاص)؛ فكما يقول أجورياغيرا[1]: «لا بدّ للطفل من تحمّل بعض الحرمانات كي ينمو بشكل طبيعي». وهو، فضلاً عن ذلك، ينتقل خلال نموّه من العدوانية الناشطة إلى العدوانية المكبوتة؛ من هنا إعتبار الحب والكره كعناصر تكوينية لا ككيانات متناقضة، لها نفس الركيزة النفسية الكامنة في الرغبة والإشباع. بفضل التربية يتعلّم الطفل تأجيل الإشباع ويعتاد العطاء للأخذ».

والعدوانيّة طاقة حيويّة تؤدّي إذا قُمِعت، كما هي الحال غالباً في مجتمعاتنا الشرقية، لإحداث حالٍ من السلبيّة والقصور: وهذا ما يقدّم تفسيراً إضافياً لظاهرة السلبية والقصور الذاتي المُلاحَظ عند أطفالنا وعلى وجه الخصوص عند الصبيان. لكنّها، في حالات معيّنة أخرى، تبقى أواليّة دفاعية «عدوانية - إشباع»، مغلقة على ذاتها دون أي تأثيرات تكوينية.

هناك، إذن، في سير نموّ الطفل النفس - فيزيولوجي أشكال مختلفة من ردّات الفعل العدوانية المباشرة إلى جانب ردّات فعل عدوانية يتعلّم الطفل، إجتماعياً، على تنويعها وتأجيلها؛ يُفهَم من كل ذلك أهميّة العدوانية في نموّ الطفل وتطوّره.

نفهم، إنطلاقاً ممّا سبق قوله، درجة الخطورة الكامنة وراء إنخفاض (لا بل إنعدام) طاقة العدوانية الملاحَظ عند أطفال الحرب؛ وما يزيد هذه الخطورة تفاقماً يكمن في كون هؤلاء الأطفال يعيشون ضمن إطار وضعيّة وطنية مثيرة للشعور بعدم الأمان والطمأنينة عندهم تتطلّب كونهم، أكثر من أي وقت آخر، مسلّحين بطاقة مرتفعة من العدوانية كي يتمكّنوا من المحافظة على ذاتهم وحماية أنفسهم تجاه الأخطار (الخارجية والداخلية) التي تجابههم والتي عليهم تجاوزها حتّى يستمرّوا في طريق النموّ والتطوّر.

وإلى جانب العدوانية بشكلها المعتاد هناك شكل آخر منها هو «العدوانية الموجّهة ضد الذات» l'auto - agressivité التي عدّها معظم علماء النفس مَرَضية

(1) Ajuriaguerra, op. cit., p 471

بكل معنى الكلمة. توجد هذه العدوانية، إجمالاً، ضمن إطار النموّ السوي مرسَّخةً ضمن إطار مجموع العناصر التكوينيّة الحركيّة التي دُرست تحت عنوان «عادات وتفريغات حركية». . . هذا ويعتبر آجورياغورا[1] هذا النوع من العدوانية كردّة فعل أو كنشاط إستكشافي وحاجة للإحساس مقابلة لتوجّه وتنظيم صورة الجسد؛ وهو يأخذ شكله الواضح مع تطوّر الطفل نظراً لكونه يشكّل ركيزة أساسيّة لتشكيل أواليّات دفاعية أخرى لكنّه، في حالات أخرى، يبقى ذا طابع مَرَضي ظاهر عند الفرد خصوصاً عندما يصبح مصدر سلوك تكراري منمّط يُفقد الفرد طابع الأصالة الشخصية مع العلم بأن الطفل الذي يثير الألم عند الآخرين أو يتلقّاه يمكن أن يحصل، من جرّاء ذلك، على إشباعات معيّنة لميوله ونزعاته وحاجاته.

يمكن القول إذن على ضوء الوصف المعطى للعدوانية بمختلف أشكالها، أن إنخفاض درجتها أو إرتفاعها يرتبطان، نوعاً وكمّاً، بالدور العاطفي الأسري إذ بمقدار ما يتفهّم الوالدان حاجات الطفل الطبيعية فيشجّعانه، بالتالي، على إبداء بعض المعارضة تجاهها يتمكّن من تنفيس كميّة العدوانية التي تتآكل نفسه تجاه محيطه فيتحرّر، عندئذٍ، من شكل العدوانية السلبي المكبوت نتيجة رفض المحيط (الأهل بشكل خاص) السماح له بإخراجه والتنفيس عنه.

وبتفريغه لهذا الشكل السلبي لا يبقى عند الطفل سوى شكل العدوانية الإيجابي وهو يشكّل، بحدّ ذاته، عنصر تطوّر تكويني وإيجابي في شخصيّته. لكن، للأسف وكما أشرنا مراراً وتكراراً لدى مناقشتنا لإضطرابات الطفل ودور الأهل بإذكاء نارها، لا يسمح الأهل عندنا، إلاّ في حالات نادرة، بأن يبدي الطفل معارضته تجاههم ويعبّر عن عدوانيّته الناتجة عن خيبة أمله بهم بل على العكس من ذلك، فإنّهم يفرضون عليه موقف الإمتثال والخضوع الأعمى لأوامرهم والإتّكال المتطرّف عليهم. يشكّل ذلك، في الحقيقة، سبباً من الأسباب الجوهريّة التي تفسّر نقص العدوانية عند أطفال الحرب.

---

(1) Ajuriaguerra, op. cit., p473

وما يزيد نقص العدوانية عندهم خطورة يكمن في إرتباط ذلك بالشعور بالذنب الذي عانوا منه كردّة فعل طبيعية تجاه الميول والحاجات الطبيعيّة إنّما غير المقبولة إجتماعياً وبالتالي غير المسموح لهم بالتعبير عنها:

٥) مشاعر الذنب Sentiments de culpabilité

		م . ض .				م . ت .			
		جنس		دين		جنس		دين	
		ص.	ب.	إ.	م.	ص.	ب.	إ.	م.
وضعيّة السلم	+	—	—	—	—	١٠	١٣	١٢	١١
وضعيّة الحرب	+	٢٩	١٧	٢٢	٢٤	٢٨	٢١	٣٠	١٩

جدول «رقم ١٤»

مرّةً أخرى يبدو تأثير الأهل الإيجابي واضحاً خلال السلم: فالفرق بين المجموعة الضابطة التي تضم فئات الأطفال الذين يعيشون مع الأهل وبين المجموعة التجريبية التي تضم فئات الأطفال الموجودين داخل المؤسسة ذو دلالة إحصائية مرتفعة جدّاً؛ لكن هذا التأثير بدا منعدماً عند أطفال الحرب: مرّة أخرى نجد نفس الثابتة constante التي تفرض نفسها وهي تكمن في عدم كفاية أو، على الأقل، هشاشة الدور الذي يقوم به الأهل إلى جانب الطفل الذي ما إن يتعرّض لوضعيّة صعبة كتلك التي تفرضها الحرب حتّى يصبح فريسة سهلة لغزو الإضطراب النفسي وحتّى يتأثر كيانه بأكمله ممّا يمنعه من إجتياز مختلف مراحل نموّه بشكل طبيعي. وهذا ما يفسّر، أكثر فأكثر، ذلك التداخل المُلاحَظ عند الطفل على مستوى مراحل تطوّره مشكّلاً بذلك عائقاً يحول دون تكوينه النفسي التدريجي ليصبح راشداً يستطيع أخذ مصيره بيده وضبط مختلف نزعاته اللاعقلانية والنزوية.

وهذا ما يفسّر خوفنا من أن يصبح إنسان الغد في لبنان فريسةً سائغة لغزو «القوى النزويّة المسيِّرة لوجوده منذ الولادة حتّى الموت مروراً بمختلف

المنعطفات التاريخية التي تحصل على مستوى بناء الأنا عنده حيث تخدع إحتمالات المصادفة إحتمالات اليقين وحيث تُفسِد نزعة الموت مشاريع نزعة الحب والحياة» حسب تعبير د. شمعون.[1]

وهكذا تتزايد عند هذا الطفل إحتمالات التهديد لكيانه وإحداث التجاذب عنده بين الشك واليقين، بين ما هو فطري وما هو مكتسب مهدّدةً، بذلك وفي أيّة لحظة من وجوده، ذلك الصرح الشخصي الذي بناه ودافع عنه.

يضاف إلى ذلك واقع القلق الذي يعيش الطفل ضمن إطاره مشكّلاً عنده مصدر إنفعالات وإحساسات مثيرة للإضطراب. وهذه الإنفعالات تتسبّب بتعزيز الإضطراب نظراً لتأثيرها على قطاعي الوعي واللاوعي، المعبَّر والمعبَّر عنه، الدائمي التجدّد بسبب الصراع القائم بين القوى النفسية التي تتجاذبه من قطب إلى آخر: من قطب الثورة على كل ما يزعجه إلى قطب الخضوع المطلق للأوامر والتعليمات بهدف المحافظة على حب محيطه ورعايته له

من شأن هذاالتجاذب إحداث شعور بالضياع عند الطفل فيفقد معه معنى الخير والشر والقدرة على التمييز بين ما هو حقّ له وما لا يحقّ له. وكل ذلك يدفعه، إنّما بشكل لاواعٍ، لتجريم ميوله نظراً لكونها غير متلائمة مع مفروضات المحيط الخارجي. وهكذا يقع فريسة فخّ نفسي لا يتمكّن معه سوى بالدوران حول نفسه وضمن دائرة مقفلة تؤدّي به، غالباً، إلى طريق مسدود يصعب عليه إجتيازها.

للأنا الأعلى في تكوين مشاعر الذنب دور رئيسي: فهي تشكّل جزءاً لا يتجزّأ من الفرد يتكوّن، بشكلٍ لاواعٍ، عن طريق إدخال الطفل للمثل العليا والممنوعات الأسريّة فتحاسبه وتوجّه إنتقاده لنفسه لا بل عقابه لذاته على كل ما تقوم به من نشاطات ممنوعة وعلى ما يحس به من مشاعر غير مقبولة حتّى وإن كان الأهل غير موجودين معه.

أكثر من ذلك نقول: توجّه الأنا الواعية نحو كبت النزوات التي تستلزم

(1) Chamoun (M), «Les superstitions au Liban», Ed. Dar el machreq, Beyrouth, 1973, p209

اللوم على مختلف الميول النزوية غير القابلة للإشباع، معزّزة عندها تكوين ردّات الفعل formations réactionnelles وانعكاس الميول... وهذا ما يساهم في تعميق الشعور بالذنب المرتبط بتجارب الطفل الصدامية المؤلمة والمثيرة للقلق خاصّةً وأن الدافع الأساسي لها يكون قد كُبت في اللاواعي وبات مجهولاً إذ لا يبقى في الوعي سوى إحساس غامض بالحزن والقلق. من شأن مثل هذا الإستعداد اللاواعي تهيئة الفرد، مسبقاً، لغزو مشاعر الذنب[1]

تجدر الإشارة في هذا المضمار إلى تواتر وجود حالات من التماهي بالأهل بمعنى تماهي الطفل بهم كسلطة قادرة على إحداث العقاب identification au puissant لتعويض الشعور بالمسؤولية الذي يعتريه تجاه ما يرتكبه من حماقات لا بدّ أن يُعاقَب عليها. وهذا التماهي يشكّل مرحلة بدائية تهيّء الطفل لتكوين الأنا الأعلى؛ في الواقع، تسبق عملية التماهي عمليّة الإجتياف الكامنة في إدخال صفات وتصرّفات الأهل فيكفي، بعد ذلك، قيام الطفل بخطوة أخرى كي يستبطن السلطة الوالدية فيصبح، عندها، قاضي نفسه بحيث لا يعود بحاجة لوجود الوالدين وتهديدهم له ليدرك الحماقات التي يرتكبها لأن صوت ضميره هو الذي ينبئه بذلك والعقاب يصبح، عندئذٍ، ذاتيًا ومرفقاً بشعور بالذنب.

ثم إن تكوين الأنا الأعلى يعني، بحدّ ذاته، تجاوز الطفل للمرحلة الأوديبية شرط أن لا تكون الأنا التي تشكّلت صارمةً ومتصلّبة كما هو الحال في مجتمعاتنا الشرقية. في الواقع، أبدى الطفل، موضوع أبحاثنا الميدانية، هاجساً دائماً يحثّه لإرضاء الأهل والإستجابة لتوقّعاتهم التي لا تشكّل، في الحقيقة، سوى توقّعات المجتمع الأكبر الذي ينتمي إليه؛ كما ظهر عنده إشارات متعدّدة تدلّ على معاناته من مشاعر عميقة بالذنب مثل: الحكم على نفسه كونه الأقل لطفاً وسعادة لأنّه لا يطيع أهله ويرضيهم، التماهي بالأهل للإعتبار الذي يحضهم المجتمع به، التمنّي اللاواعي بالحصول على العقاب الملائم للحماقات التي إرتكبها بحق الأهل، ...

(1) Corman (L), «Le test PN» (Manuel), op. cit., p162

وكل ذلك يشكّل، كما يقول ميتسشرليش[١]، حالة مجابهة وصراع بين متطلّباته النزوية الداخلية وبين المفروضات الخارجية، مجابهة تُحدِث بداخل الطفل قلق الذنب. في الواقع، يرى ميتسشرليش أن الهدف النزوي يكمن في الإشباع المؤدّي إلى حالة من الإرتياح؛ لكنّ البنية البيولوجية النزويّة التي تميل لتسريع عمليّة خفض التوتّر تدخل بمنافسة كبيرة مع نشاطات الأنا ومفروضات الأنا الأعلى بحيث تصبح الأخيرة منافِسة لـلأولى. وهذان النشـاطان يميلان للإرتياح لكنّهما يتناقضان مع واقع تنظيم الفرد للأحداث النزويّة التي يعيشها؛ وهذا ما يشكّل، بمقدار كبير، الأنا الناقدة القوية التي تجعل تأقلم الفـرد مع محيطه الإجتماعي ممكناً لا بل ضرورياً.

على كل حال، يتوضّح واقع إنخفاض درجة القلق مقابل إرتفاع درجة التأهيل الإجتماعي socialisation بمقدار كبير، عبر واقع إنتقال الطفل من حالة الإستسلام والتقبّل السلبي للعلاقات المفروضة عليـه إلى حالـة تفهّم المحيط لنزواته وضرورة مساعدته لإدراك المفروضات الإجتماعيـة بحيث تصبح الأنـا الأعلى المكوَّنة عنده (أي عند الطفل) سلسة واحترامه للقواعد الإجتماعية شيئاً مألوفاً ينبع من داخله بدلاً من أن يُفرَض عليه من الخارج.

لكنّ تحليلنا لواقع الأسرة الإجتماعي أظهـر بأن الـطفل الشرقي عـامّةً واللبناني خاصّةً يخضع لمفروضات إجتماعية يتعذّر عليه فهمها وإدراكها لا لشيء سوى لإرضاء أهله حتى لا يفقد حبّهم وحمايتهم الضروريين له، خصوصاً أثناء الحرب. هذا وقد كشف تحليل الواقع الأسري أن هـذا الطفـل يعيش تحت ضغط القاعدة الإجتماعية[٢] التي لا يستطيع الفرار منها.

يُفهَم من كل ما سبق قوله إرتباط الشعور بالذنب بالكآبة التي تغمر نفس الطفل والتي أبرزها التحليل النفسي الذي قمنا به؛ صحيح أن الشعور بالكآبة لم يبدُ مسيطراً على شخصيّته إذ أنّه لم يتجاوز الـ١٤٪ على مستوى الإشارة (+) لكنّه، مع ذلك، بدا بغاية التأثير السلبي:

---

(1) Mitscherlich (A), «Vers la société sans père», op. cit, p98 et 100

(٢) سنعالج هذا الموضوع ضمن إطار الكتاب التالي الذي سيتناول الأسرة.

٦) الكآبة L'anxiéte

	م . ض .				م . ت .			
	جنس		دين		جنس		دين	
	ص.	ب.	أ.	م.	ص.	ب.	أ.	م.
-	٣٥	٤٨	٤٨	٣٥	٢٧	٣٥	٣١	٣١
+	١٤	٨	١١	١١	٦	٦	٨	٤
وضعيّة الحرب - و +	٤٩	٥٦	٥٩	٤٦	٣٣	٤١	٣٩	٣٥

جدول «رقم ١٥»

تأثير الأهل في أذكاء روح الكآبة عند الطفل يبدو واضحاً إذ بدا وجودهم إلى جانبه عاجزاً عن تأمين الإحساس بالأمان والحماية الضروريين له كي يتمكّن من تجاوز الشعور بالكآبة الذي يغمر نفسه ويهدّد بغزو كيانه بأكمله؛ وقد بدا هذا الإحساس عند من يعيش مع الأسرة أكثر عمقاً وارتفاعاً منه عند من يعيش داخل المؤسسة، فالفرق بين الإثنين ذو دلالة إحصائية مرتفعة يزيدها دلالةً ومعنى كون العكس هو ما كنّا نتوقّعه أي أن نجد الأول أكثر إحساساً بالأمان والإرتياح من الثاني لأن الإطار الأسري يشكّل الشرط الضروري وغالباً الكافي لتوفير طمأنينة الطفل النفسية وبالتالي، لخفض شعور الكآبة الذي يغمر نفسه حين يكون بعيداً عنها

هذا ومن المعروف أن الحياة الإنفعالية تتّخذ أشكالاً متنوّعة تنطلق، أساساً، من الشكل الحركي المتمثّل بالإنتفاضة sursaut وصولاً إلى ردّات الفعل الضاغطة، المثيرة للتوتّر والناجمة، عند الفرد، عن عدم إشباعه لهواماته وحاجاته. أمّا سبب الإثارة فيكون خارجيّاً بمقدار ما يكون داخليّاً ويمكن أن يحدث كل آن فكيف إذا تعرّض هذا الفرد لوضعيّة تثير بحدّ ذاتها مختلف أنواع مشاعر التهديد كتلك التي تخلقها الحرب؟

فضلاً عن ذلك، ينبغي ألاّ ننسى بأن القلق يلازم الوجود البشري ويتميّز

كونه ذلك الإحساس بالخطر الوشيك الوقوع، المرفق بحالة من الترقّب والمؤدّي لحدوث بلبلة نفسية داخل الفرد تغزو أعمق أعماق شخصه خاصّةً وأنه يصعب عليه تقاسمها مع الآخرين أو نقلها إليهم.

وكما يقول بوتونييه[1]: يعاني الطفل الذي لا يميّز بعد بين الواقع واللاواقع والذي لا يسمح له ضعف خبراته الشخصيّة من الدفاع عن نفسه بمفرده من أشكال متنوّعة من الخوف المجاور للقلق إذ لا معنى للخطر، بالنسبة للجهاز العضوي، إلاّ إذا تعرّضت وحدته المتكاملة لتحوّلات من شأنها إحداث الخلل فيه.

لكن، وكما أشرنا مراراً وتكراراً، يبدو الطفل اللبناني أقرب إلى اللاواقع منه إلى الواقع؛ فالأهل يعيشون بدلاً عنه الخبرات الحياتية والحيوية التي عليه أن يتعلّم كيفيّة تجاوزها، بتوجيه منهم وبمساعدتهم كي تغتني شخصيّته وتتبلور قدراته. هذا ما يفسّر، بمقدار كبير، ضعف الأنا عنده، وعجزه عن حماية نفسه بشكل يتلاءم مع عمره الزمني، واتّكاله المفرط على محيطه (على والديه بشكل خاص)؛ والأهم من كل ذلك، إحساسه العميق بالخوف المهدِّد لوحدة كيانه.

نتوقّف هنا، قليلاً، عند آراء علماء النفس المختلفة حول موضوع «ردّات الفعل الإنفعالية» الناشئة عند الطفل إثر قيامه بأولى العلاقات التي تربطه بمحيطه: منهم من يرى بأن ردّات الفعل هذه تبقى هشّة بينما يرى فيها آخرون عامل بناء تكويني يمكن أن يؤدّي ومنذ الأشهر الأولى من حياة الطفل دوراً هاماً جدّاً في إحداث شعور الفرد بالكآبة المبكرة التكوين ذات الدور الرئيسي والحاسم في نشوء الصراعات العصابية التي تتشكّل عنده فيما بعد.

هذا ويرى أنتوني بأن لنشأة القلق ثلاث مصادر هي: العدوى، الصدمة والصراع[2].

بالنسبة للعدوى يمكن القول إن إنتقال الكآبة يرتبط بعوامل متعدّدة مثل: عمر الطفل، درجة اتّكاليته، تماهيه بأحد الوالدين المتميِّز بالقلق، . . .

(1) Boutonnier (J.), «l‘angoisse», PUF, Paris, 1945
(2) Antonny (E.J.), cité par Ajuriaguerra, op. cit., p694 - 695

وفي ما يختص بقلق الصدمة فإنّه يرتبط، بمقدار كبير، بدرجة ومعنى وحدّة الصراع الذي يعاني منه الفرد

أمّا قلق الصراع فإنّ حلّه من قِبَل الفرد يرتبط بعوامل أكثر تعقيداً نخص بالذكر منها تراكم الإضطرابات الناشئة خلال سير النموّ النفسي ـ الجنسي حيث للأنا، ذات الوظائفية المتناغمة، دور هام في توجيهها بالإتّجاه الصحيح.

لكنّ هذه المصادر الثلاثة ليست الوحيدة التي من شأنها إحداث القلق بل هناك مصادر أخرى متعدّدة ذكرها العديدون من علماء النفس والمحلّلين النفسيّين ك: تحوّل النزوات الليبيديّة المكبوتة بشكل آلي إلى مصدر للقلق (س. فرويد)، النزوات التدميريّة (كلاين klein)، الاستثارة الصُدغيّة temporale(بانفيلد وجاسبر Penfild et Jasper)، إنفصال الطفل بيولوجيّاً عن والدته، العلاقة الموضوعيّة الأساسية، الخصاء والشعور بالذنب (آ. فرويد).

إنّما تجدر الإشارة هنا إلى إقتصار العلماء في تحديد الكآبة على المظاهر الخارجية وأفضل إشارة إلى ذلك نجدها في ملاحظة أجورياغيرا التالية: «إذا كان بالإمكان التعبير، أحياناً، عن الكآبة بصيغة معيّنة فإنّها غالباً ما تكون متجذّرة بالذهن دون إمكانية التعبير عنها جسدياً أو لفظيّاً. بمعنى آخر نقول: لا تشكّل الأعراض الحركية والعصبية ـ النباتية سوى المظهر الكلاسيكي ومجرّد خلفيّة تختفي الكآبة وراءها بحيث لا تظهر سوى مقنّعة تحت شكل «الصدّ»، مثلاً، فيصعب الكشف عنها بشكل مباشر وواضح.

كما تجدر الإشارة أيضاً إلى أنّ أخطر أنواع الكآبة يكمن في ذلك الشعور العميق بالحزن الذي ينفي صاحبه وجوده خاصّةً وأن قبوله، وبالتالي إستعماله وضبطه، يخفّف من سلبيّة انعكاساته إنّما يبقى الإعتراف به متعذّراً نظراً للتحريم المضروب عليه من قبل المجتمع.

وبالعودة إلى نقطة الإنطلاق أي إلى الكآبة التي ظهرت عند أطفالنا يمكن القول إن معظم هذه المصادر أو، على الأقل، بعضها قد شكّل المنطلق الذي

مكّننا من تحديد وجود الكآبة عندهم من هنا كان تمييزنا بين إشارة «+» الدالّة بحد ذاتها على أن الكآبة بمجمل مظاهرها بدت عند الطفل، وإشارة «-» التي تعني بأن مظاهر الكآبة بدت أقل تنوّعاً وتواتراً.

هذا وينبغي التذكير بواقع وجود الطفل، أساساً، ضمن إطار وضعيّة حرب مثيرة بحدّ ذاتها للكآبة والقلق ومن شأنها إثارة رفض الطفل لها وبالتالي المساهمة فيها؛ كما أنّه من الممكن أن لا يكون هذا الرفض على علاقة بالمشكلات الحقيقية التي يعاني منها بل مجرّد حذر تجاه وضعيّة بدت له غامضة أصلاً. لهذه الأسباب وغيرها لم نكن نشير لوجود سمة الكآبة إلاّ إذا تواتر وجودها وتعدّدت مظاهرها (داخل نفس الرائز وعبر مختلف الروائز الإسقاطية) عند الأطفال. ينطبق هذا القول ليس فقط على هذه السمة بل على مختلف السمات الإضطرابية التي كشف عنها تحليلنا النفسي المعمّق، أي أنّنا إنطلقنا دائماً من مبدأ إلتقاء السمات داخل وعبر مختلف الروائز convergence d'indices in-tra et inter- tests لأن هاجسنا الدائم كان ينطوي على تأمين أكبر قدر من الموضوعية العلمية خاصّةً وأن ظهور السمة عند فرد معيّن يمكن أن يكون عَرَضياً أو نتيجة خطأ إرتُكب إن على مستوى تطبيق الروائز أم على مستوى التحليل العيادي أم على مستوى المقابلة العياديّة...، لكن تعدّد مظاهرها وتواتر وجودها ينفي، عندئذٍ، إحتمالات المصادفة أو الأخطاء المعياريّة ويؤكّد، بالتالي، تميّز الفرد بها.

وفضلاً عن كل ذلك، لقد ذكرنا الكآبة لدى مناقشة شتّى الإضطرابات السابق ذكرها مثل: الإضطراب الأوديبي، الإنهيار، الشعور بالعزل،... إنّها، في الحقيقة، لمرتبطة وبشكل وثيق بالقلق المرافق لهذه الإضطرابات ولقد أذكت بداخل الطفل شعوره العميق بالكآبة التي عبّر عنها بأشكال مختلفة: تماهي بـ «لا أحد»، خوف من البقاء وحيداً، طلب النجدة دون إستجابة المحيط لهذا الطلب، ... وبدت العناصر العياديّة الدالّة على وجود الكآبة عند الطفل عديدة ومتنوّعة، لذا لا سبيل لذكرها كلّها.

من هنا موافقتنا على ما قاله كورمان: حين تتراكم مصادر الكآبة على

«أنا» ضعيفة وعاجزة عن إستيعابها تنشأ عند الفرد حالـة من الكآبـة النفسية تتكوّن، كما يقول جانيه[1] عبر حالة الترقّب غير المبرَّر وعبر الإحساس المؤلم بالخطر غير المحدَّد (غويوتا Guyotat)

ومع ذلك ينبغي التمييز بين الشعور المؤقّت بالكآبة الذي يرتبط من حيث الحدّة والدوام بوجود الخطر الداخلي أو الخارجي والذي يشكّل حـالة نفسيـة طبيعية يجب أن يتمتّع بها كل إنسان سوي وبين الكآبة المسيطرة على شخصيّة الفرد التي ترتبط باستعداده النفسي وميله لإدراك العالم المحيط به كعامل تهديد لكيانه ونزعته إلى التشاؤم والسوداوية mélancolie[2].

بعد كل ما ذكرنـاه نقول: لم تكن الكـآبة مسيـطرة على شخصيّـة الأطفال، موضوع أبحاثنا الميدانية إنّما لايعني ذلك كونها مجرّدة من خطر إحتمال انعكاسها سلباً على نفسيتهم إذ يجب ربطها بالسمات الإضطرابية الأخرى التي تعطيهـا المعنى والدلالة الحقيقيين والخاصّين بها

وهكذا يمكننا القـول: لقد أخفقت الأنـا الطفليـة بلجوئهـا للأواليّـات الدفاعيّة من أجل حماية نفسها من الأخطار الخـارجية والـداخلية المهدِّدة لها لأسباب متعدّدة: أولاً، للتطرّف الذي ميّز لجوءها إليها؛ ثانياً لتميّز هذه الأنا بالضعف وعدم النضج المطلوب تحقيقه على مستوى كل مرحلة من مراحل النموّ لأن اللجوء إلى مثل هذه الوسائل الدفاعيّة لا يحقّق هدفـه المنشود من حيث الحمايه والأمان إلاّ بوجود نضج يمكّن الطفل من توجيه هـذه الوسـائل لا أن يكون موجَّهاً من قِبَلها، كما هو الحال مع أطفالنا. وهذا ما يفسّر سبب تحوّل هذه الأواليّات إلى سمات إضطرابية بدلاً من أن تكون سمات سوائية.

---

(1) Janet (Pierre), «Les obsessions et la psychasthénie», classics in psychiatry, Arno press, NEW YORK, 1976

(2) Lemperière (Th.) et Féline, «psychiatrie de l'adulte», Masson, Paris 1977, p 85 - 86.

الفَصْل الثَامِن

الإضطرابات النفسية العميقة والأسباب المباشرة التي أدّت لتفاقمها واشتداد انعكاسها السلبي

بدت شخصيّة أطفالنا كحقل خصب لغزو لا الإضطرابات الخفيفة الضرر والأذى كتلك التي شكّلت موضوع مناقشتنا حتّى الآن، فحسب بل أيضاً وبشكل خاص، لنشوء إضطرابات أخرى أكثر أذى وإثارة للمرض النفسي بمعناه العميق وبالتالي، أكثر تعزيزاً لإحتمال إصابة بنية شخصيّته الموحّدة والعميقة الغور

I ـ الأمراض النفسية العميقة (كما بدت عند أطفالنا)

أفضل طريقة لدراسة هذا النوع من الأمراض تكمن في البدء بتلك التي يبدو تأثيرها واضحاً في السلوك الظاهري عند الفرد ونعني بذلك مظهر «الطفالة» l'infantilisme أي إستمرار طابع الطفولة وخصائص مراحل النموّ السابقة في سلوك الإنسان بحيث يمكن معه تصنيف هذا الفرد (هنا الطفل) ضمن فئات سن أدنى من تلك التي ينبغي تصنيفه، زمنيّاً، ضمن إطارها. وبمعنى آخر نقول: يكون عمر الطفل العقلي والنفسي دون عمره الزمني.

وهذه «الطفالة» تشكّل، بمقدار كبير، أحد الإنعكاسات المباشرة الناجمة عن تأثير ضعف الأنا الذي سبق ذكره والذي يرتبط، بدوره، بخضوع الطفل المتطرّف لمحيطه واستسلامه له ولإتّكاليته المفرطة عليه (على الوالدين بشكل خاص).

١) الطفالةl'infantilisme

ينبغي التمييز بين: التخلّف l'arriération والطفالة قبل البدء بتأويل النتائج المرتبطة بهذه السمة؛ بالتخلّف أو التأخّر العقلي نقصد تقصير وعجز مختلف ملكات (قوى) الفرد عن بلوغ مستوى معيّن من النموّ يميِّز، عادةً، هذا العمر أو ذاك أو هذه المرحلة من التطوّر أو تلك؛ بينما تعني الطفالة إستمرار بعض السمات الطفولية في شخصيّة الإنسان حتى سن الرشد.

وأكثر ما يعنينا من ذلك يكمن في أن هذه السمات تشكّل لغةً أو نداءً لاواعياً يوجّهه الفرد، وبوجه خاص الطفل، لمحيطه (إلى أهله بشكل خاص) يدعوه فيه إلى التعامل معه بناءً على حاجاته أي أنه، بكلمة مختصرة، نداء لتفهّم الأهل والمحيط؛ إنّه بمثابة طريقة خاصّة بوجود الكائن البشري، تتميّز بنمط طفلي خاص يدل، بحد ذاته، على مدى حاجة الفرد لإستجابة المحيط لحاجته وأشباعها. . .

على كل حال، تجدر الإشارة هنا إلى واقع إستبعادنا، لدى قيامنا بالأبحاث الميدانية، للأطفال الذين يعانون من تخلّف فعلي في هذا الميدان؛ لذا يمكننا التأكيد بأن مظاهر التخلّف المُلاحَظة عند الأطفال أثناء التحليل العيادي ما هي، في النهاية، سوى نوع من إستمراريّة لبعض السمات الطفلية المبكرة أو نوع من الإتّكالية المفرطة على الآخرين.

ولتأمين أقصى ما يمكن توفيره من حيث الدقّة الموضوعية العلمية ميّزنا، في التحليل، بين «الطفالة» التي تعني، كما سبقت الإشارة، إستمرار بعض السمات الطفلية التي ظهرت مشتركة عند أطفال ما قبل الحرب والحرب وبين تأخّر النضج النفسي الذي ميّز فقط أطفال الحرب وإن جُمعا، في النهاية، تحت عنوان «الطفالة».

أ ـ الطفالة

		م . ض .				م . ت .			
		جنس		دين		جنس		دين	
		ص.	ب.	إ.	م.	ص.	ب.	إ.	م.
	–	٤٤	٦٠	٥٠	٥٤	٢٨	٣٣	٣٠	٣١
	+	١٢	٨	٧	١٣	١٩	١٥	١٧	١٧
وضعيّة السلم	– و +	٥٦	٦٨	٥٧	٦٧	٤٧	٤٨	٤٧	٤٨
	–	٦٠	٦٣	٦٠	٦٣	٤١	٥٣	٥٣	٤١
	+	١٢	١٤	١٨	١٣	٢٨	١٦	٢٩	١٥
وضعيّة الحرب	– و +	٧٢	٧٧	٧٨	٧٦	٦٩	٦٩	٨٢	٥٦

جدول «رقم ١٦»

نلمس في هذا الجدول وجود خطيّن تأويليّن متباعدين: الخط الأوّل يظهر على مستوى «+» حيث يبدو أطفال المؤسسة أكثر طفوليّة من أمثالهم الموجودين ضمن إطار الأسرة وذلك قبل الحرب وخلالها، والخط الثاني يبدو على مستوى النتائج العامّة حيث ينقلب الوضع إذ يُبدي من يعيش مع أسرته مظاهر تتجاوز تلك التي نلمسها عند من يعيش داخل المؤسسة. هذا وتظهر، من خلال هذا الجدول، الثابتة constante المُلاحَظة مراراً وتكراراً وتكمن في إضطراب طفل الحرب بشكل يبدو أكثر عمقاً وتواتراً منه عند أطفال ما قبل الحرب.

بربط نتائج هذا الجدول مع نتائج الجداول السابقة يتأكّد لنا وجود إرتباط إستمراريّة السمات الطفلية بموقف الأهل من الطفل حيث عاشوا، بدلاً عنه، تجارب الحياة فقلّصوا بذلك، إمكانيّة الإستفادة والغنى وبالتالي إمكانيّات إيجاد الحلول، بنفسه، لمختلف المشاكل التي يعاني منها عبر إيجاد الطريقة الكفيلة بتأمين إشباع رغباته الداخلية الحميمة وبتحضير نفسه كما ينبغي كي يكون جاهزاً لتحقيق توقّعاته المستقبلية.

والخطر الأكبر يكمن في حاجة الطفل لإثبات ذاته تجاه محيطه ولوعي قدراته الشخصيّة؛ لكن كيف يمكنه ذلك والبيئة الأسرية الضرورية له لا تؤمّن ذلك الدعم (المادّي والمعنوي) الذي هو بأمسّ الحاجة إليه كي يتمكّن من تجاوز العقبات والحواجز التي تقف حائلاً دون بلوغه مستوى النضج المطلوب تحقيقه خلال كل مرحلة من مراحل نموّه؛ كما أنها (أي البيئة الأسرية) لا تقف إلى جانبه لدى مواجهته للمفروضات الإجتماعية والمعايير الثقافية التي لا بدّ له من مناقشتها وحتى معارضتها قبل تبنّي ما يتلاءم منها مع شخصيّته الخاصّة؛ بمعنى آخر، كيف له أن ينضج نفسياً ونموّه يفتقر للعديد من المقوّمات الضرورية لتطوّره؟

هذا ويمكن القول إن الطفل، ومنذ نعومة أظفاره، يحتاج لإبداء بعض المعارضة والمقاومة؛ كما يحتاج لأطر وحدود يرسمها المحيط (خصوصاً الوالدان) تحدّد له الإطار الذي ينبغي أن يقف عنده فلا يتعدّاه. لكنّ الطفل في مجتمعاتنا يبدو، وللأسف الشديد، مكبّلاً ومقيّداً ضمن إطار ترسمه متطلّبات المجتمع دون الأخذ بعين الإعتبار لمتطلّباته هو، لذا تتعرّض كل محاولاته لتخطّي هذا الإطار لمخاطر فعلية وواقعية تثير بداخله، غالباً، الإحساس بالعجز والقصور الذاتي وشتّى مشاعر الصد والحرمان والكبت والقلق والكآبة. . .

ومع ذلك لا يتسنّى للطفل أن يصبح راشداً ومسؤولاً إلاّ إذا حرّر نفسه، عبر نشاطات اللعب والحياة الجادّة، كفرد قادر على الإندماج مع محيطه إنما، وفي الوقت نفسه، قادر على تحصين نفسه ضدّ التدخّلات المسرفة لهذا المحيط: ففي علاقاته مع الآخرين وعبر مختلف النشاطات التي يقوم بها في اللعب وفي العمل الجادّ (كالإنكباب على الدرس. . .) يجد الطفل نفسه، دائماً، تحت محكّ الإختبار لذا فهو يتعلّم كيفيّة إحترام ذاته وتقويمها.

من هنا يُفهم تنبيهنا للأهل وتحذيرهم من مغبّة توفير الجهود (الجسدية والنفسية. . .) على الطفل إذ يحرمونه، بذلك، من حقّه في التعرّف شخصيّاً على موازين القوى الحقيقية ممّا يساهم في إيقاظ الأوهام عنده حول الواقع الذي يبدو لدى معاشه له معارضاً لما تخيّله. صحيح أن حب الأهل للطفل هو الدافع

الوحيد الذي يحثّهم على القيام بمثل هذا السلوك، خاصّةً وأن الصعوبات التي تعرّضوا لها في طفولتهم تدفعهم لتجنيب الطفل الوقوع بها والإحساس بمرارتها، لكن حبّهم هذا يعميهم عن ضرورة فهم صفات النموّ ومميّزاته وبالتالي عن ضرورة تأمينهم المقوّمات الضرورية لنموّه.

تجدر الإشارة هنا إلى واقع نفسي طالما لمسناه في مجتمعنا ويتمثّل في إظهار الأهل عكس ما يحسّون به: فبدلاً من إبداء غضبهم وخيبة الأمل التي يشعرون بها تجاه الحماقات التي يرتكبها الطفل والمبرَّرة في أغلب الأحيان فإنّهم يخفونها وراء مظاهر التدليع وتقديم الهدايا له... وهذا التصرّف ينطوي، في الحقيقة، على رياء مزدوج يكمن في نفيهم للإحساس بالسّخط المبرَّر الذي يشعرون به وهذا مايُفقِد الطفل تلك الدعامة التي عليها يستند وضدّها يثور فيتعزّز بداخله، أكثر فأكثر، شعوره بالضياع وإحساسه بالعزل والإبعاد عنهم مع ان السلوك الظاهر يبدي عكس ذلك. ثم إن هذا السلوك الوالدي يشكّل القطب المضادّ لسلوك آخر يكمن في إبداء الأهل، في بعض الأحيان، قسوةً لا تتناسب مطلقاً مع الحماقة التي يكون الطفل قد إرتكبها؛ وفي كلتا الحالتين يضيع الطفل وتلتبس عليه الأمور، لكنّ الإنعكاس السلبي للحالة الأولى يبقى الأشدّ والأخطر نظراً لكون العقاب الملائم للحماقة التي يرتكبها يشكّل، بنظر الطفل وفي الكثير من الأحيان، شهادة على إهتمامهم به وحبّهم له.

في الحقيقة لا نستطيع تعداد المواقف والتصرّفات الخاطئة التي يقوم بها الأهل، خصوصاً في مجتمعاتنا، ظنّاً منهم بأنّها لصالح الطفل مع أنّها، في الواقع، تشكّل مخاطر حقيقيّة تهدّد مسار نموّه الطبيعي.

في إطار حديثنا حول «الطفالة» ينبغي التوقّف عند مظهر التأخر في النضج النفسي الملاحَظ عند طفل الحرب كنتيجة طبيعية ومنطقية لاختلال توازنه النفسي وتعرّضه، أكثر من طفل ما قبل الحرب، للإضطراب النفسي العميق نتيجة وجوده ضمن وضعيّة مثيرة أصلاً للإضطراب النفسي.

ب ـ تأخر النضج النفسي

	م . ض .				م . ت .			
	جنس		دين		جنس		دين	
	ص.	ب.	إ.	م.	ص.	ب.	إ.	م.
وضعيّة الحرب	٣١	٣٦	٤٣	٢٤	٢٧	٣٤	٤٤	١٧

جدول «رقم ١٧»

رغم كون هذه النتائج غير مسيطرة، حسب المبدأ العلمي الذي اتّبعناه في ما يختص بضرورة إلتقاء السمة فإنّها تبقى دالّة ومعبرّة بحدّ ذاتها لأنها توضح التوجّه الذي تتّخذه سمة «الطفالة» وتحمل، في الوقت نفسه، برهاناً إضافيّاً لما سبق تأكيده حول إرتباط المستوى العميق «+» للطفالة مع نتائج تأخّر النضج النفسي بمعنى ان إنعكاس تقصير الأهل يكمن في توجيه الطفل نحو القصور النفسي.

هـذا وينبغي ربط تأخّر النضج النفسي بموقف الخضوع والإستسلام والإتّكالية الذي تبنّاه الطفل تجاه محيطه (تجاه والديه بشكل خاص)؛ كما ينبغي ربطه، أيضاً، بما سبق أن أشرنا إليه في ما يختّص بالشبيبة الطالبية وبالراشد بشكل عام من حيث العجز عن تحمّل المسؤوليات ومن حيث تدخّل الأهل السافر بحياة أبنائهم المتزوجين حيث يبقى الإنسان في مجتمعنا، وبنظر أهله، قاصراً لا يمكنه الإستقلال عنهم، لذا يتابعون تدبير شؤونه الأسريّة.

كل ذلك، بالإضافة إلى ما سبق قوله ضمن طيّات هذا الكتاب والكتب التي سبقته، يقودنا لتأكيد واقع إفتقار التربية الأسرية، عندنا، لعدد من المقوّمات الضرورية في بناء شخصيّة سليمة. وهذا القصور يبدو واضحاً على مجمل المستويات وبشكل خاص على المستوى العاطفي ـ الإنفعالي حيث تبدو خيبة أمل الطفل جليّة خاصّةً وأن إشباع حاجاته العاطفية يبدو جزئياً ومشروطاً.

على كل حال، لا تشكّل «الطفالة»، رغم أهمّيتها، السمة الوحيدة الدّالة على تأخر النضج النفسي عند الطفل وعلى إضطراب بنيته الشخصيّة العميقة بل هناك سمات متعدّدة أخرى كشف عنها التحليل المعمّق الذي قمنا به مثل: صعوبة التأقلم، الإنطواء على الذات، الميول الفُصامية، . . .

٢) صعوبة التأقلم mauvaise adaptation

	م . ض .				م . ت .			
	جنس		دين		جنس		دين	
	ص.	ب.	إ.	م.	ص.	ب.	إ.	م.
وضعيّة الحرب	٨٧	٥٩	٩٩	٦٤	٩٠	٧٦	٩٤	٦٧

جدول «رقم ١٨»

هنا أيضاً تبدو «صعوبة التأقلم» غير مسيطرة على شخصيّة الطفل لكنّها مع ذلك لا تفقد أهمّيتها التعبيرية والدّالة خاصّةً وأنّها تتقاطع نوعاً مع ما ورد سابقاً.

بادىء ذي بدء نقول: يبدو الطفل المسيحي والبنت أكثر قدرة على التأقلم من الطفل المسلم والصبي؛ نظرة سريعة على النتائج تكفي لإدراك ذلك. لقد ظهرت هذه الثابتة، تقريباً، على مستوى عدد من السمات الاضطرابيّة حيث بدا الجو الأسري عند الأوّلين اكثر ثباتاً نسبيّاً، منه عند الآخرين (أي الصبي والمسلم) وبالتالي أقل سلبيّة. قلنا «نسبيّاً» لأن الجو الأسري بدا عند الجميع بغاية الإضطراب وهذا ما دعانا لإلتزام موقف الحذر العلمي تجاه النتائج وعدم التسرّع في الإستنتاج والتعميم؛ لكنّ ظهور نفس الثابتة على عدّة مستويات يضطرّنا لتأويلها، وإن بشكل بدائي، على ضوء جولة نقوم بها ضمن إطار مختلف النتائج التي حصلنا عليها: لقد بدا الأب يشغل مكانة أكثر أهمّيّة بكثير، ضمن إطار الجو الأسري، عند الصبي والمسلم منه عند المسيحي والبنت؛ كما أن فعاليّة وجوده ترتبط، بمقدار كبير بالمكانة التي يشغلها ضمن إطار الأسرة وبشكل

خاص بالأنا الأعلى التي تتكوّن عند الطفل حيث يعود للأب الدور الرئيسي في تكوينها إذ أنّه يشكّل الوسيط بين المجتمع الأكبر والأسرة. وهذه الأنا الأعلى تتكوّن بفضل إستبطان الطفل لمختلف المفروضات والممنوعات الخارجية مشكّلةً بذلك القاضي الذاتي للنفس؛ لذا لا يعود هذا الطفل بحاجة لوجود رقيب خارجي يذكّره بوجوب إحترام القواعد الإجتماعية بل يصبح رقيب نفسه بنفسه.

من هنا يُفهم الفرق ذو الدلالة الإحصائية المرتفعة جدّاً بين الطفل المسيحي والمسلم على مستوى «تأخّر النضج النفسي» الملموس بشكل أوضح عند الثاني منه عند الأوّل؛ كما أن نضج شخصيّة الأوّل بدا، رغم الإضطراب الذي يعتوره، أكثر ثباتاً، أقل تطلّباً وأقل إتّكالية من ذلك الملاحظ عند الثاني (أي المسلم).

هكذا، وعلى ضوء ما سبقت الإشارة إليه، نقول: بدت الأسرة عند الطفل المسلم أكثر إثارة لإختلال توازن شخصيّته وسير نموّه الطبيعي من الأسرة المسيحية وذلك لأسباب متعدّدة نخص بالذكر منها تلك المرتبطة بالتعاليم الدينية كما ظهرت عبر معاش الطفل الحيوي مثل: سيطرة الأب داخل الأسرة، سلبيّة الصورةالأنثوية، . . .

ومع ذلك تجدر الإشارة لواقع هام يكمن في القول إن التأثير الإيجابي للأسرة المسيحية، إذا جاز القول بوجود تأثير إيجابي، لم يتأكّد على مستوى مجمل السمات الإضطرابية هذا من جهة، أمّا من جهة أخرى فيمكن القول بأنّه بدا، على العكس من ذلك، أكثر سلبية من تأثير الأسرة المسلمة كما هي الحال مثلاً على مستوى السلبية والإنهيار. . . بينما تأكّد على مستوى سمات أخرى مثل: الخضوع الإستسلامي والإتّكالية على الأهل وفقدان الثقة بالذات. . .

تأكيد إيجابيّة هذا التأثير يبقى، إذن، عرضة للجدل والمناقشة ويستلزم الإستقصاء وتوفير البراهين العلمية والموضوعية خاصّةً وأن صعوبة التأقلم، وإن بدت مرتفعة جدّاً عند الطفل المسلم، فقد بدت أيضاً مرتفعة عند الطفل المسيحي إذ تجاوزت عند مجمل الجماعات المكوّنة لجمهور الأطفال المسيحيين حدود الـ ٥٥٪

هذا ويمكن التأكيد على خطورة الإنعكاس السلبي لهذه السمة الإضطرابية نظراً لكون التأقلم الجيّد مع البيئة الإجتماعية يُعدّ إحدى أهم خصائص الكائن البشري الـذي يمتلك، أساسـاً، قدرة هـائلة تمكّنه من التـأقلم مع محيـطات إجتماعية بغاية التنوّع والإختلاف. لكنّ هذا الإستعداد لا يورث بل هو قدرة على الإكتساب وإن كان للإستعداد البيولوجي والعضوي دور هام في تحقيق هذا الإكتساب كما أظهرت ذلك مختلف الـدراسات العلميـة التي تحقّقت في هذا المجال وبالأخص الأبحاث البيولوجية التي ركّـزت على ضرورة وأهميّـة تحقيق النضج البيولوجي والتشريحي وتوصّل القشرة الدماغيّة لدرجة معيّنة من التطوّر كي يستطيع الفرد تحقيق عمليّة التأقلم مع المحيط الخارجي.

من جهتنا، لم نهمل كما أننا لم ننكر أهمية هذا الشرط، أي دور النضج البيولوجي في تحقيق عمليّة الإكتساب ونموّ قدرة الطفل على التأقلم بل، على العكس، لقد شدّدنا مراراً وتكراراً على فكرة كونه شرطاً أساسياً وإن لم يكن كـافياً لتحقيق النمـوّ الـطبيعي. بمعنى آخر نقـول: يشكّـل النضـج البيـو-فيزيولوجي عاملاً من عوامل مبدئية وجوهريّة تساهم في بلورة تطوّر القدرات البشرية ومن بينها قدرة الفرد على التأقلم مع محيطه الإجتماعي.

فضـلاً عن ذلك أعلمنـا «علم نفس النمو» اليـافع عن تـرسّخ بعض القدرات وبشكل خاص التصرّفات المميّزة للإنسان ككائن بشري في الجينات les gènes المكـوِّنة للخليّة البشرية وفي عمليّـة توزيـع هـذه الجينـات داخـل الكروموزمات التكوينية.

بكلمـة مختصرة نقـول: حيـاة الإنسـان هي عبـارة عن جهـد دائب ومتواصل، يهدف لتحقيق درجة من التنظيم يكون أكثر فأكثر ثباتاً وذلك بفضل تأثير البيئة الإجتماعية المحيطة بالفرد؛ بمعنى آخر نقول: إنها محـاولة مستمـرة لتحقيق التأقلم. وتأقلم الكائنات (الكائن البشري بشكل خاص) مع محيطها ينمّي عندها مختلف القدرات التي تمكّنها من تحسين شروط الحياة المحيطة بها وذلك بشكل ناشط وفعّال.

لكنّ الإنسان الذي وصفناه بالمالك الوحيد للقدرة على التأقلم مع مختلف

الوضعيّات الإجتماعية المفروضة عليه والمحيطة به لا يأتي إلى العالم مجّهزاً بسلوك وراثي ثابت يربطه بمحيطه مرّة واحدة وبطريقة ثابتة لا تتنوّع بالنسبة للمسائل الحيويّة الحاسمة في حياته بل هو مبتدىء دائماً كلّما وجد نفسه منخرطاً ضمن ثقافة معيّنة تختلف عن تلك التي كان منخرطاً فيها[1]. وهو يضبط نشاطاته الخاصّة ويوجّهها بفضل الوعي الذي يساعده على تعهّد علاقات جدلية يقيمها مع الآخرين.

أمّا مكوّنات التأقلم مع المحيط التي توضح هذه القدرة البشرية وتفسّرها فهي، بنظر ميتسشرليش أربعة: ١) تأقلم سلبي مع الشروط الموجودة؛ وهذا السياق يرتبط، طبعاً، بالتعلّم وباكتساب القواعد والمحرّمات والرموز وبشكل خاص اللغة.

٢) ينعكس هذا التأقلم السلبي على الداخل؛ وبالسلبي نقصد تكييف الفرد لإنفعالاته النزوية لا بطريقة أنانية فُصامية إنّما تبعاً لسلوك موجود مسبقاً ويفترض، غالباً، تخلّيه عن الهدف أو تأجيل إشباعه أو إستبداله.

٣) إلى جانب ذلك، هناك تأقلم ناشط موجّه نحو الخارج، يحصل عندما ينجح الفرد في تقديم محيطه لنفسه عن طريق النزوات بشكل يجعل هذا المحيط يتوافق معه فيتمكّن، بذلك، من تحويل الوضعية الموجود ضمن إطارها.

٤) ولهذا النوع من التأقلم الناشط، أيضاً، إنعكاسه على الداخل: فالفرد لا يقبل بشكل أعمى وبخضوع مطلق أشكال السلوك المقدّمة له لأن بعض الأحاسيس التي يشعر بها تجاه هذا الشخص أو ذاك يمكن أن لا تتلاءم مع المثال الإجتماعي؛ وهكذا يتّخذ المبادرة الشخصيّة ويتكفّل بالمسؤولية المزدوجة تجاه نفسه وتجاه مجتمعه إذ من الممكن أن لا يتقبّل هذا الأخير، من مجمل تصرّفات الفرد، سوى نسبة ضعيفة تسمح بإبقاء المجموعة خارج إطار الخطر.

لكن، بالعودة إلى أطفالنا نجد أن هذا الجزء من المبادرة الفردية

(1) Mitscherlisch (A), op. cit., P15 et P12 - 13

والمسؤولية المفروض عليهم تحمّلها غير موجود ليس فقط عندهم بل، أيضاً، عند شبيبتنا وراشدينا الذين لا يملكون، غالباً، الشجاعة الكافية للتمرّد على المفروضات الإجتماعية التي يعتبرونها مُجحِفة وغير متلائمة مع ظروفهم الشخصيّة. وأحياناً أخرى نراهم يذهبون أبعد من ذلك ليلقوا تبعة المسؤولية الملقاة على عاتقهم هم على الآخرين: فالآخرون هم دائماً المسؤولون عن حالة الضعف التي تعتري الإنسان الشرقي وعن حالة النقص الحاصلة في تجهيزهم الثقافي ـ الإجتماعي والنفسي والفكري... الحق في كل ذلك يعود على الآخرين وهم دائماً ضحايا بريئة لا حول لها ولا طول.

يمكن لأي ملاحظ متنبّه كشف هذا الواقع، وبسهولة، إذا عرف كيف يستدرج الإنسان الشرقي، خصوصاً بشكلٍ لاواعٍ، للكشف عن نفسه إذ، عندها، تسقط الأقنعة فلا يبقى سوى الحقيقة العارية من كل زيف.. طالما تألّمنا نحن من هذا الواقع المؤلم إن من جهة طلاّبنا أم من جهة راشدي مجتمعنا ومثقفيه...

هذا وقد لاحظت مدام برنس نفس الظاهرة عند الشبيبة الطلاّبية، موضوع دراستها الميدانية: لقد لاحظت، في الواقع، تناقضاً هائلاً بين الأفكار الإيديولوجية التي يتبنّاها الشباب الجامعيّون وبين التخلّف الظاهر في مواقفهم الخاصّة بمفاهيم الحرّية والمسؤولية وحقوق الفرد...

بالعودة إلى نقطة الإنطلاق أي إلى ضرورة تأويل مختلف النتائج المتمثّلة في الجدول «رقم١٨» نركّز على ملاحظتين، تكمن الأولى في الواقع الآتي: يجد أطفال المجموعة الضابطة، أي التي تعيش إلى جانب الأهل، نفس الصعوبة في التأقلم مع المحيط التي تجدها المجموعة التجريبية أي التي تعيش داخل المؤسسة؛ ومسؤولية الأهل في حدوث الإضطراب النفسي عند الطفل لهي جسيمة ومثقلة بالإنعكاسات السلبية على نموّه السليم

والملاحظة الثانية تكمن في القول بأن تأقلم الطفل المسيحي مع محيطه لم يتّم بسهولة وبشكل طبيعي بل أحدث، بداخله، إحساساً بالنَهك النفسي وبضعف الحيويّة:

٣) النهك النفسي Asthénie

	م . ض .				م . ت .			
	جنس		دين		جنس		دين	
	ص.	ب.	إ.	م.	ص.	ب.	إ.	م.
وضعيّة الحرب	٦	١٢	٤	١٤	١٩	١٥	٧	٢٧

جدول «رقم ١٩»

من الواضح أن النهك النفسي الملاحَظ عند الطفل المسيحي يتجاوز ذلك الملاحَظ عند مثيله المسلم؛ هذا ويتجاوز تأثّر طفل المؤسسة (الصبيان والمسيحيين بشكل خاص)، في هذا المجال، تأثّر مثيله الموجود ضمن الأسرة.

لحسن الحظ، يبدو هذا الوَهَن النفسي قليل التواتر من جهة وغير عميق من جهة أخرى. لكنّ ذلك لا يمنع كونه بغاية الخطورة لأنّه ينتج، في الحقيقة، عن أزمة داخلية وخارجية يقودها الطفل بهدف المحافظة على توازنه النفسي الذي بدا باهظ الثمن.

هذا بالإضافة إلى كون النَهَك النفسي يشكّل، بحدّ ذاته، حالة عجز مَرَضي ناتج عن بذل الفرد لجهود مكثّفة توظّف الأنا فيها، أثناء عيشها للصراع العصابي، كلّ قواها الحيويّة، النزوية بشكل خاص، ممّا يجعلها رهينة هذا الصراع فلا يتبقّى من طاقتها الكامنة سوى جزء ضئيل صالح للإستعمال والتوظيف في مهمّة تحقيق التأقلم مع الواقع الخارجي؛ وكلّما ارتفعت درجة النهك النفسي أصبح الفرد عاجزاً، أكثر فأكثر، عن القيام بأيّ جهد كان: فكري أو إجتماعي أو نفسي... فتستتب الفوضى ويسيطر الغموض على ذهن الفرد[1]

يُضاف إلى ذلك كون النَهَك النفسي يتحقّق على حساب تعب فيزيولوجي ونفسي ضخم؛ تعب يرتبط بدوره بعدّة عوامل يكمن أهمّها في الصدى

(1) Corman (L), «L'examen psychologique d'un enfant», Ed. Dessart et Mardaga, Bruxelles, 1968, P138

(العاطفي، النفسي والإجتماعي والفكري) الذي تتركه الوضعيّة المؤلمة المُعاشة من قِبَل الفرد في أعماقه؛ والأخطر من ذلك يكمن في عدم وعي الفرد لحالته هذه إذ أنه يتأثّر بشكل لاواعٍ: إمّا لأن تكوينه الفطري يجعله قابلاً للتأثّر في هذا المضمار، أو لأن الحادث وقع خلال فترة زمنية وشروط معيّنة تجعل من تأثير الصدمة عليه أكثر حدّة ممّا لو كانت قد حدثت خلال فترة زمنية أخرى.

لا تُفهَم دلالة النتائج، المتمثّلة في الجدول «رقم١٩» والتي هي بحدّ ذاتها قليلة التواتر والعمق، إلاّ بوضعها ضمن هذا الإطار المتكامل، خاصّةً وانّ النّهك النفسي المُلاحَظ عند الأطفال يرتبط باضطرابات أخرى ظهرت عندهم؛ كما أنّه يشكّل السبب الجوهري لحدوث إضطرابات أخرى أكثر خطورة كالإنطواء على الذات والميول الفُصامية...

٤) الإنطواء على الذات Repliement sur soi

هناك ميل شديد للإنطواء على الذات نلاحظه، خصوصاً، عند طفل الحرب؛ وهو يتجاوز إلى حدّ بعيد، من حيث التواتر والحدّة، ذلك المُلاحَظ عند طفل ما قبل الحرب:

		م. ض.				م. ت.			
		جنس		دين		جنس		دين	
		ص.	ب.	إ.	م.	ص.	ب.	إ.	م.
	-	—	٨	٨	—	٣	٧	٦	٦
	+	٨	٢٨	٢٣	٥	٢٣	٢٢	٢٨	١٥
وضعيّة ما قبل الحرب	- و +	٨	٣٦	٣١	٥	٢٦	٢٩	٣٤	٢١
	-	٦٢	٥٨	٦٩	٥١	٤٢	٥٣	٥٠	٤٥
	+	١٢	١٦	٩	١٩	٢٧	١٩	٢٤	٢٢
وضعيّة الحرب	- و +	٧٤	٧٤	٧٨	٧٠	٦٩	٧٢	٧٤	٦٧

جدول «رقم ٢٠»

ملاحظة تجدر الإشارة إليها قبل بدء تأويل نتائج هذاالجدول: لقد تمّت دراسة هذه النتائج، كما هي الحال مع نتائج مجمل الجداول، على عدّة مستويات تأويليّة: على مستوى الأرقام المتمثّلة في كل خانة تمثّل إحدى الإشارتين «−» و «+»، على مستوى المجموع (− و +) ومستوى مقارنة نتائج وضعيّتي: الحرب والسلم. لكن تحاشياً للتطويل والتكرار المملّ، إقتصر تأويلنا، ضمن طيّات هذا الكتاب، على الملاحظات العامّة.

وأهم هذه الملاحظات يكمن في ما سبقت الإشارة إليه: تجاوز ميل طفل الحرب إلى الإنطواء ذلك الذي أبداه طفل السلم ودلالة مختلف النتائج المتمثّلة في هذا الجدول في ما يختص بالمنحى المَرَضي الذي يتّجه الطفل نحوه عندما تعترض نموّه صعوبات يعجز عن تجاوزها.

أخطر ما في هذه الدلالة يكمن في كون هذا الميل نحو الإنطواء على الذات يقود الفرد (هنا الطفل) نحو تأكيد حالة اللاسواء والمرض النفسي بكل ما للكلمة من معنى.

لقد بدت ميول الطفل نحو الإنغلاق على النفس autisme والنكوص والكبت... مرتفعة جدّاً وبغاية التعبير خصوصاً عند أطفال الحرب الذين بدا ميلهم نحو الإنطواء على الذات مرفقاً بإحساس عميق بالعزلة تجاه المحيط (من أهل ورفاق...) ممّا يدل على أن هذا الإنغلاق الذاتي يشكّل تهديداً مباشراً لإمكانية الإتّصال بالمحيط المباشر؛ من شأن ذلك ألاّ يصيب جهاز الطفل الذهني والعقلي فقط بل أيضاً جهازه النفس ـ جسدي. على كل حال، بدت صورة الذات عند أطفالنا، كما سبق أن أشرنا، مهتزّة، بغاية الإضطراب وتفتقر إلى التكامل والوحدة.

وكما قالت بنيديك Benedeck «تمثّل أجهزة الرضيع الفيزيولوجية والذهنية نظام اتّصال يرتبط بنظام الأم (بكل مظاهر شخصيّتها)؛ إنّما بفضل سياقات التماهي بالأم، ينتقل الطفل من حالة عدم التمايز إلى حالة التمايز

والفردية المزوّدة بجهاز ذهني ذي بنية خاصّة تمكّن الطفل من ضبط سياقاته processus[١] النفسية والجسدية»[٢].

هذا مع العلم بأن النضج يسمح للطفل، حسب تعبير شور Schurr[٣]، بالتعبير عن اتّجاهات متنوّعة تترافق مع تنظيم خاص بجهازه الذهني. ففي هذه الفترة يحدث تداخل وثيق عند الطفل ما بين نضج جهازه العصبي المركزي والحركي من جهة وبين ترسيخ ذاتيّة الإنضباط (أي ضبط الأعمال والحركات) تبعاً لتوازنه الداخلي وانبثاق سياقات التفكير الثانوية كجزء لا يتجزّأ من تكوين شخصيّته من جهة أخرى.

وفضلاً عن ذلك، يتعلّق تطوّر سياق النموّ المتكامل، بمقدار كبير، بنجاح الأنا في ضبط طاقاتها ومختلف الوسائل النفسية والجسدية التي تساهم في تكوينها؛ يعني ذلك، بتعبير آخر، أن هذا التطوّر يرتبط بالوضع المتكامل الذي يجد الفرد نفسه منخرطاً فيه كل لحظة وبمجموع العوامل الفطرية والإكتسابية، الوثيقة التداخل بعضها مع بعض. لذا يمكن إستخلاص فكرة كون المظاهر النفس - جسدية يمكن أن تحدث تنوّعاً في التطوّر ليس فقط من الناحية الكمّية بل، أيضاً، من الناحية النوعية.

ينتج عن كل ذلك إمكانيّة تعميق المعرفة حول شخصيّة الفرد العميقة الغور نظراً لإرتباط السمات الإضطرابية التي كشف عنها تحليلنا العيادي عند الأطفال بصراعاتهم الخاصّة، ببنية الأنا عندهم وبوظيفة هذه الأنا. وهكذا يمكن القول إن من شأن كل شعور بالإنطواء على الذات إبعاد الفرد عن وظيفة الأنا الأساسية كوسيط يؤمّن التوازن المطلوب تحقيقه ما بين الهو le çaالممثّلة للنزعات والميول الداخلية وبين الأنا الأعلى le surmoi الممثّلة للمفروضات والقيم

(١) نذكّر القارىء الكريم بأن السياق Processus يعني التطوّر التدريجي المتتابع والمنبثق عن تدرّج النمو وتطوّره

(2) Benedeck (T), «psychosomatic implication of mother child relation - ship», Amer. J. orthopsychiat., 1949, 19, P642 - 654

(3) Schurr (M), «comments on the metapsychology of somatization», psycho - anal. study child, 1955, 10, p114 - 164

الإجتماعية. فإذا لم يتحقّق هذا التوازن تجد الأنا نفسها مدفوعة نحو هذا القطب المتطرّف أو ذاك أي نموّ إشباع متطرّف ومسيطر للنزوات أو نحو الخضوع الأعمى والمتطرّف للمفروضات والقواعد الإجتماعية المفروضة من قِبَل الآخرين.

وبالعودة إلى الجدول «رقم ٢٠» يمكن القول إن خيبة الأمل العاطفية عند الطفل تجاه الأهل منعته من التجرّد عن ذاته؛ في الواقع، يتغذّى الطفل من التبادلات القائمة بينه وبين محيطه إذ يستحيل عليه حبّ والديه إذا لم يتلقّ حبّهم وعاطفتهم. ومن المعلوم أن هذه العاطفة المتبادلة بين الإثنين هي التي تسمح للطفل بالتخلّي عن حالة النرجسية والإنغلاق على الذات وبتحويل جزء من الليبيدو النرجسية، حسب تعبير التحليل النفسي، إلى ليبيدو موضوعيّة شرط أن لا يتعرّض لخيبة أمل كبرى أثناء توجّهه نحو الآخرين؛ فهو يشعر، عندئذٍ، بعدم فهم الآخرين له خصوصاً عدم تقبّلهم لشخصه فيسحب عاطفته من الخارج ليصبّها على نفسه. وينتج عن كل ذلك مغالاةٍ في حب النفس وتطرّف من حيث الإهتمام بالمظهر الخارجي وتبنّي موقف اللامبالاة تجاه الآخرين.

لهذا النمط من ردّ الفعل تجاه خيبة الأمل إنعكاسات أكثر ضرراً على شخصيّة الطفل من تلك التي تنتج، مثلاً، عن تنافس أخوي مفتوح لأنّه يجعل من الصعب، لا بل من المستحيل، عليه حلّ صراعه الأوديبي فيتترجم كل ذلك عبر عجز يمكن أن يكون نهائياً في ما يختص بقدرته على القيام بعلاقات عاطفية مع من يحيط به من أشخاص.

تجدر الإشارة، في هذا المضمار، للتقارب الموجود بين الإنثناء أو التقهقر النرجسي وبين الإحساس بالعزلة الذي يضع ستاراً يفصل الطفل عن مواضيع حبّه الخارجية من جهة، والعودة إلى الذات المثيرة لمزاج خَوَري عنده من جهة أخرى. وردّات الفعل المختلفة هذه تتداخل ضمن إطار تناذر syndrome عيادي أي تزامن أعراض مرض معيّن يربط الإنطواء على الذات بعدم

(1) corman (L), «Le test PN», vol.2: le complexe d'ocdipe, PUF, Paris 1973, P42

الإكتراث ورفض الإتّصال بالآخرين والمزاج الخَوَري حسب درجات متنوّعة تختلف باختلاف الأفراد

ينطبق ما سبق ذكره، وبدرجة مرتفعة جدّاً، على أطفالنا الذين كشف التحليل العيادي عندهم عن وجود: إضطراب في العلاقات القائمة بين الطفل وأسرته، إختلال في التوازن العاطفي، صعوبة في تجاوز المرحلة الأوديبية، صعوبة في إقامة علاقات إيجابية مع من يحيط بهم من أفراد، إنهيار نفسي عميق، إنطواء على الذات بدا على درجة مرتفعة...

ومع ذلك، تبقى مسألة تقرير حالة السواء أو المرض، رغم الكشف عن وجود عدد من السمات الإضطرابية عند هؤلاء الأطفال، موضوعاً بغاية التعقيد ويصعب تحديده بشكل نهائي لأن الطفل كائن يسير في طريق النموّ، حسب تعبير أجورياغيرا[1]، باتّجاه تنظيم بنائه الوظائفي والمورفولوجي وهو، بذلك، قابل للتغيّر في ما يختص بتكوينه أو بسلوكه الظاهري...

بالإضافة إلى ذلك نقول: يمكن أن يظهر المرض، عند هذا الكائن السائر في طريق النموّ والتطوّر، إثر إصابة جهازه العصبي أو بنية شخصيّته،... خلال مرحلة معيّنة من نموّه تحت شكل مبكر يُرافَق باختلال مكثّف للتنظيم المتكامل من شأنه أن يؤدّي لتصدّع العلاقات القائمة بين الفرد ومحيطه لإستحالة تحقيق عمليّة الإكتساب. لكن توقّف عمليّة الإكتساب هذه يكون، غالباً، جزئياً أي أنّه يترافق باستمرار الإكتساب وإن على مستوى منخفض.

تظهر حالات العجز هذه تحت أشكال متنوّعة تختلف معنى وشدّة باختلاف عدد من العوامل مثل: المرحلة التطوّرية التي يمر بها نمو الفرد، شخصيّة الفرد الخاصّة به، الصدى: العاطفي والنفسي والفكري والإجتماعي والفيزيولوجي الذي يحدثه العجز في شخصيّته المتكاملة،... ! من هنا إستحالة التنبّؤ مسبقاً بانعكاس حالة العجز والشكل الذي تتّخذه، خاصّةً وأنّه من الممكن أن يكون هذا الإنعكاس ثابتاً وأكيداً أو، على العكس، مؤقّتاً يرافق فترة معيّنة من النمو دون الأخرى.

(1) Ajuriaguerra, op. cit, P154

فضلاً عن ذلك نقول: يمكن أن يختلف تأثير السبب نفسه تبعاً لعوامل متعدّدة مثل: فترة النموّ التي يجتازها الفرد أثناء وقوع الحادث، إختلاف القدرات والإستعدادات باختلاف الأفراد وشخصيّتهم، إحتمالات التعويض الفعلي عند فرد معيّن أكثر منها عند فرد آخر، قدرة فرد معيّن دون الآخر على الإحتمال وبالتالي إمكانيّة تجاوزه للصعوبات التي تعترض سير نموّه. . . بمعنى آخر نقول: لا يكون التأثير الذي تحدثه نفس الوضعيّة أو نفس الحادث مماثلاً تماماً بالنسبة لجميع الأطفال؛ فإن أمكن القول بوجود بعض التشابهات يبقى الإختلاف، رغم ذلك، سيّد الساحة: فلقد سبق أن أشرنا في طيّات كتابنا السابق لوجود الإختلاف حتى عند التوائم المتماثلة (يصل إلى ١٥ و٢٠٪) حتى وإن ترعرعت ضمن إطار نفس البيئة؛ وهذا الإختلاف يعود، أساساً، لأصالة كل فرد وفرادة شخصيّته إذ من المستحيل إيجاد شخصين متشابهين تماماً، والإنسان يشبه، كما سبق أن قلنا، كل إنسان لكنّه لا يشبه تماماً أي إنسان آخر.

هذا بالإضافة إلى صعوبة تحديد مفهوم السّواء والمرض حتى عند الراشد، فما القول، إذاً، عند الطفل؟ من هنا يبقى الإحتمال الأفضل لتحديد المرض هو الآتي: إذا حدث إختلال وعدم تكيّف عند الفرد فإنّه يكون، عندئذٍ، بحالة مَرَضيه. وبناءً على تحديد المنظمّة العالمية للصحّة القائل بأنها الكميّة الأدنى من الهناء أي الراحة الجسدية والنفسية والعاطفية والعقلية والإجتماعية، نحدّد المرض كونه ذلك الإختلال الحاصل في توازن الفرد وفي التأقلم الحاصل عنده ما بين مفروضاته الداخلية الحميمة من جهة ومفروضات العالم الخارجي من جهة أخرى. لذا لا يمكن الحكم بوجود حالة مَرَضية إنطلاقاً من ظهور عارض أو سلوك معيّنين إلاّ بعد وضعهما ضمن إطار الوضعيّة المتكاملة أي بعد الأخذ بعين الإعتبار للمستوى التطوّري العام، للوضعيّة الحاضرة ولنظام الدوافع والدفاعات التي تلجأ إليها أنا الفرد لدى إحساسها بأي تهديد يعرّضها للخطر. . .

أكثر من ذلك نقول: حتّى وإن إتّخذ المرض في بعض الحالات شكلاً

محدّداً خلال سنّ مبكرة فإنّه يحتاج غالباً لفترة زمنية طويلة حتى يستتب عند الفرد؛ فالأمور تحدث، حسب تعبير أجورياغيرا، كما لو كان المرض يبحث عن ذاته قبل أن يتّخذ شكلاً محدّداً خلال فترة معيّنة من فترات التطوّر.

لهذه الأسباب وغيرها من الأسباب الأخرى التي ذكرناها في أماكن متعدّدة يصعب تأكيد وجود حالة مَرَضية فعلية ودائمة عند أطفالنا حتى وإن كشف التحليل العيادي عن وجود أعراض تتّصف فعلاً بالمرض.

يُضاف إلى ذلك، خصوصاً عند أطفال المجموعة الضابطة، وجود عدد من السمات الأخرى الدّالة على كونه يتميّز بالسوائية والتحضّر الفعلي مثل: المحافظة على المشاعر الإنسانية (كتعريض النفس للخطر بهدف تقديم العون والإسعاف للمحتاج)، قدرة على الإشباع الخيالي الذي من شأنه خفض درجة الإصابة المرضية، المحافظة على درجة عالية من القدرة على التركيز الذهني والنشاط الفكري رغم الأوضاع المحيطة به، قدرة لا بأس بها على تحمّل الحرمانات المتعدّدة والمتنوّعة، . . . هذا دون ذكر القدرة على تنويع ردّات الفعل التي أظهرها الطفل اللبناني بالنسبة لمختلف الأشخاص المحيطين به ولمختلف الوضعيات الحرمانية المفروضة عليه.

كل هذه الأسباب مضافة إلى تلك المذكورة أعلاه تجعل من الصعب، أكثر فأكثر، تأكيد إستتباب الحالة المَرَضية عند أطفالنا.

مهما يكن من أمر هناك سؤال طالما طرحناه على أنفسنا يعود ويفرض نفسه علينا من جديد على ضوء النتائج المنبثقة عن مجمل الجداول الممثّلة للسمات النفسية: ما السبب الأساسي في اتّجاه أطفال الحرب نحو المنحنى المَرَضي والإضطراب النفسي؟ أيعود فقط لذيول الحرب؟ أم أن لخيبة أمل الطفل تجاه قصور الوالدين عن القيام بوظيفتهما ودورهما إلى جانبه خلال الأحداث دورها في إذكاء هذا الإضطراب عنده؟

لدى محاولتنا الأوّلية للإجابة على هذا التساؤل أكّدنا على تضافر الواقعين مع بعضهما: فالوضعيةالجديدة التي خلقتها الحرب فرضت على الأهل تكثيف

وتنويع وجودهم إلى جانب الطفل لكنّ هؤلاء بدوا للأسف وعلى ضوء معاش الطفل الحيوي، مماثلين لأنفسهم قبل الحرب وخلالها. لقد أكّدنا ذلك بالبرهان العلمي كما أن مناقشتنا اللاحقة ستحمل تبريرات علمية إضافية؛ لكن قبل البدء بمناقشة الأسباب المسؤولة عن تفاقم الإضطراب النفسي عند الطفل يجدر بنا التوقّف عند «الميول الفُصامية» التي ظهرت عند الأطفال والتي بدت كسبب ومسبِّب للسمات الإضطرابية السابق ذكرها.

٥) الميول الفُصامية Tendances schizoïdes

		م. ض.				م. ت.			
		جنس		دين		جنس		دين	
		ص.	ب.	أ.	م.	ص.	ب.	أ.	م.
وضعيّة ما قبل الحرب	+	٢٤	٨	١١	٢١	٣٣	٢٦	٢٨	٣١
وضعيّة الحرب	+	٢١	١٩	٢٣	١٧	١٩	٢١	٢٣	١٧

جدول «رقم ٢١»

لم نحتفظ، في هذا المجال، إلاّ بتلك التي بدت متواترة ومسيطرة على شخصيّة الأطفال أي بالنتائج الممثّلة للإشارة «+». ولتأويل هذه النتائج نقول: تتميّز الميول الفُصامية عند أطفالنا بانطواء متطرّف على الذات، بعجز عن التعبير المباشر عن مشاعرهم الحميمة وعلى إقامة علاقات حميمة مع الآخرين، بانعدام إحساسهم بدفء العاطفة الإنسانية، بعدم تمايز الأنا عن اللا ـ أنا عندهم، . . . ممّا عزّز إضطراب علاقاتهم الموضوعية.

واقتصارنا على المستوى العميق «+» ينطلق، أساساً، من مبدأ صعوبة الإستنتاج بأن الطفل الذي تعتري شخصيّته مثل هذه الميول الفُصامية هو فعلاً مصاب بانفصام الشخصيّة؛ منْ هنا يُفهم إستعمالنا للتعبير «ميول فُصامية» بدلاً من إستعمال تعبير «فُصام الشخصيّة» لأن هذه الميول، فضلاً عن أنّها لا تتعدّى الـ ٣٣٪، لا تعدو كونها نتاجاً للتأثير التربوي ـ الثقافي لا نتاج تكوين بنيوي في

شخصيّة الأطفال. ثم إن هذه الميول بدت مختلفة من حيث الدرجة والعمق باختلاف المتغيّرات التابعة variables dépendantes المتّخذة كقاعدة أساسيّة للمقارنة طيلة دراستنا الميدانية: كشفت المقارنة الإحصائية التي أجريناها على مستوى كافة الجماعات المكوِّنة للجمهور الأصلي عن وجود فرق ذي دلالة إحصائية بين عيّنة الأطفال الذين يعيشون مع الأسر وتلك التي تضم الأطفال الموجودين داخل المؤسسة (المجموعة التجريبية) حيث بدت معاناة الثانية من الميول الفُصامية أكثر عمقاً من تلك المُلاحَظة عند الأولى، هذا على مستوى وضعيّة ما قبل الحرب؛ أمّا على مستوى وضعيّة الحرب فقد بدت المجموعتان (التجريبية والضابطة) متماثلتي التأثّر في هذا المضمار.

هذا وقد كشفت المقارنة الحاصلة على مستوى وضعيّة السلم عن إختلاف تأثّر الطفل في هذا المضمار تبعاً لإنتمائه إلى إحدى الفئات الإجتماعية المكوِّنة للمجموعتين (الضابطة والتجريبية): فقد بدا الأطفال المسلمون والبنات الذين يعيشون مع الأسرة أقل إضطراباً من زملائهم المجودين ضمن المؤسسة (الفرق ين الإثنين ذو دلالة إحصائية مرتفعة جدّاً).

من هنا صعوبة إستخلاص قوانين عامّة في ما يختص بهذا الجدول خاصّةً وأن عدد الإصابات في هذا المجال يبدو منخفضاً؛ لكنّ خطورتها تكمن في الطابع العميق المميزّ لهذه الميول والمسيطر على شخصيّة الطفل إذ من شأن ذلك تشكيل قاعدة بنيوية يمكن أن تدفعه لاحقاً نحو الذُهان الفُصامي الفعلي خصوصاً وأن مجمل العياديين يرون أن نقطة إنطلاق البنية الفُصامية تكمن في تكبّد الطفل لعدد من الحرمانات المبكرة في ما يختص بعلاقته الموضوعية البدائية مع الأم.

والأخطر من ذلك يكمن في سهولة تحوّل الفرد ذي الميول الفُصامية إلى البنية الفصامية بكل معنى الكلمة لأن الحدود الفاصلة بين الحالتين هي، في الحقيقة، هشّة وصعبة التحديد نظراً لوجود أفراد يتميزون، أساساً، بميل نحو العزلة وإقامة مسافة تفصل بينهم وبين الآخرين ونحو الحياة الحالمة والإنطواء... دون أن يكونوا، في الواقع، ذُهانيين رغم بقائهم مهيّأين أكثر من

غيرهم لأن يصبحوا ذُهانيين خصوصاً إذا ما توالت عليهم خيبات الأمل والحرمانات. . .

على كل حال، تجدر الإشارة هنا إلى أن الدلالة الذُهانية تختلف باختلاف سنّ الفرد بمعنى أن عدم تمايز الأنا عن اللا ـ أنا لا يصبح مرَضياً بكل معنى الكلمة قبل بلوغ سن السابعة أو التاسعة من العمر وهو يُعَدّ، قبل ذلك، إشارة إلى عدم النضج النفسي الذي يشكّل سمة إضطرابية حتماً، إنما غير دالّة على وجود تفكّك ذُهاني عند الفرد.

يرى برجيريه Bergeret[1]، في هذا المضمار، أن البنية الذُهانية تتلاءم مع تفكّك التنظيم النرجسي البدائي المكوَّن عند الطفل خلال مراحل نموّه الأولى. وتشكّل هذه البنية إستحالة القدرة عند الطفل على فصل ذاته عن ذات أمّه التي هي، في الحقيقة، عاجزة عن فصل ذاتها عن ذات طفلها خصوصاً بغياب وجود الأب الفعلي إلى جانبها.

ثم إن علاقة الذوبان بين الطفل والأم المتميّزة دائماً بالطفالة هي المسؤولة، وإلى حدّ بعيد، عن تجزيء الأنا وعن صيرورتها son devenir: أكان هذا التجزيء ظاهراً أم كامناً، لأن الأنا الأعلى تبقى عاجزة عن تحقيق دورها التنظيمي أو الصراعي القاعدي لأن هذه العلاقة تبقى بعيدة عن شكلها الثلاثي الطبيعي «طفل ـ أم ـ أب».

هذا ويرى برجيريه بأن القلق العميق الذي ينتاب نفس الطفل لا يتركّز على الخصاء التناسلي ولا على فقدان الإحساس بالموضوع (أي بالكائنات والأشياء المحيطة بالشخص) بل على الاحساس بالتجزيء، على الإحساس بالهدم وخصوصاً على الإحساس بالموت البطيء والمتدرّج. والصراع، هنا، لا ينتج عن الأنا الأعلى أو عن مثال الأنا بل عن مجابهة الواقع للحاجات النزوية البدائية المؤدّية إلى رفض هذا الواقع الذي يصبح، في النهاية، مزعجاً يصعب

(1) Bergeret (J), «La personnalité normale et pathologique, les structures mentales, le caractère, les symptômes», Bordas, Paris, 1974, p72 et 73

تحمّله وقبوله ممّا يُغرِق الفرد في عالم الهذيان عندما تترسّخ البنية النفس ـ مَرَضيّة لديه.

أمّا أهم الأواليات الدفاعية التي يستخدمها الذُهانيون فهي: الإسقاط la projection، إنغلاق الأنا وتفسّخها clivage du moi، رفض الواقع. وهذه الأواليات تساهم في خلق مظاهر: ـ ضياع الشخصيّة dépersonnalisation بحيث يشعر الشخص أن إحساساته ورغباته وأفكاره غريبة عنه، ـ إزدواجيّتها dédoublement أو، بدرجة منخفضة، ـ عدم تحقيق الذات، ممّا يؤدّي إلى زوال الأنا أو، كما هي الحال عندنا، إلى ضعف الأنا الشخصيّة.

عديدون هم علماء النفس العيادي الذين إهتمّوا بدراسة «الذُهان» عند الأطفال أمثال: هيلر Heller، بريل Brill، دسبر Despert، بندر Bender، غولد فورب Gold forb، كرامر Cramer، إسكالونا Escalona، كانر Canner، كريك Creak، كاتنبرغ Cuttenberg، وولف Wolf، شسّ Chess، دياتكين Diatkine، لانغLang، . . . والذين تلاقت أفكارهم في بعض الأحيان وتضاربت في أحيان أخرى. لكنّ المميّزات الخاصّة بالذُهان الصادرة عن الأعمال الأصيلة التي قاموا بها تلتقي مع تلك التي أشرنا إليها أعلاه.

هذا وقد رشح عن دراساتهم تناقض في الآراء حول دور الأهل وأهميّته كنقطة إنطلاق من شأنها تعزيز الميول الفُصامية عند الطفل لا بل إحداثها: يرى بعضهم وجود نمط أسري (خاص بالأب أو بالأم) تشكّل طريقة تعاملهم (أي الأهل) مع الطفل عاملاً هامّاً في تكوين الميول الفُصامية عنده: لقد إعترضتنا، خلال ممارستنا المهنية، حالات تؤكّد صحّة هذا الرأي، على الأقل، كعامل من العوامل المثيرة لإحداث الذُهان. وفي هذا المعنى يقول كوفمان: يشكّل الطفل، بمعنى معيّن، مرآة تعكس واقع الأهل المرضي[1].

أمّا البعض الآخر فيدافع عن الأهل ذوي الحياة الصعبة لأن عليهم تنشئة

(1) Kaufman (I), Frank (T), «Success and failure in the treatment of childhood schizophrenia», Ano. J. psychiatr., 1962, 118, p909 - 913

طفل ذُهاني وتكبّد المعاناة والصعوبات المختلفة التي تعترضهم من جرّاء تربيته. هذا ويدافع إسكالونا(١) عن موقف الأم ويفهم واقع البلبلة والتناقض الذي يسيطر عليها نتيجة تأثّرها بردّات فعل طفلها المَرَضيّة تجاه مواقفها المعتادة والروتينية. وكذلك، يرى بتلهايم Bettelheim ضرورة الأخذ بعين الإعتبار، وفي نفس الوقت، شخصيّة الأم وشخصيّة الطفل الخاصّة بكل منهما.

لكن، مهما يكن موقف علماء النفس: موقف دفاع عن الأهل أو موقف نقد لهم، فإنّنا نرى من جهتنا أن المسؤولية الملقاة على عاتق الأسرة اللبنانية في إحداث الميول الفُصامية عند الطفل لهي جسيمة؛ يكفي لإدراكها ذكر مختلف الأوامر والمفروضات (المتناقضة في كثير من الأحيان) والإجراءات المتَّخذة تجاه هذا الطفل لإجباره على: ـ الخضوع الأعمى للقواعد الإجتماعية حتى وإن تمّ ذلك على حساب حقوقه المشروعة في تحقيق إستقلاليّته الشخصيّة؛ ـ الخضوع لرغباتهم الخاصّة التي تتناقض، في أحيان كثيرة، مع رغباته هو؛ ـ البقاء تحت سيطرتهم وبحالة الإتّكالية المفرطة عليهم ظنّاً منهم بأنّهم يحمونه، بذلك، تجاه صعوبات الحياة التي تعترض سير نموّه وتطوّره. قلنا «ظناً منهم» لأنّهم، في الحقيقة، مقتنعون بصحّة تصرّفهم وغير واعين أو مدركين للأذى الذي يلحقونه به.

لكن المسؤولية في ترسيخ مثل هذه الحالة الإجتماعية المَرَضيّة لا تقع على عاتق الأهل فقط بل إنّ للمدرسة والمعلّم دوراً هاماً: فالمدرسة ببرامجها التقليدية وبتعاملها مع التلميذ وكأنّه وعاء ينبغي ملؤه بمعلومات لا يهم إن كانت متلائمة مع الشخصيّة الإجتماعية أم لا، والمدّرسون بمواقفهم التسلّطية اللاواعية المثيرة لخلق البلبلة داخل التلميذ ولتعزيز سيطرة الأنا الأعلى المتصلّبة عنده...، قد ساهموا وبمقدار كبير في تكوين الميول الفُصامية عند الطفل اللبناني(٢)

باختصار يمكننا التأكيد على واقع عدم وجود إستعداد بنيوي للفُصام في

(1) Escalona (S.K), «Some considérations regarding psychotherapy with psychotic children», Bull. Meninger clin., 1948, 12, 4, 126 - 134

(٢) سيكون لنا وقفة مفصّلة عند هذا الموضوع ضمن طيّات الكتاب الذي سيتناول التربية.

شخصيّة الطفل اللبناني، والميول الفُصامية التي ظهرت عنده ليست سوى ردّة فعل نفسيّة تجاه التربية: الأسرية والمدرسية والإجتماعية، التي تلقّاها خلال سير نموّه التاريخي.

بمعنى آخر نقول: بدت هذه الميول كنتاج لتضافر جملة من العناصر التكوينية التي تتفاعل وتتداخل ضمن إطار التكامل الجدلي الوظائفي ـ النفسي لشخصيّة الفرد؛ وهذه العناصر تشمل العوامل النفسية ـ العاطفية والعقلية، الإجتماعية والتاريخية التي من شأنها، إذا تمّ التداخل فيما بينها بانسجام، إيصال تطوّر الفرد نحو التوازن النفسي المطلوب.

وقولنا هذا لا ينطبق فقط على سمة «الميول الفُصامية» بل، أيضاً، على مجمل السمات الإضطرابية المُلاحَظة عند أطفالنا على ضوء التحليل المعمّق الذي أجريناه حول المعطيات الميدانية التي حصلنا عليها من قِبَلهم خلال أبحاثنا الميدانية

II ـ الأسباب المباشرة المؤدية لتفاقم حدّة الإضطراب النفسي خلال الأحداث

في الحقيقة، هناك أسباب متعدّدة ساهم تضافر وتداخل تأثيراتها في تعزيز حالة الإضطراب التي بدا طفل الحرب، أكثر من طفل السلم، فريسةً لها. لقد ذكرنا عدداً منها أثناء مناقشتنا لمختلف السمات الإضطرابية نذّكر القارىء بأهمّها نظراً للإنعكاس السلبي المثقل بالنتائج الوخيمة التي أحدثتها في نفس الطفل:

ـ فشل الأهل، نسبياً، في تأمين وجود فعّال، واعٍ ومدرك للظروف المستجّدة التي خلقتها وضعيّة الحرب وبالتالي، في تكييف دورهم معها حتى يتمكّنوا من توفير الجو المناسب لنموّ طبيعي وسليم عند الطفل.

ـ التربية الخاطئة، في الكثير من الأحيان، التي يتلقّاها الطفل، وترعرعه ضمن إطار جوّ يساهم في خلق الصراع والإضطراب عنده بدلاً من مساعدته على التطوّر بشكل سليم. وهذا التطور السليم لا يتم إلا إذا أمّن المحيط للطفل دعائم النمو الأساسية التي تسلّحه، أثناء إجتيازه لمختلف مراحل نموّه، بشتّى

الإمكانيات التي تسمح له بالسير قدماً في طريق التطوّر الإيجابي متجاوزاً، بفضل ذلك، مختلف الحواجز التي تعترض سير تطوّره.

لكن، هناك، ضمن إطار مختلف الأسباب ذات الإنعكاسات السلبية الخطيرة على نفس الطفل، سببان بديا يغاية الدلالة والتعبير ألا وهما: الحرمان وفقدان الشعور بالطمأنينة والأمان.

١) الحرمان la frustraction

تجدر الإشارة هنا إلى وجود عدد كبير من الأطفال الذين أحسّوا بشعور فعلي هام بالحرمان ترك في نفسهم بصمات دائمة التأثير والإنعكاس المَرَضيّين إلى جانب أطفال آخرين تعرّضوا لعدد كبير من الحرمانات إنّما دون أن تطبعهم بطابعها المَرَضي؛ بهذا المعنى ينبغي فهم الأرقام المتمثّلة في الجدول الخاص بالحرمان المُلاحَظ عند أطفال الحرب دون أمثالهم الذين عاشوا خلال السلم. هذا وينبغي التنويه إلى أن ما نقصده بالحرمان يكمن في إحساس الطفل بالحرمان العاطفي لا بالحرمان من الغذاء المادّي؛ كما وتجدر الإشارة، أيضاً، لوجود حالات بدا الشعور بالحرمان عندها غير ثابت ودائم كما هي الحال، مثلاً، مع أطفال السلم حيث بدا الحرمان مرتبطاً، عندهم، بشفافية الطفل وحساسيّته تجاه وضعيّة معيّنة دون الأخرى؛ لذا لم نسجّلها ضمن إطار قائمة النتائج.

مهما يكن من أمر يمكن القول بأن للحرمان: أكان إحساساً واقعيّاً أم خياليّاً، دوراً هامّاً في إحداث الاضطراب الذي غزا شخصيّة الطفل نظراً لكونه جعل هذا الأخير (الطفل) يعيش حالة حنين دائم الى الماضي وتوق للعودة إليه والى الإحساس بالسعادة التي كان يعيشها آنذاك؛ وهذا ما يمنعه من التقدّم إلى الأمام خاصّةً وأن الحياة هي تقدّم مستمر إلى الأمام لا عودة إلى الوراء.

هنا يكمن، في الحقيقة، كنه الفرق الفاصل بين جمهوري: اطفال الحرب واطفال السلم في ما يختص باستعدادهم للإصابة المَرَضية نظراً لكون الحرمان الذي عاشه الطفل خلال السلم لم يترك عليه آثاراً سلبية تترجم عبر أعراض مَرَضية كتلك التي ميّزت طفل الحرب.

الحرمان	م . ض .				م . ت .			
	جنس		دين		جنس		دين	
	ص.	ب.	إ.	م.	ص.	ب.	إ.	م.
وضعيّة الحرب	٢٢	٢١	١٦	٢٧	٥٩	٥٣	٥٣	٥٩

جدول «رقم ٢٢»

يبدو واضحاً، من هذا الجدول، أن احساس الطفل بالحرمان يخفّ بوجود والديه إلى جانبه، فالفرق بينه وبين مثيله الموجود ضمن المؤسسة لهو ذو دلالة احصائية مرتفعة جدّاً على كل المستويات. وهذا ما يؤكّد، أيضاً وأيضاً، حاجة الطفل الى والديه خاصّةً لدى إنخراطه في وضعيّة مؤلمة كتلك التي تخلقها الحرب. من هنا نستخلص أن وجود الطفل في المؤسّسة بعيداً عن أهله، لا يرتّب الامور بالنسبة إليه بل، على العكس من ذلك، يزيدها تعقيداً وصعوبة إذ تزداد مشاعر الحرمان عند الطفل، هذه المشاعر التي تعتريه حتى عندما يكون إلى جانب أهله. لذا نقول: ليس هناك سوى حل وحيد يكمن في ضرورة وعي الأهل لدورهم وإدراك أهميّة وجودهم الفعّال إلى جانب طفلهم وبالتالي أهميّة تأثيرهم على نموّه.

هذا وينبغي عدم التسرّع واعتبار كل حرمان كمسبّب للإضطراب والمرض إذ، كما سبق أن أشرنا: على الطفل أن يتعلّم كيفيّة تجاوز بعض المواقف الحياتية الحرمانية كي يتمكّن من تحقيق نموّ لاحق يكون اكثر تطوّراً وتوازناً. . . وحده إحساس الطفل بالحرمان من حقوق مشروعة وضروريّة لسير نموّه (كحرمانه من العطف والحب والامان وابداء بعض المعارضة. . .) هو الذي يترك في نفسه انعكاسات سلبية إذ من شأنه إثارة المشاعر الاضطرابية وشحنها بداخله مثل: الشعور المتطرّف بالقلق والانطواء على الذات والشعور بالذنب والكآبة.

فضلاً عن ذلك، يمكن القول بأن الاحساس بالحرمان يرتبط، بحدّ ذاته،

بالدلالة التي ينسبها الفرد إلى الأحداث التي يعيشها (إن ضمنيّاً أم ظاهريّاً) وبالتالي بردّة فعله تجاه هذه الأحداث وبالوسائل النفسية التي يلجأ إليها هذا الفرد بهدف خفض الشعور المؤلم الذي يحدثه الحرمان في داخله. لذا يرى العديد من علماء النفس أمثال ريلاّير Rillaer أنّ العدوانية l'agressivité لا تشكّل ردّة الفعل الوحيدة على الوضعيّات الحرمانية كما اعتقد ذلك علماء نفس مدرسة يال Yalle، بل هناك ردّات فعل عديدة أخرى مثل: القلق والهروب والإستسلام والخَوَر النفسي والنكوص والنشاط العقلاني والبنائي إلى ما هنالك من ردّات فعل نفسيّة. ثم إن العدوانية لا تظهر إلاّ في حالات معيّنة[1].

هذا ويرى سميرنوف[2] بأن «عدم القدرة على تحمّل الحرمانات يساعد في التعرّف على نوعيّة عدم النضج ودرجته عند الفرد، على نوع العلاقات القائمة بينه وبين محيطه، على شحنة الكآبة المرافقة لعلاقاته الموضوعية وأخيراً، على مدى إحساسه بعدم الأمان الذي يشعر به تجاه حاجاته الذاتية وعجزه عن ضبطها.

كل ذلك يساهم في تعزيز شعوره بأن أي رفض يقابل امكانيّة اشباعه للحاجات والنزوات الشخصيّة الخاصّة به يشكّل عقاباً له على الهوامات الليبيدية التي يعجز، هو نفسه، عن ضبطها؛ وهكذا يصبح الطفل أسير الميول والنزعات التي يتوق لاشباعها والتي، بسبب توقه العارم هذا، تعزّز عنده هوامات التجزيء والخصاء.

ينطبق ما سبق قوله عن الحرمان بشكل جزئي على الأطفال موضوع أبحاثنا الميدانية: فلقد تبيّن لنا، على ضوء التحليل العيادي النفسي، بأن شعورهم بالحرمان يرتبط بالوسائل التي يلجأون إليها لإشباع نزواتهم (إشباعاً خيالياً أو واقعياً) أكثر منه بإحساسهم بعدم الأمان والطمأنينة. بمعنى آخر، لم تساعد معرفة الشعور بعدم الأمان المُلاحَظ عندهم إلاّ بمقدار محدود جدّاً على التعرّف وعلى تفسير درجة تحمّله للحرمان إذ بدا الإحساسان عنده (إحساسه

---

(1) Rillaer, op. cit., P 167 - 170
(2) Smirnoff, op. cit., P 318

بعدم الأمان وإحساسه بالحرمان) بعيدين كل البعد: من حيث المدى والدلالة، عن بعضهما بعضاً.

على كل حال، من غير الممكن إنهاء المناقشة حول الحرمان دون الإشارة إلى ما قاله كرامر Kramer[1] في هذا المضمار: يشكّل الحرمان ظاهرة عامّة تشغل الناحية الإنفعالية المكانة الأولى فيها. فهناك «حرمان يحدث نتيجة ضغط الإرتباطات القائمة بين مختلف الأفراد على الشخص: كالحرمان المرتبط بالعلاقات الأسرية والغرامية والجنسية...؛ هذا ويمكن القول بأن الفرد لا يدرك حاجاته وحتى عاداته إلاّ بمقدار ما تثيره من شعور بالحرمان في داخله. من هنا القول بإمكانيّة وجود شعور بالحرمان وراء كل حاجة أو غريزة مثل: حاجة الإنجاز والإكتساب والعدوانية والإستقلالية والفهم والإعتبار الإجتماعي والبناء والدفاع والتواضع والإنقاذ والخضوع، كما ووراء كل حس كالحاجة لتجنّب التأنيب والألم، الحاجة للحماية،...؛ وبكلمة مختصرة نقول: وراء كل نشاط من النشاطات الحياتية إحساس بالحرمان يؤمّن لها طابع الحاجة.

لذا ينبغي، لتمييز الحرمان، البدء بدراسة ظواهره الفيزيولوجية والنفسية والإجتماعية أو المَرضية، وبعد ذلك، فقط، يمكن تقويمه أي الإستنتاج إذا ما كان سمةً طبيعية وسوائية أم، على العكس، سمة مَرضيّة إضطرابية.

وفي ما يختص بدرجة تحمّل الحرمان يمكن إعتبارها، هي الأخرى، كأواليّة حيويّة توجد، بدرجات مختلفة، عند كل الكائنات الحيّة (الكائنات البشريّة بشكل خاص)؛ كما أنّها تتميّز بقيمة بيولوجية ونفسانية نظراً لكونها تتضمّن قدرة الفرد على «تنظيم عمليّة الإشباع» الذي طالما إعتبره علماء التحليل النفسي كعامل يلقي الضوء على دور السياق الخاص بالصد من شأنه تحويل الضغط الذي يتعرّض إليه الفرد نحو أنماط أخرى من الإشباع ونحو حلول أخرى تؤمّن خفض التوتّر.

باختصار نقول: إن الحرمان ودرجة تحمّله هما أواليّاتان شاملتان للإنسان

(1) Kramer (Charles), «La frustraction, une étude de psychologie différentielle», Ed. Delachaux & Niestlé, 1959, p87.

إلى أي زمانٍ ومكان إنتمى؛ فهما تتّخذان أشكالاً متنوّعة تختلف درجةً ومعنى تبعاً لعوامل متعدّدة نذكر منها: الفروق الفردية والإجتماعية ـ الثقـافية والبيـو ـ فيزيولوجية والنفسية ـ العاطفية . . .

نعود للحرمان المُلاحَظ عند أطفالنا في الجدول «رقم٢٢» لنذكّر القارىء بأنّ المقصود منه ليس ذلك الشكل العام والضروري عند كل فرد بل ما تجاوز درجة إحتمال الطفل ممّا إنعكس سلباً على نفسه التي بدت أرضاً خصبة لغزو شتّى أنواع الإضطرابات النفسية؛ ومع ذلك، يمكن القول، رغم سلبيّة الجو العام الذي يعيش الطفل ضمن إطاره (وخصوصـاً ذلك المـوجود إلى جـانب أهله)، بأن الحرمان بدا على درجة منخفضة تفسّر إستمرار قدرته على تخطّي العديد من الصعـاب؛ ومن المؤكّد بـأن هذه القـدرة ستتعزّز كثيـراً إذا أدرك الوالدان ضرورة إحداثهما للتعديل الواجب القيام به في الدور والوظيفة اللذين يؤدّيانهما إلى جانب الطفل وبالتالي في خفض التأثيرات السلبية المُحدثة نتيجة جهلهما لها.

لكنّ إحساس الطفـل بالحـرمان بـدا أقل خـطراً من إحساسـه بفقدان الطمأنينة المُلاحَظ خصوصاً عند من يعيش مع الأهل، مع العلم بأن أهم وظائفهم تكمن في تأمين الحماية والأمان له:

٢) فقدان الإحساس بالطمأنينة manque de sécurité

	م. ض.				م. ت.			
	جنس		دين		جنس		دين	
	ص.	ب.	أ.	م.	ص.	ب.	أ.	م.
وضعيّة الحرب	٧٠	٦٨	٦٧	٧١	٥٨	٥٤	٦٥	٤٧

جدول «رقم ٢٣»

يبدو فقدان الشعور بالطمأنينة أكثر تواتراً عند المجموعة الضابطة منه عند المجموعة التجريبية، والفرق بين الإثنتين ذو دلالة إحصائية مرتفعة على مستوى

مجمل الفئات الإجتماعية بـاستثناء فئة الأطفال المسلمـين؛ ويعني ذلك عجـز الوالدين عن توفير الحماية الضرورية للطفل بعكس ما دفعتنا المناقشة حول سمة «الحرمان» للإعتقاد به من حيث إرتفاع الإحساس بالطمأنينة عند من يعيش مع الوالدين بالمقارنة مع إحساس من يعيش داخل المؤسسة.

وما دفعنا لمثل هذا الإعتقاد لم يقتصر فقط على سمة «الحرمان»، بل تركّز بشكل خاص على مجمل ما جرى التأكيد عليه، مراراً وتكراراً، بالنسبة لوظيفة الأهل الأساسية وهي تكمن في تأمين الحماية والأمن لنفس الطفل التي تتنازعها شتّى المشاعر المتناقضة تجاههم: فهو يحبّهم ويتّخذهم كمثال أعلى يتماهى به إنّما، في نفس الوقت، يبدي تجاههم شتّى أنواع المشاعر العدوانية ويتّخذهم كمنافس له. . . ، هذا في الأوقات الطبيعية؛ فما القول، إذن، عندما يحدث نموّ الطفل ضمن أجواء صعبة كتلك التي تحدثها الحرب؟ من شأن مثل هذه الأجواء تعزيز مشاعر التجاذب عنده نتيجة تدخّل عناصر إضافية إضطرابية في سير نموّه. . . بحيث تصبح حاجته لتأمين الحماية له أكثر إلحاحاً وضرورةً[1].

هذا التأكيد لم يرد فقط على لسان علماء النفس بل إن الطفل نفسه شدّد عليه بأشكال مختلفة ومتعدّدة: ـ باعتباره الأهل كمصدر طمأنينـة مبدئيـة من شـأنها توفـير الإحساس بـالأمان لنفسه المنهَكة نتيجـة تعرّضهـا لشتّى أنـواع الصعوبات الحياتية التي تواجهه، خصوصاً أثناء الحرب

ـ بوصف نفسه ككائن تعيس وأكثر الناس بؤساً لدى عيشه بعيداً عن أهله مفضّلاً، عندئذٍ، الموت على العيش بظل ظروف مؤلمة وشاقّة كهذه.

ـ باعتباره الوالدين (خصوصاً الأب) ذلك الحامي من شتّى صنوف الأذى والشر التي يتعرّض لها، خاصّة وأن روابط العاطفة الطبيعية هي التي تجمع بين الإثنين

هذا وقد حملت ملاحظتنا الشخصيّة تأكيداً إضافياً أشار إليه عيـاديّون آخرون أمثال دوروثي برننغهام وآنّا فرويد وعدنان حب الله. . . ويكمن في

---

(١) د. حب الله (عدنان)، سبق ذكره، ص ٦٨

واقع عدم تأثّر الطفل بكل ما يجري حوله من مظاهر سلبية كمظاهر العنف أو غيرها إلا بمقدار ما تؤثر هذه المظاهر على والديه بشكل خاص؛ فالخطر الخارجي لا يعني له أكثر من إثارة عنيفة يبقى فحواها ومدى تهديدها مرتبطان بقدرة والديه على التحمّل. وهو، أي الطفل، عندما يتلقّى إثارات خارجية يعجز جهازه العصبي عن إحتوائها ينتفض ويذهب مهرولاً إلى أحضان أمّه أو أبيه طالباً حمايتهما؛ في الواقع لا تزال «أناه» في مهد تكوينها وهي تتحسّس معالم العالم الخارجي يسيّرها مبدأ اللذّة (أي تطلّبه لإشباع حاجاته دون تأجيل). لكنّ مبدأ اللذّة يميل للإنخفاض تدريجيّاً بحيث يحلّ مبدأ الواقع مكانه ممّا يعني بأنّه بدأ بإدراك العالم الخارجي والمحرّمات التي يفرضها على إمكانية الإشباع عنده (أي عند الطفل). من هنا يُفهَم السبب الذي يفسّر كون الإستعانة بالأهل تشكّل بحدّ ذاتها، خصوصاً في الحالات الحرجة كحالة الحرب مثلاً، حاجةً ملحّة تمكّن الطفل من السيطرة على العالم الخارجي المحيط به فيعزّز، بذلك، نرجسيّته واحترامه لذاته. هذا فضلاً عن أن محبّة الوالدين تشكّل ضمانة الطفل الأكيدة للتعويض عن النقص وعدم التكامل (النفسي والجسدي) المميِّزين له.

يقول الدكتور حب الله: «لا يمكن للطفل أن يتلمّس الخطر الخارجي ويدركه إلاّ بمقدار ما يهدّد نرجسيته المستترة في مركزه ضمن الأسرة؛ وعندما يتهيأ له ذلك ويشعر بالإطمئنان في خليّته الأسرية فلا يعطي، عندها، أهميّة كبيرة لما يحيطه من مخاطر خارجية إذ أن شرط الحماية مرتبط بمن يوجّه إليهم طلباته».

كل ذلك يفسّر ملاحظتنا لعدم تأثّر الطفل بالإحداث إلاّ بطريقة غير مباشرة أي عن طريق تأثيرها في الأهل ومقدار شعورهم بالخوف والقلق وحتى الهلع ممّا يعني بالنسبة له، إنهيار الصرح الذي يحتمي به في حال الخطر. يشكّل ذلك واقعاً يتجاوز قدرة الطفل على التحمّل والإحتواء نظراً لعجزه وعدم إكتمال تجهيزه (العصبي والنفسي) وهكذا يصبح فريسة هوامات تهدّد كيانه...

يسهل على أي إنسان التأكّد من هذا الواقع إذ تكفيه مراقبة الطفل أثناء الأحداث وانهيار القذائف ليلاحظ بأن: الطفل الموجود ضمن أجواء أسرية

هادئة رغم ضراوة القتال وانهيار القذائف العشوائية يبقى، إجمالاً، بحالة طبيعية هادئة؛ لكنّه يعكس، كما في مرآة، نفس مخاوف الأهل وفقدان سيطرتهم على أعصابهم حين يكون ضمن أجواء أسرية مضطربة؛ وهذا ما يعرّضه للصدمات النفسية والأزمات الحادّة. بكلمة مختصرة نقول: يشكّل الأهل مقياس الطفل لكل ما يمكن أن يهدّده من الخارج.

وهذا ما عنيناه، سابقاً، بقولنا إن وجود الأهل يشكّل شرطاً أساسياً وضمانةً كافية، بمقدار كبير، لكي يحس الطفل بالطمأنينة ويصبح قادراً على مواجهة الصعوبات التي تعترض سير نموّه.

لكنّ تجربة الطفل المعاشة أظهرت، للأسف وعلى ضوء التحليل النفسي العيادي، بأن الأهل كانوا دون مستوى توقّعات هذا الطفل وذلك لأسباب متعدّدة ذكرنا عدداً كبيراً منها ونذكر الآن أهمّها باختصار: جهل الأهل لخصائص ومميّزات نموّ الطفل جعلهم عاجزين عن إدراك أهميّة دورهم إلى جانبه وبالتالي عن إحداث التعديل الضروري في وجودهم ووظيفتهم بشكل يتلاءم مع المتطلّبات المستجدّة التي خلقتها وضعيّة الحرب؛ لذا بقوا مماثلين لأنفسهم قبل الحرب وخلالها (من حيث السلوك والمفروضات والأوامر الملقاة على الطفل. . .) فشكّل ذلك السبب الرئيسي الكامن وراء عجزهم عن تأمين الحماية الضرورية له. وقد ساهم في تعزيز شعور الطفل بالخيبة تجاه فشل أهله تلك الثقة التي محضهم إيّاها في هذا المجال. أما طفل المؤسسة فقد بقي مماثلاً لذاته بمعنى أنّه كان، أصلاً، أقل تطلّباً وبالتالي أكثر إكتفاءً ذاتيّاً من زميله الموجود ضمن إطار الأسرة؛ لكنّ ذلك لا يعني كونه بمنأى عن غزو الإضطراب النفسي لشخصيّته إذ أنه بدا، في حالات كثيرة، أكثر من الأول فريسةً لإضطرابات نفسية عميقة بل يعني أن الطفل يحتاج، كي ينمو ويتطوّر بشكل سوي، لوجود والدين يؤدّيان دورهما بشكل فعّال إلى جانبه إذ من غير الممكن لأيّ كان التعويض عن هذا الوجود.

على كل حال، يشير ما سبق قوله حتى الآن إلى ان كل ردّة فعل عند الفرد (هنا الطفل) ما هي سوى نتاج فريد ومتكامل لتداخل مختلف العناصر

التكوينية في شخصيّته وتفاعل بعضها مع البعض الآخر ممّا يجعل التكّهن (التنبّؤ) المسبق بالنسبة للإتّجاه المستقبلي (المَرَضي أو السوائي) الذي ستتّخذه الشخصيّة صعباً لا بلا مستحيلاً. فكل ما يمكن تأكيده يكمن في القول الآتي: تضافر العوامل الإضطرابية وتشابكها مع بعضها يزيد من انعكاسها على شخصيّة الطفل إحتمالاً.

وما يعزّز قولنا هذا (أي إستحالة تأكيدنا لواقع الإضطراب في المستقبل) يكمن في ملاحظة السمات الإيجابية في شخصيّة الطفل اللبناني كإستمرار قدرته على التركيز والإجتهاد... رغم غزو السمات الإضطرابية العميقة لها. يؤكّد ذلك، أكثر فأكثر، ما سبق أن قلناه في ما يختص بردّة فعل الطفل الخاصّة والشديدة التنويع تجاه خيبات الأمل التي مُني بها وعجزه عن إشباع رغباته وحاجاته الخاصّة: فبينما نجد بعض الأطفال يستسلمون للكسل (حسب تعبير العديد من المربّين، وغالباً عن خطأ تقويمي لحالة الطفل النفسية)، نجد البعض الآخر يلجأ للعمل والإجتهاد كمخرج للحالة التي يجدون أنفسهم فيها وكمصدر تعويضي يمكّنهم من مواجهة الصعاب والمشاكل التي تعترض سير نموّهم.

الفصل التاسع

تقويم الذيول النفسية للحرب كما بدت عند الأطفال

(موضوع الدراسات الميدانية)

لقد بدا إنعكاس واقع الحرب وخيبة أمل الطفل تجاه الأهل متشعّب الإتجاهات، كما أن تأثيره الحاسم في نفس الطفل بدا، هو الآخر، بغاية الإختلاف والتنويع. وقد تمكنّا من تقويم درجة الإصابة التي منيت بها البنية العميقة لشخصيّة هذا الطفل وتحديد درجة تأثرها بفضل محكّين أساسيين كشف عنهما التحليل العيادي هما: قدرته على الإجتهاد رغم تأثّره بالظروف الصعبة المحيطة به، وقدرته على إشباع رغباته وحاجاته الحميمة وإن بشكل خيالي:

١) قدرة الطفل على الإجتهاد Application dans le travail

	م . ض .				م . ت .			
	جنس		دين		جنس		دين	
	ص.	ب.	إ.	م.	ص.	ب.	إ.	م.
وضعيّة الحرب	٦٣	٧٥	٧٦	٦٢	٤٤	٥٩	٥٥	٤٨

جدول «رقم ٢٤»

نظرة سريعة على الجدول تكفي لملاحظة إختلاف قدرة الطفل على التفرّغ للعمل (للدرس بشكل خاص) تبعاً لإنتمائه إلى إحدى الفئات الإجتماعية التي

تكوّن الجمهور الأصلي للأطفال موضوع البحث الميداني، وتبعاً لصدى الوضعيّة المفروضة عليه ومدى تأثيرها في قدرته على التركيز؛ فلقد عبّر الطفل بنفسه عن ذلك وفيما يلي نورد ما قالته فتاة وُضعت في المؤسسة، خلال الحرب، إجابة على السؤال الذي طرحناه عليها: ـ من هو أقل الأشخاص لطفاً؟ ـ أنا ـ لماذا؟ ـ لأنّني غير مجتهدة؛ عندما كنت صغيرة، كنت ذكيّة ومجتهدة أمّا الآن فقد أصبحت كسولة وحمقاء لأنّني غير معتادة على الحياة الداخلية (أي العيش في المؤسسة)، فكل حياتي أمضيتها إلى جانب أهلي أتعلّم في مدرسة خارجية.

بالعودة إلى الأرقام المتمثّلة في الجدول «رقم ٢٤» وتأويلها نقول: يبدو واضحاً بأن تأثر الصبيان بوضعيّة الحرب يتجاوز تأثّر البنات بها (الفرق بين الإثنين ذو دلالة إحصائية على مستوى المجموعتين: الضابطة والتجريبية)؛ وكذلك القول بالنسبة لوجود الطفل إلى جانب الأهل أو داخل المؤسسة: يبدو واضحاً، وعلى مختلف المستويات، إرتفاع مدى تأثّر قدرة الثاني على التفرّغ للدرس بالمقارنة مع الأول. أمّا عامل الدين فيبدو تأثيره أقل، خصوصاً في هذا المضمار.

وبالمقارنة مع الجدول السابق الممثّل لـ «فقدان الإحساس بالطمأنينة» نجد بأن السير التأويلي لكلٍّ من الجدولين يبدو متناقضاً مع الآخر: في الواقع، يبدو أن إنخفاض إحساس طفل المؤسسة بالأمان والطمأنينة بالمقارنة مع شعور مثيله الموجود ضمن العائلة لم يدفعه، كما كان متوقّعاً، إلى التفرّغ نفسيّاً للعمل والإجتهاد بل، على العكس من ذلك، فإن قدرته في هذا المجال بدت دون قدرة زميله الموجود ضمن إطار الأسرة. يؤمّن كل ذلك برهاناً علميّاً إضافيّاً للتأكيد السابق بشأن أهميّة الأسرة (وجود الأهل إلى جانبه، بشكل خاص) كعامل أساسي وحاسم لسير نمو الطفل الطبيعي رغم كل الثغرات التي تعتري هذا الوجود.

بمعنى آخر نقول: تشكّل سمات النضج التي كشف التحليل النفسي عن وجودها عند أطفال المؤسسة مظهراً مؤقّتاً لا واقعاً مترسّخاً في بنية شخصيّتهم. والحقيقة تُقال، لقد بقي ميلهم نحو الإضطراب الصراعي أقوى من ذلك

المُلاحَظ عند من يعيشون إلى جانب الأهل؛ ثم إن إمتلاكهم، دون هؤلاء، لبعض السمات الإيجابية لم يكن كافياً لتعويض النقص الهام الذي عانوا منه نتيجة إنفصالهم عن جوّ الأسرة وهو المكان الطبيعي لنموّ الطفل بشكل طبيعي.

فضلاً عن ذلك نقول: تشكّل الأسرة، حسب رأي علماء النفس، ذلك المحيط الطبيعي الذي يترعرع الطفل ضمن إطاره؛ لذا فإنّ العلاقات القائمة بينها تحدّد، بمقدار كبير، سير تطوّره العاطفي من الناحية السوائية أو المَرَضية. وتبعاً لدرجة الطمأنينة والحماية المتوفّرة له، يصبح الطفل راشداً ويتمتّع بالتوازن النفسي أو، على العكس، راشداً مضطرب الإتّزان؛ لكن، تجدر الإشارة هنا للتمييز بين حاجة الطفل الدائمة لحماية محيطه وهي ضرورية وطبيعية بالنسبة له وبين حاجة الراشد المتطرّفة لها وهي تُعَد، بحدّ ذاتها، كشاهد على عدم تحقيقه الدرجة المطلوب تحقيقها من حيث الإكتفاء العاطفي الذاتي كي يصبح راشداً فعلياً لأن الرشد يعني تقبّل الإحساس الجزئي بالطمأنينة كمخاطرة طبيعية ينبغي تجاوزها، ممّا يعني بأن تربية الأهل لطفلهم قد نجحت.

لإيضاح ما نشير إليه لا بدّ لنا من العودة إلى خصائص مراحل الطفولة ومميّزاتها؛ سبق أن قلنا: يستقي الطفل تطلّعاته نحو المستقبل من «رغبته في التخلّص من ضعفه وصغر حجمه» حسب تعبير د. حب الله[1]؛ فهو (أي الطفل) يريد أن يكبر وينمو كي يصبح مثل والده أو والدته... يتمتّع بالقوّة ويأخذ المبادرات العديدة التي تمكّنه من تطويع الأشياء لإرادته لأن سلبيّته ورضوخه للراشدين يشعرانه بعجزه. وما الانتفاضات أو بالأحرى أزمات تأكيد الذات crises d'affirmation de la personnalité التي نشهدها عنده والتي تتمثّل بمظاهر العناد والرفض والمعاكسة... سوى دليل على هذه الثورة الداخلية ضدّ الأشخاص الذين يحبّهم ويجلّهم، خاصّة وأن إستمراريّة حياته مرتبطة بالرعاية التي يقدّمونها له لكنّه، بالمقابل، يشعر بأنّه سجين لهم لذا فهو يثور عليهم.

هكذا نراه، ومنذ سنّ مبكرة، يحاول التعويض عن عجزه وسلبيّته هذين

(١) د. حب الله (عدنان)، سبق ذكره، ص ٦٨

بإختلاق الألعاب الرمزية التي تمكّنه من قلب الأدوار بحيث يتّخذ هو نفسه دور الوالدين، مثلاً، ويعطي الدور الذي كان يقوم به في الواقع الحياتي للّعبة أو لطفل آخر فيسقط عليهما ويمثّل تجاههما ما كان يتلقّاه من الوالدين: نرى البنت، مثلاً، تأخذ دور الأم تجاه لعبتها فتؤنّبها وتوجّه لها الإنتقادات التي وجّهتها لها والدتها وكذلك، الصبي يأخذ دور الأب، مثلاً، تجاه أخوته ورفاقه أو تجاه أطفال يتخيّل وجودهم فيوجّه لهم ما لقيه هو من والده. وبهذا الإنتصار على سلبيّته، من خلال قلبه للأدوار خلال اللعب، يتسنّى للطفل بناء شخصيّته وتعزيز أناه واكتساب ما فقده في حياته الواقعية إنّما على المستوى الرمزي؛ وهكذا تتبلور، أكثر فأكثر، الوظيفة الرمزيّة عنده كلّما تقدّم بالسنّ.

وبمقدار ما تتبلور قدراته وتتطوّر تدريجيّاً، لدى تجاوزه مختلف مراحل نموّه، يتسلّق الطفل تصاعديّاً درجات سلّم الرشد والإستقلالية، ممّا يمكّنه من أخذ مصيره بيده والإستغناء عن رعاية المحيط له. وأهم مظاهر الإكتفاء بالذات عند الراشد يتمثّل، في الواقع، بثقته بنفسه واعتماده على نفسه كمصدر لبث الطمأنينة بداخله لا على البيئة المحيطة به (على الوالدين بشكل خاص).

في هذا المجال يمكن القول أن الأهل عندنا أخفقوا في تربية أطفالهم نظراً لما كشفت عنه المناقشة التاريخية ـ التحليلية في ما يختص بطفولة ما قبل الحرب وخلالها من مظاهر إضطرابية تكلّمنا عنها سابقاً، نكتفي الآن بذكر أهمّها ويكمن في إضطراب العلاقات الأسرية وبالتالي إخفاق الأهل في تأمين مثلّث مشاعر الطمأنينة بالنسبة للطفل ونعني بذلك: الحب، التقبّل وثبات وجودهم إلى جانبه.

لا يُفهمّن من ذلك حكمنا على اللبناني بأنّه لا يحب طفله؛ فالحق يُقال، إنّه يحبّه وبشكل متطرّف لدرجة العيش، مكانه، خبرات الحياة المؤلمة فارضاً عليه وبشكلٍ لاواعٍ موقف الإتّكالية والخضوع تجاهه. وهذا ما أزعج الطفل وجعله يحسّ، لا شعورياً، بأن والديه لا يتقبّلانه كما هو بل يريدانه أن يكون كما يرغبان أن يكون عليه. هذا إلى جانب إحساسه (أي الطفل) بعدم ثبات حب أهله له خاصّةً وأن هذا الحب إرتبط بمزاجهم الشخصي: فإذا كان

مزاجهم صافياً يكون بمقدور الطفل إرتكاب شتّى الحماقات، حتّى الضخمة منها، دون أي تأنيب من قِبَلهم؛ أمّا إذا كانوا معكّري المزاج فإنّه يُعاقَب، وأحياناً بشدّة متناهية لا تتناسب مع ما يقوم به ويرتكبه من حماقات.

إلى كل ذلك نضيف واقعاً هامّاً أحدثته الحرب ويكمن في الإنخفاض المتزايد لدرجة الحزم fermeté (الضعيفة أصلاً عندهم) التي يبديها الأهل تجاه الطفل: فهم يعتقدون، وعن حسن نيّة من قِبَلهم، بحسن التصرّف الذي يقومون به، بحبّهم لأطفالهم وبمساعدتهم لهم عندما يتغاضون عن الحماقات التي يرتكبها هؤلاء (أي الأطفال) حتّى وإن تخطّوا أحياناً حدود القواعد الأدبية والمسلكية. لكنّهم جهلوا، في غمرة هذا الإعتقاد، أنّهم، بذلك، يلحقون الكثير من الأذى بالنسبة لنموّ الطفل ومقوّماته الأساسية، نظراً لكون القصاص المتلائم مع الذنب المقترَف يدفع الطفل للتعرّف على القواعد الإجتماعية فيصبح، بذلك، قادراً على التمييز بين ما هو خطأ وما هو صواب، بين ما يمكن أن يقوم به ويحق له القيام به وما لا يجب القيام به. من هنا إختلاط الأمور بالنسبة للطفل وعجزه عن تمييز الخير من الشر... إلى ما هنالك من أمور يتعلّمها، أساساً، من والديه.

لقد تملّكنا إحساس دائم، لدى ملاحظتنا العملية لأسرنا (ج. أسرة)، بأن الطفل هو من يربّي أهله لا العكس إذ أن الكلمة النهائية تعود بشكل شبه دائم له، وهو ينفّذ دائماً رغباته مستعيناً، لتحقيق ذلك، بشتّى الوسائل اللاواعية من ملء الدنيا بالصراخ و...؛ وفي الحقيقة تبقى تهديدات الأهل بإنزال العقاب به لدى تصرّفه بشكل خاطىء دون تنفيذ وتفقد، بالتالي، فعاليّتها وقيمتها التربوية (لطالما سمعنا الأهل يهدّدون الطفل «ما تعمل هالشي بضربك» ورغم ذلك يبقى تنفيذه (أي الطفل) لما يودّ القيام به دون عقاب...). وهذا ما يعزّز، عند الطفل، عدم إحترامه للقيم والمعايير التربوية التي يتعلّمها من أهله ومن المربّين بشكل عام.

ساهمت هذه الأسباب، وغيرها من الأسباب المتعدّدة الأخرى، في تعزيز شعور الطفل بالضياع والتساؤل: ما الجيّد الذي ينبغي القيام به؟ وما السيّء

الذي ينبغي تجنّبه؟. . . ؛ تساؤلات شتّى تفرض نفسها عليه، بدون إنقطاع، دون أن يجد لها جواباً شافياً يمكّنه من الإحساس بالإرتياح والشعور بالثبات النفسي في غمرة جو الإلتباس المحيط به.

بدا الإلتباس والغموض مسيطرين على شخصيّة الطفل كسمة ميّزت حالته النفسية وسلوكه؛ وقد بدا وثيق الصلة بارتباط اللبناني، شأنه في ذلك شأن كل إنسان شرقي، شبه المقدّس بمجتمعه عبر إهتمامه المتطرّف بما سيقوله الآخرون الذي يحتلّ، كما سبق أن قلنا، أناه الأعلى، ذلك الأنا الصارم، القاسي، السريع الحكم والذي لا يفلت أحداً من عقابه. فالشرقي يهاب هذا الأنا، حسب تعبير د. حب الله (سبق ذكره، ص ٦٩)، يخشاه ويتودّد إليه لدرجة أن الأسرة تفضّل العيش في بؤس وتعاسة والتضحية بسعادتها على أن يصيبها حكم ذلك الأنا الصارم. «ماذا سيقول الغير» هو، في الحقيقة، سلطةٌ خفيّة وغير منظورة توزّع الأدوار على المسرح الإجتماعي.

بمعنى آخر، لا يفكّر الأهل بتعابير موضوعيّة وانطلاقاً من فهم قدرات الطفل الخاصّة به بل إنطلاقاً ممّا يراه المجتمع أو بالأحرى ممّا «يقوله الغير» حتّى وإن كان في ذلك ضياع مستقبل الطفل. الهدف الأساسي من إستعادة ما سبق أن قلناه يكمن في إعطاء التفسير الوافي الذي من شأنه إيضاح كيفيّة وحدود تقبّل الأهل للطفل لأنّه يضع إخفاق حب الأهل وثبات وجودهم إلى جانب الطفل في إطاره الصحيح والمتكامل. ولقد بدا ذلك جليّاً عند العديد من الأطفال الذين رأوا «التعاسة» و«السعادة» كتعبير عن الإعتبار considération الذي يحظى به الفرد من قِبَل مجتمعه.

وما يزيد هذا الوضع خطورة يتمثّل في عجز الطفل عن إشباع رغباته وتمنّياته وإن بشكل خيالي المنضاف إلى عجزه عن التفرّغ للإجتهاد والنشاط الفعّال. ينطبق هذا الواقع على أطفال ما قبل الحرب وأطفال الحرب على حدّ سواء:

٢) إشباع خيالي Satisfication imaginaire

	م . ض .				م . ت .			
	جنس		دين		جنس		دين	
	ص.	ب.	إ.	م.	ص.	ب.	إ.	م.
وضعيّة السلم	٤٠	٥٢	٤٥	٤٧	١٨	١١	١٢	١٧
وضعيّة الحرب	٤٦	٦٣	٥٧	٥٢	٩	٢٠	١٨	١١

جدول «رقم ٢٥»

من الواضح أن قدرة الطفل الموجود مع الأسرة على الإشباع الخيالي تتجاوز، وإلى حدّ بعيد، تلك المُلاحظة عند مثيله الموجود في المؤسسة: الفرق بين الإثنين ذو دلالة إحصائية مرتفعة جدّاً على مستوى الوضعيّتين وعلى مستوى كافة الفئات الإجتماعية. في الواقع، يبدو طفل المؤسسة عاجزاً عن إرواء غليله، وإن خياليّاً، في ما يختص بالحاجات والرغبات التي لم يسمح له الواقع بإشباعها بطريقة واقعية نظراً للمفروضات والمحرّمات (الأسريّة والإجتماعية) التي تمنع تحقيق الإشباع لأنّها لا تتلاءم مع المعايير والقيم السائدة في المجتمع.

وعلى العكس من ذلك، نجد الطفل الموجود ضمن أسرته قادراً على إيجاد المخرج الكفيل بخفض حدّة مشاعره السلبية الناجمة عن إخفاقه في تحقيق الإشباع؛ يكمن هذا المخرج في لجوئه إلى «الإشباع الخيالي» للتعويض عن خيبة الأمل العاطفية وعن نقص الإشباع الليبيدي الذي مُني به: فما لا يتمكّن من إشباعه على المستوى الواقعي يحقّقه على المستوى الخيالي؛ وهذا ما يسهم في خفض درجة التوتّر المهدِّدة لطمأنينته النفسية تَخفيضاً، بذلك، إحتمال تعرّض بنية الشخصيّة عند الطفل للإنهيار والإضطراب.

لكنّ اللجوء إلى الإشباع الخيالي سلاح ذو حدّين: إنّه إيجابي من جهة، بمعنى أنّه يخفض درجة التأثّر السلبي الناتج عند الطفل عن خيبة أمله لكنّه، من جهة أخرى، سلبي خاصّةً إذا كان لجوء الطفل إليه يتم بشكل متطرّف إذ من

شأنه، عند ذلك، إصابة مكوِّنات النمو الجوهرية ونقصد بذلك مبدأ الواقع، ممّا يعرّضه للإبتعاد عن عالم الواقع المحيط به والجنوح في طريق الفُصام.

ينبغي التنويه هنا إلى تأثّر الصبيان، في هذا المضمار، أكثر من البنات (الفرق بين الإثنين ذو دلالة إحصائية مرتفعة على كل المستويات باستثناء المجموعة التي تعيش في المؤسسة خلال السلم).

هذا وتجدر الإشارة إلى أن هذا المخرج الخيالي إيجابي أكثر منه سلبياً؛ فهو، من جهة، لا يبدو مسيطراً، ومن جهة أخرى يبدو كعامل خَفْض، وبمقدار كبير، الذيول النفسية لتأثّر الطفل السلبي بمحيطه.

ثم إن هذا الإشباع الخيالي يبدو ذا دلالة تعبيرية جدّاً لأنّه يؤمّن، بحد ذاته، دليلاً واضحاً على تفاؤل أطفالنا رغم معاناتهم، وعلى إستمرار توقهم لمغالبة الوَهَن والعجز اللذين إعترياهم عبر التماس الإشباع من أي مصدر جاء والتشبّث به بهدف إعادة التوازن الذاتي إلى نفوسهم الحائرة. وهكذا يتخلّص الجسد، بفضل هذا المزاج التفاؤلي، الحالم والطامح للتغلّب على المعاناة وعلى الذات، من ثقل الميول التي دفعت الطفل نحو ما هو محسوس ومادّي فأثقل حمله على نفسه؛ ويشكّل ميل الفرد نحو ما هو مادّي وملموس نوعاً من افتقار للثقة بالذات من شأنه دفعه (أي الفرد) نحو الإنهيار بحيث يصبح الجسد «مرهقاً تحت ثقل وزنه» وعرضةً للسقوط واختلال التوازن.

لكنّ الإنتقال من مستوى المحسوس والمادّي إلى مستوى الطموح والخيال يتعلّق، بمقدار كبير، بعمر الفرد: فالطفل، خصوصاً في مراحل نموّه الأولى، يرتفع تدريجاً من المستوى المادّي والمحسوس إلى المستوى الخيالي؛ وهذا ما يشير إلى تخلّصه التدريجي من سيطرة الناحية الحس ـ حركية على نموّه. أكثر من ذلك، يمكن القول مع آ. إبراهام A. Abraham[1] بحدوث إرتفاع من مستوى الفكر المحسوس المميِّز للمراحل الما قبل تجريبية والتجريبية في النموّ إلى مستوى الفكر المجرّد والتجارب الشكلية (حسب تعبير بياجيه). يُضاف إلى ذلك إمكانيّة تأويل هذا الميل نحو الطموح والخيال من وجهة نظر ديناميّة الشخصيّة على

(1) Abraham (Ada), «Les identifications de l'enfant à travers son dessin», (Etudes et recherches sur l'enfant), Ed. Privat, 1976, Toulouse, p170

أنّه تعزيز للثقة بالنفس عن طريق الخيال بحيث تصبح الذات قادرة على تثبيت مستويات الطموح الأكثر إرتفاعاً ومكانةً.

هـذا ويرى بـرونو بتلهـايم، على ضـوء دراساتـه، بأن الخيـال يتغذّى بالخرافات والأساطير الدينية وقصص الجنّيات... ويغني، بدوره، حياة الطفل الفكرية بما يخرج عن إطار تجربته المعاشة وسط الأسرة[1]. يمكن القول، أيضاً، إن أخبار الجنّيات تبدو كعامل أوّلي يساهم بتنمية الحس الإجتماعي عند الطفل نظراً لكونها تستجيب لتساؤلات هامة يطرحها على نفسه.

كما أن الأساطير والخرافات الدينية، القريبة من أخبار الجنّيات، تقدّم هي الأخرى موادّ هامة تساعد الطفل في تكوين مفاهيمه حول أصل العالم وأهدافه وحول المُثُل العليا الإجتماعية التي يمكنه، لا بل عليه، الإمتثال لها.

ثم إن الخيال يشكّل، بنظر بتلهايم، عنصـراً جوهـرياً في نمـوّ الطفـل المتكامل إذ تكمن المهمّة الأكثر أهميّة في التربية اليوم، كما كانت الحال في كل الأزمنة، بمساعدة الطفل على إعطاء معنى لحياته؛ وهو (أي الطفل) بمقدار ما يكبر، يتعلّم أكثر فأكثر كيف يفهم نفسه بشكل أفضـل فيصبح، في الـوقت نفسه، قادراً على فهم الآخرين وعلى إقامة علاقات تبادليّة معهم من شأنها تأمين الإشباع والإرتياح للجميع (له ولهم).

ولإكتشاف المعنى العميق لحياة الإنسان على الفرد، بنظر بتلهـايم، أن يكون قادراً على تجاوز حدود فرديّته أي حدود وجوده الضيّق الإطار والمتمركز حول الذات؛ وعليه، كذلك، الإقتناع بقدرته على الإبداع الفردي إن لم يكن حاليّاً فعلى الأقل مستقبليّاً، بحيث يضيف إلى الإبداع البشري السابق، الذي حمله أفراد آخرون وقد تجلّى إبداعهم وتقدّمهم في الأعمال التاريخيّة، إبداعاً فردياً يسطّره بتاريخ فرديّته الخاص به. فجوهر الإنسان، في نظرنا كما في نظر العديد من المفكّرين أمثال ق. زريق[2] وغيره، هو «قابليّته للتحرّر و لإكتساب الكرامة

(1) Bettelheim (Bruno), «Psychanalyse des contes de fée», coll. «Réponses»,Robert Laffont, Paris, 1976, p36 - [illegible] et 13 - 14

(٢) زريق (قسطنطين)، «نحن والتاريخ»، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٧٤، ص ٢٢١

الذاتية. ولقد إختاره الله تعالى من بين المخلوقات كلّها وغرس فيه البذور التي إذا نميت بالجهد المتواصل والرعاية الساهرة تفتّحت وأثمرت حرّية وكـرامة». هذا الشعور ضروري بالنسبة للإنسان حتّى يرضى عن ذاته وعمّا يقوم بـه؛ ولكي لا يكون تحت رحمة مصادفات الحياة، على الفرد تنمية قدراته الداخلية فتشكّل، آنذاك، مصدراً تستقي منه مشاعره وخياله وعقله بحيث تتغذّى الثانية من الأولى وتغذّيها. هذا ويمكن التأكيد على أن مشاعر الفرد الإيجابية تجاه نفسه تؤمّن له القوّة الكفيلة بتنمية حياتهَ الفكرية خاصّـةً وأن ثقته بـالمستقبل هي الوحيدة القادرة على دعمه في المجابهة التي يبديها تجاه كل ما لا بد أن يعترضه من عوائق وصعاب لا يمكنه تجنّبها في الحياة.

تُفهم، من كل ما سبق قوله، أهميّة الخيال في نمّو الطفل لكن شرط أن لا يشكّل وسيلة يستعملها بشكل متطرّف. هذا ويمكن القول إن درجة تقبّل الطفل للحرمان بدت مرتبـطة، وبشكل وثيق، بقـدرته عـلى تحقيق الإشباع الخيـالي (تكفي مقارنة نتائج الجدولين «رقم ٢٢» و «رقم ٢٥» لإدراك هذا الإرتباط)؛ وهذا ما يفسّر، بمقدار كبير، المظهر الإيجابي المرافق لهذا الإشباع (الخيالي).

مهما يكن أمر الإيجابية المرتبطة بالإشباع الخيالي نعود لنشدّد على ضرورة عدم تجاوزه حدوداً معيّنة وإلاّ شكّل ذلك العتبـة seuil لتحوّل الـطفل نحـو المنحى المَرَضي المتمثّل في «الإبتعاد عن الواقع». في الحقيقة، يمكن القول، لا بل التأكيد، على أن تجاوز طموحات الفرد لقدرته على التنفيذ الواقعي تميل لرفع درجة إحتمال إنسحابه (أي الفرد) من عالم الواقع المحيط به والإستسلام لعالم هوامي من نسج خياله معرّضاً، بذلك، إرتباطاته الفعلية مع واقعه الخارجي. وأخطر ما في هذا الواقع يكمن في كونه يقوده نحو البناء الذُهاني الذي يتمثّل أساساً بـ: تجزيء في نمّو الأنا الذي يظهر من خلال هشاشة العلاقة التي تربط الفرد بالواقع المحيط به، ونضوب لـلإتّصال بهـذا الواقـع، والوقـوع فريسـة التمحور النرجسي حول الذات، واختلال أنماط التفكير واللغة عنده (أي عند الفرد)، وخصوصاً إختلال صورة الجسد والتباين الهائل بين القدرات الفعلية

والهوامات الخيالية. . . يشكّل كل ذلك الأرض الخصبة لظهور النزوات البدائية وسيطرتها على سلوك الفرد وخياله[1].

نفس اللوحة العياديّة للبناء الذُهاني نجدها عند برجيريه Bergeret[2] في ما يختص بمميّزات البنية الفُصامية واستقرارها عند شخص معيّن؛ فهو يقول بهذا الصدد: «يُعرف الطبع الفُصامي، خارجيّاً، من نضوب علاقة الفرد بمحيطه وميله نحو الإنطواء على الذات ونشاطه الداخلي المُكثّف. . .» هذا وتكون «الحياة الهواميّة غنية جدّاً، وكذلك القول بالنسبة لأحلام اليقظة التي تكون وافرة وغزيرة والتي تسهل سيطرتها على قطاع الوعي عند الفرد. فبمقدار ما تثبّت الحياة الخياليّة طاقاته النزوية على الداخل، يتحقّق ذلك على حساب قطاع النشاط الفعّال، الواعي والظاهري عنده».

ملاحظتنا للعديد من هذه السمات الإضطرابية عند الأطفال، موضوع أبحاثنا الميدانية، تبرّر الخوف الذي طالما عبّرنا عنه بخصوص وصول الطفل اللبناني لعتبة الإنحدار النفس ـ مرَضي وبشكل خاص عتبة «الفُصام» schizophrénie والوقوع فريسة التجوّل الذهني في عالم الخيال والوهم وعدم الإتّساق بين المزاج والفكر عنده خاصّةً وأن فقدان هذا الإتّساق يشكّل أعلى درجات الإضطراب النفسي وأخطرها. من هذه السمات نكتفي بذكر: إضطراب علاقة الطفل بمحيطه (بوالديه خصوصاً)، ضعف الأنا عنده، إضطراب الصورة التي كوّنها عن ذاته، ميله المتطرّف نحو الإعتزال والإنطواء على الذات تجاه الأسرة والرفاق والمحيط بشكل عام. . .

وجود مثل هذه الأعراض عنده يعزّز شعورنا بسهولة إنحداره نحو المنحنى المَرَضي البنيوي، إلاّ إذا تدخّلت عناصر إيجابية مستجدّة على خط النموّ والتطوّر عنده كـ: تأثير أشخاص آخرين عن غير قصد منهم، تغيّر الظروف الحياتيّة الصعبة المفروضة عليه، . . . من شأن تدخّل مثل هذه العوامل الإيجابية خفض التأثيرات السلبية المُحدثة عند الطفل نتيجة إخفاق الأهل فيما يختص

(1) Ajuriaguerra, op. cit., p776
(2) Bergeret (J), op., cit., p202

بالدور والوظيفة اللذين عليهم تأمينهما تجاهه، وعيشه (أي الطفل) ضمن أجواء الحرب المشحونة بالعنف والسلبية.

نودّ هنا لفت إنتباه الأهل لواقع لاحظناه أثناء ممارستنا العياديّة لمهنتنا: لقد لمسنا تحسّناً ملموساً عند الطفل بالنسبة لحالته النفسية ولقدرته على تجاوز الصعاب وبشكل سريع بدا نتيجة إدراك الأهل للأخطار المهدِّدة لطفلهم إثر تصرّفهم السلبي غير المقصود وإحداثهم للتعديل المطلوب القيام به في تصرّفهم تجاهه تبعاً للنصائح التي قدّمناها لهم. ولقد فوجئنا، غالباً، بالتحسّن السريع وغير المتوقّع الذي طرأ على سلوك الأطفال لدى تعديل الأهل لسلوكهم تجاهه فكان السبب المباشر المسؤول عن خفض درجة الصراع الداخلي المعتمل في نفسه.

لقد شكّلت هذه الملاحظة السبب الرئيسي الذي دفعنا، في الواقع، للقيام بواجبنا الإجتماعي وتقديم خبرتنا المتواضعة علّها تساهم في إستفادة الأهل منها خاصّةً وأنّنا، أثناء قيامنا بمحاضرات توعية في مدننا وقرانا، لمسنا توق الأهل العارم للمعرفة التي تساعدهم على إدراك، واجباتهم تجاه فلذات أكبادهم (أطفالهم) فيؤمّنوا لهم، عندها، مساعدةً إيجابية فعّالة من شأنها دعمهم ومساعدتهم على تخطّي الصعاب التي تعترض سير نموّهم وتطوّرهم.

خلاصة جزئية

قدّم إنعاطفنا على إنعكاس واقع الحرب على الطفل ومحاولة فهمه على ضوء إختباراته الإسقاطية التي هدفنا منها تأمين قاعدة علمية وعمليّة للتأكيدات والتعميمات التي أطلقناها في طيّات هذا الكتاب، ومختلف الكتب التي سبقته وستليه، دليلاً وتبريراً موضوعيين وعلميّين توفّرا لنا بفضل إعتمادنا مبدأ إلتقاء السمات (داخل نفس الإختبار وعبر مختلف الإختبارات أو الروائز).

لقد ظهر لنا، بما لا يقبل الشك أو الجدل، أهميّة، وبوجه خاص ضرورة، وجود الأسرة إلى جانب الطفل كي يتمكّن من التطوّر بشكل طبيعي وسوائي لكن شرط أن يكون وجودها هذا فعّالاً لا صورياً أو شكلياً؛

بـ«فعّال»، نقصد حاجة الطفل لأسرة متماسكة، متناغمة وعاطفية كما وصفها هو نفسه وإلاّ، أي في حال كانت الأسرة غير متماسكة وغير مدركة لخصائص ومميّزات نموّه، فإنّها تؤذيه (وأحياناً كثيرة بدرجة مرتفعة جدّاً) معتقدةً بأنها تساعده. وأكثر من ذلك نقول: يمكن أن تشكّل عائقاً في طريق نموّه السوي إعتقاداً منها بأنّها توجّهه وتربّيه.

تأكيدنا لما قيل لم يتم بشكل عشوائي بل إنطلق من المبدأ العلمي الذي يعتمد على ضرورة القيام بتشخيص نفساني معمّق أي: تطبيق الروائز وتحليلها (إحصائياً وعيادياً) وتأويلها على ضوء مختلف المعطيات المتوفّرة عن طريق إعتماد وسائل علمية ـ نفسية أخرى كالملاحظة والمقابلة العياديّة...، وكل ذلك إنطلاقاً من مبدأ المقارنة القائمة على مستوى المتغيّر المستقل Variable indépendante «إنعكاس واقع الحرب على الطفل» والمتغيّرات الأخرى التابعة Variables indépendantes المُتّخذة كعوامل إرتكزت عليها مقارنتنا الإحصائية والعيادية: ـ الوضع الأسري: وجود الطفل ضمن الأسرة أو داخل مؤسسة (ميتم orphelinat)؛ ـ الجنس: كون الطفل صبياً أو فتاة؛ ـ الدين: إنتماء الطفل إلى الديانة الإسلامية أو المسيحية، وهما الديانتان الأساسيّتان اللتان تشكّلان جناحي المجتمع اللبناني.

وهذا التشخيص النفساني أظهر بأن موقف «الخضوع والإتّكالية الدائمة» الذي يفرضه الوالدان على الطفل تجاهها قد شكّل النواة الأساسية التي هيّأته للوقوع فريسة الصراع والإضطراب...! لا عجب في ذلك لأن الطفل المتطرّف الخضوع والإستسلام تجاه الأهل كموقف يتّخذه لتجنّب فقدان محبّتهم له، يضحّي في الحقيقة، بنواة تكوينية جوهريّة في بناء شخصيّته: لقد تمّ موقفه الإمتثالي والخضوعي لأهله، غالباً، على حساب رغبته لا بل حاجته في إبداء بعض المعارضة لهم كي يتمكّن من تأكيد ذاته تجاههم. وأخطر ما في هذا الموقف يتمثّل بتعوّده على الإنحناء، دائماً ودون تمييز، أمام كل الضغوطات الإجتماعية التي ستُفرَض عليه لاحقاً والتي تمثّل تلك الأنا العليا الصارمة التي طالما تحدّثنا عنها؛ وكل ذلك يتحقّق على حساب حق الأنا عنده في تثبيت

كيانها، عبر المعارضة الضرورية تجاه الأهل والآخرين، كي تصل للنضج المطلوب تأمينه فيحقّق الفرد إستقلاليّته الشخصية.

نتساءل هنا: هل كان بمقدور الطفل التصرّف بشكل مختلف؟ وهل كان يمتلك حريّة الإختيار؟ والجواب البدائي على هذا التساؤل يكمن في النفي إذ لم يكن بمقدوره، في الحقيقة، إلاّ الخضوع للأهل كي يحافظ على حبّهم وإهتمامهم به وإلاّ فأمامه الخيار الآخر: معارضتهم، لكنّ ذلك يعني خسارة هذا الحب وفقدانه. إنّما، سبق ان تحدّثنا مطوّلاً عن حالة العجز التي تميّز تجهيز الطفل (النفسي والجسدي) وعدم إكتماله ممّا يعني حاجته لهذا الحب الذي يقدّمه الوالدان له والذي يشكّل، بالنسبة إليه، الضمانة الوحيدة التي من شأنها تعويضه عن عدم التكامل الجسدي والنفسي المميّز لنموّه؛ لذا، من الطبيعي أن يميل نحو الخيارالأوّل. لكنّ النتائج التي ترتّبت عن هذا الخيار بدت، للأسف، ذات ذيول نفسية إنعكست سلباً على بنية شخصيّته؛ في الواقع، بدت هذه الشخصيّة ترزح تحت ثقل المعاناة والإستعدادت المَرَضية الناجمة، أساساً، عن ضعف الأنا. وقد زاد هذه المعاناة شدّةً، عدم قدرة هذه الأنا تنفيس ما يعتمل في داخلها إلى الخارج ممّا إضطرّها إلى مضغه وإبقائه في الداخل على إخراجه وبالتالي تحمّل النتائج الوخيمة المترتّبة نتيجة الإسقاط والتعبير عمّا لا يحظى بقبول المحيط.

أمّا أخطر نتائج ضعف هذه الأنا فقد بدا في عجز الطفل عن تجاوز المرحلة الأوديبية؛ ولقد سبق أن تحدّثنا، وبالتفصيل، عن خطورة ذلك وانعكاسه السلبي على إمكانيّة هذا الطفل تحقيق مرحلة الرشد والإستقلالية الفردية.

شكّل ذلك السبب الرئيسي لإستمرار مظاهر «الطفالة» عند اللبناني (بشكل عام) رغم الصراع النفسي المرير الذي خاضته «أناه» بهدف المحافظة على إستمرار توازنها عبر محاولات تعويضية متعدّدة بدأت بمحاولة تعويض «القصور العاطفي» الذي عانت منه إلى جانب أشخاص موجودين ضمن إطار

محيط الطفل المباشر كالإخوة والأصدقاء والأساتذة؛ لكّن هذه الوسيلة باءت بالفشل نظراً لطبيعة التثبيت la fixation المَرَضية التي طبعت علاقته بهم.

وإخفاق الأنا في هذا المجال دفعها نحو إستعمال الوسيلة التعويضية الأخرى ونعني بها لجوء الطفل إلى الأوالّيات الدفاعية لحماية نفسه من المخاطر (الخارجية والداخلية) المهدِّدة له مثل: النكوص، الصد، الإنهيار (الخَوَر النفسي)، الشعور بالذنب،... لكنّ هذه الوسيلة باءت، هي أيضاً، بالفشل لسببين رئيسيّين يكمن أوّلهما في لجوء الطفل إليها بشكل متطرّف وثانيهما في إفتقار الأنا للنضج إذ لا يمكن لهذه الأوالّيات تحقيق الهدف المنشود منها إلاّ إذا تمتّعت الأنا، التي تلجأ إليها، بالنضج الكافي لتمكينها من لجم هذه الأواليات وتوجيهها بدلاً من أن تكون موجَّهة من قِبَلها: وهذا ما يفسّر تحوّل هذه الأواليات إلى عوامل إضطرابية...

والنتيجة المحتومة لهذا الإخفاق المتكرّر بدت من خلال السمات المَرَضية التي هيّأت الطفل للإضطراب العميق مثل: الميول الفُصامية والقصور الذاتي والإنطواء على النفس...؛ وما عزّز وجود هذه الإضطرابات عنده يكمن في شعوره (أي الطفل) بعدم الأمان والطمأنينة المُرفَق بإحساس بالحرمان تجاوز قدرته النفسية على الإحتمال وبشعور بالعزل والإبعاد من قبل محيطه (من قِبَل والديه بشكل خاص).

لكنّ أهم ميول الطفل واستعداداته المَرَضية يبقى غموض هويّته والصورة التي كوّنها عن ذاته والإنكماش الذي ميّز شخصيّته، ممّا عزّز، عنده، فقدان ثقته بنفسه وبالآخرين.

تجدر الإشارة هنا إلى ان مجمل الفئات الإجتماعية الممثّلة لجمهور الأطفال الأصلي بدت مهدَّدة بالإضطراب النفسي؛ إنّما يمكن القول أن درجة هذا الإضطراب ومدى تأثيره قد إختلفا تبعاً لعوامل متعدّدة نذكر منها: مكوّنات الفرد الشخصيّة الخاصة به، وجود الطفل إلى جانب الأسرة أو بعيداً عنها (داخل مؤسسة مثلاً)، كونه ذكراً أو أنثى، إنتماؤه للدين الإسلامي أو المسيحي، وبشكل خاص الوضعية المحيطة به (وضعيّة حرب أو وضعية

سلم. . . ؛ لكنّ أهم هذه العوامل تأثيراً على نموّ الطفل وتوازنه النفسي وانبنائه الشخصي تمثّل في تأثير الأسرة وطبيعة العلاقات القائمة بينها وبين الطفل: فالعاطفة التي منحته إيّاها بدت منقوصة، غير ثابتة ومرتبطة بمزاج الوالدين لا بحاجات الطفل الطبيعية. يُضاف إلى كل ذلك واقع هام يكمن في عدم تشجيع الأهل لطفلهم وتمكينه من إبداء بعض المعارضة تجاههم والظهور كما هو لا كما يريدون هم، وبالتالي من تأكيد شخصيّته وفرادته.

وما لفت إنتباهنا يكمن في ملاحظتنا تداخل مراحل نموّ الأطفال (موضوع أبحاثنا) بعضها في البعض الآخر: ففي سنّ ينبغي على الطفل معها أن يتهيّأ للدخول بمرحلة الإستقلالية (سن العاشرة والحادية عشرة) لاحظنا عنده صراعاً أوديبياً حيويّاً مع العلم أنّه كان من المتوقّع أن يكون قد تجاوزه منذ فترة طويلة أي منذ السادسة من عمره. وقد زاد هذا الصراع حدّةً، معاناة الطفل من صراعات حيوية أخرى تناولت هويّته الشخصيّة وصورة الذات عنده. . . ممّا ساهم في إبقائه فريسةً لتجاذب المشاعر والإنطواء على الذات.

كما أنّ ما لفت إنتباهنا أيضاً في التحليل العيادي النفسي، الخاص بكل طفل وبمجمل الأطفال، موضوع الأبحاث الميدانية، تجاذبه (أي الطفل) ما بين ميول ورغبات متناقضة تنقله من قطب نفسي إلى قطب آخر مناقض له: فهو يرغب، لا بل يتمنّى بأن يصبح كبيراً وراشداً لكنه، في الوقت نفسه، يتمنّى البقاء صغيراً كي يتمكّن من الإستفادة من إهتمام الأهل وحبّهم ورعايتهم له، وهو يحب هؤلاء (أي الأهل) إنّما يجد نفسه مضطرّاً لكرههم نتيجة الحرمان الذي يكبّدونه إيّاه. . .

يُضاف إلى كل ذلك إلتباس التماهي عند الطفل: فهو يتمثّل بهذا الشخص أو ذاك لإعتبارات فرديّة وإجتماعية تفتقر بحدّ ذاتها لوجود النماذج الواضحة التي يمكنه محاكاتها والتمثّل بها في ما يختص بضرورة تعلّمه الذكورة والأنوثة، لا بهدف محاكاة هذا الشخص (الذي يتماهى به) قصد إكتساب صفات الرجولة أو الأنوثة المميّزة للراشد كذكر أو كأنثى مدعوّين لأن يشكّلا

عضوين يكمّل أحدهما الآخر ضمن إطار المجتمع كإمرأة وكرجل (كلّ طفل حسب جنسه).

للأهل في هذا الإستعداد المَرَضي، الشديد الإرتفاع حدّةً ودرجةً، دور رئيسي طالما تحدّثنا عنه، وبالتفصيل، نظراً لإفتقار وجودهم بجانب الطفل إلى المعرفة الواعية والمدركة لأواليّات التربية ومسلّماتها.

وهكذا تضافرت كل هذه العوامل الإضطرابية وتداخل بعضها مع البعض الآخر فكانت النتيجة الحتميّة والمنطقية لذلك إرتفاع درجة إحتمال إصابة الطفل بالإضطراب البنيوي العميق في المستقبل.

لا بدّ لنا، لإختتام هذا الجزء، من التوقّف عند الفروق الإحصائية المُلاحَظة بين مختلف الفئات الإجتماعية المكوِّنة للجمهور الأصلي، وبشكل خاص عند الخطوط العريضة والعامّة التي كشفت عنها نتائجنا الميدانية:

ينبغي التذكير، بادىء ذي بدء، بالإفتراضين اللذين شكّلا المنطلق العملي لبحثنا وهما الآتيان: «يرتبط توازن الطفل النفسي، بمقدار كبير، بالتوازن الحاصل داخل الأسرة وبشكل خاص ذلك المستتب بين ثنائي الزوجين» و «يرتبط تأثير الحرب على الطفل بالفئة الإجتماعية التي ينتمي إليها». هذا وقد ركّزنا، منذ المقدّمة، على إعتمادنا للمنهجية النفس ـ عيادية المُقارنة التي من شأنها تأمين الإطار الوافي للتأويل والتفسير الخاصّين بمختلف السمات (إضطرابية كانت أم سوائية) المُلاحظة عند الأطفال، موضوع أبحاثنا الميدانية، والتي طالت وضعيّتي: السلم والحرب.

يمكننا التأكيد، على ضوء مختلف السمات النفسية التي توقّفنا عندها مطوّلاً في طيّات هذا الكتاب، على أهميّة وضرورة وجود الأسرة (الوالدين بشكل خاص) إلى جانب الطفل كي ينمو ويتطوّر بشكل سليم. وتأكيدنا هذا يستند، في الواقع، على الفروق ذات الدلالة الإحصائية المرتفعة المُلاحَظة بين المجموعة الضابطة (مجموعة الأطفال الذين يعيشون ضمن الأسرة) والمجموعة التجريبية (مجموعة الأطفال الموجودين في المؤسسة) حيث بدا إستعداد أطفال المجموعة

الأولى للإضطراب أقل عمقاً ودرجةً من ذلك المُلاحَظ عند أطفال المجموعة الثانية، هذا على مستوى وضعيّة السلم. إنّما على مستوى وضعيّة الحرب فلقد بدت صحّة هذا الإفتراض ظاهريّاً عرضة للشك.

قلنا ظاهرياً إذ، في الحقيقة، بدت حاجة الأطفال للأسرة خلال الحرب أشدّ إلحاحاً ويكفي لإدراك ذلك ملاحظة العوامل الإضافية التي دخلت على خط نموّهم نتيجة الأحداث والتي إنعكست سلباً على تطوّرهم؛ يمكن ترجمة هذا الإنعكاس كالآتي: بالإضافة إلى قصور وجود الأهل الفعّال بجانب الطفل الذي بقي، خلال السلم، محدود التأثير والإنعكاس السلبي، هناك وقائع جديدة بغاية التعقيد والإضطراب أدخلتها الحرب مثل: تعميق إحساس الطفل بعدم الأمان وشعوره الدائم بالتهديد على حياته وإحساسه الفعلي بالحرمان. . .

هذا وقد أظهر تأويل السمات المماثلة المُلاحَظة على مستوى وضعيتي: السلم والحرب وتلك المُلاحَظة فقط، على مستوى وضعيّة الحرب صحّة الإفتراض hypothèse الثاني «يرتبط تأثير الحرب بالفئة الإجتماعية التي ينتمي إليها الطفل»: في الواقع، لم يكن بإمكاننا حصر إنعكاسات الحرب السلبية على الطفل دون معرفة الإضطرابات التي كان يعاني منها خلال السلم؛ ومقارنتنا لنتائج الدراستين سمحت لنا، في الحقيقة، بتقويم هذه الإنعكاسات وباستخلاص الثوابت الآتية: ـ وجود الأسرة ضروري، ودور الوالدين جوهري كي يتمكّن الطفل من تحقيق تطوّره الطبيعي واجتياز مختلف المراحل المتتابعة والمتواصلة في نموّه. لا بل يمكن القول: إن الأسرة هي العامل الوحيد القادر على تأمين الإحساس بالحماية والطمأنينة لنفس الطفل عندما تغزوها مختلف مشاعر التهديد وفقدان الأمان الناتجة عن الحرب (براهين علميّة متعدّدة، قدّمناها في طيّات هذا الكتاب، تؤكّد هذا الواقع).

ـ إخفاق الأسرة اللبنانية، نسبيّاً، في القيام بدورها إلى جانب الطفل (غالباً عن جهل من قِبَلها لخصائص الطفولة وبالتالي لما ينبغي عليها فعله)؛ وقد أكّد ذلك الطفل نفسه وملاحظتنا الميدانية ومختلف آراء العاملين في هذا المضمار

قلنا «نسبيّاً»، لأن إخفاق الأهل إرتبط، بدوره، بعوامل متعدّدة يبقى

أهمّها المتغيّرات التي إتّخذناها كقاعدة عمليّة لأبحاثنا ونقصد بها: وضعيّة البلاد، جنس الطفل، دينه ووجوده ضمن الأسرة أو داخل المؤسسة.

لكن، يمكن القول، بشكل عام، أن الأسرة اللبنانية لم تكن على مستوى متطلّبات الطفل المُعتبرة كحقوق طبيعيّة مشروعة له؛ وعلى ضوء اللوحة العيادية المرسومة في طيّات هذا الكتاب سنحاول إعطاء لمحة سريعة من شأنها إيضاح الأفكار الرئيسية في هذا المجال:

يجري نموّ الطفل، أساساً، في إطار آليّة منظمّة نسبياً ضمن خلفيّة ثابتة من النشاط، وهذا النشاط يؤمّن عامّةً إستقرار أواليّات التنظيم الذاتي. أمّا وظائفيّة هذا النموّ فتبدأ إنطلاقاً من الإتّحاد الوثيق الذي يربط الطفل بأمّه بحيث تختلط الأنا باللا - أنا والخارج بالداخل. وخلال هذه المرحلة الأوّلية من النموّ يتساءل الجسد الذي لا يزال عبارة عن نشاط حركي حسب تعبير ڤالون، ويستجيب بفضل إنفتاحه على الحوار العلائقي المميِّز لمراحل النموّ التالية حيث يُجابه إختيار الطفل، طبعاً حسب المرحلة التي يمر بها وضمن الحدود التي تسمح بها فيزيولوجيّته، بمفروضات المحيط المتجدّدة أو بموافقته.

لكن، بالمقابل، لا يشكّل إشباع كل رغبات الطفل عاملاً إيجابياً بنّاءً؛ فبعض الحرمانات، خصوصاً تلك الموجَّهة نحو ما لا يُعد كحاجات طبيعية وكعناصر بنائيّة في شخصيّته، ضروريّة جدّاً لنموّه. أكثر من ذلك يمكن القول: يبقى عدد كبير من الحرمانات دون إنعكاس سلبي إذ، تبعاً لنوعيّة متطلّباته الحميمة، يتعلّم الطفل، وإلى حدّ بعيد، كيفيّة التأقلم مع العالم الخارجي المحيط به بفضل تنظيمه للإشباعات البديلة والمتلائمة مع الواقع الخارجي.

وهكذا يصبح بإستطاعة الطفل القيام ببعض الوظائف عن وعي وإدراك من قِبَله ويتحمّل البعض الآخر المفروض عليه. تجدر الإشارة هنا للتمييز بين ممارسة الطفل لوظيفة وتكبّده لها، فهما شيئان مختلفان؛ بمعنى آخر نقول: على تنظيم الطفل المتكامل (عضوياً ونفسيّاً وعاطفياً واجتماعيّاً...) مطاوعة الواقع الخارجي إنّما تبعاً للنسق العلائقي المميِّز له إذ أنّه يتقبّل طوعاً بعض

المفروضات الإجتماعية بينما يجد نفسه مضطّراً لتحمّل البعض الآخر قسراً أو حتى لرفضه. ونمطا التقبّل والرفض هذين يحدثان عنده تنظيماً وظائفياً أو، أحياناً، تنظيماً مضاداً، يرتبطان بشكل وثيق بعوامل متعدّدة أهمها: شخصيّة الطفل ونمط إنبنائها الخاص، الطريقة التي فُرضت معها هذه الوظيفة أو تلك، شخصيّة كلٍّ من الوالدين (الأم بشكل خاص) وردّة فعلها تجاه مواقف الطفل، . . .

بكلمة مختصرة نقول: لفهم ما هو جسدي - نفسي psychosomatiqueينبغي أخذ عدد من العوامل بعين الإعتبار:

- نموّ المشاعر والإنفعالات وأهميّتها ضمن التنظيم الشامل للشخصية
- الدور الذي يلعبه شريك الطفل في التعبير عن هذه الإنفعالات والمشاعر
- القيمة (من حيث النوع والكم) التي تتّخذها الوظائفية العضوية، وبوجه خاص التبادلات الحاصلة بين الطفل ومحيطه إذ من شأنها التأثير، مستقبلاً، على وظائفيّة الجهاز العصبي المركزي أثناء تطوّره. فقيمة إنتظام هذا النشاط تكمن في قدرة الطفل على الإتّصال مع الآخرين حيث يشكّل التعبير اللفظي أحد أشكاله المتأخّرة الظهور؛ وهو، بدوره، يرتبط، وبمقدار كبير، بالفائدة التي يجنيها الطفل من تجاربه الشخصيّة (تجاربه الغلمية érotiques بشكل خاص)، وبنوع الإستجابة التي يحدثها عند شريكه.

ثم إن قيمة هذا النشاط التعبيري ترتبط، أيضاً، بالحياة الهوامية المبكرة التي يعيشها الطفل «حيث تشكّل الأعضاء الفاعلة جزءاً لا يتجزّأ من عالمه الخاص وحيث تختلط مع العالم الخارجي. فالجهاز الحشوي (أي المتعلّق بأحشائه) يكوِّن الحقل الذي تدور أواليّات الإجتياف (إدخال الأشياء) introjection، وبشكل مبكر جدّاً، ضمن إطاره» (أجورياغيرا، سبق ذكره، ص: ٨٥).

وعمليّة تقويم جهاز معيّن ترتبط، أساساً، بعدد من الأواليات التي تسهّل، حسب عمر الفرد، التعبير المشار إليه أعلاه عبر قناة معيّنة مخصّصة لذلك. كما أنّها ترتبط، أيضاً، بالوظيفة الرمزيّة (التي سبق أن أشرنا إلى أهمّيتها

وسير تطوّرها في طيّات كتابنا السابق) وبالنتيجة التي يحصل عليها الطفل لدى إستخدامه لهذه الوظيفة.

إنّما لفهم إختيار الطفل لقناة معيّنة - ينبغي فهم عدد من العناصر التكوينيّة: - ما يشعر به الطفل لدى استعماله لهذه القناة؛ - كيفيّة تقبّل الأم أو فرضها لهذه القناة على الطفل؛ - ردّة فعل كلٍّ من الإثنين (الطفل والأم) لدى إستعمالها.

بالإضافة إلى ذلك، يشكّل النشاط الذي يقوم به محيط الطفل المباشر (الأب والأم خصوصاً)عاملاً هامّاً جدّاً في سير النشاط وتنظيمه عند الطفل، في مراحل نموّه الأولى بشكل خاص. في الواقع، يمكن للواقع الخارجي تحويل مسارّ آليّة هذا النشاط بفضل ما يفرضه على الطفل من شروط تُحدِث عنده أنماطاً جديدة من النشاط؛ لكن، ينبغي أن يبقى تأثيره (تأثير المحيط) محدوداً ومعتدلاً خاصّةً عندما يبلغ الطفل سنّاً معيّنة وإلاّ آذى تطوّر هذا الأخير: هذا ما يحدث، للأسف، في مجتمعاتنا الشرقية حيث يتميّز تدخّل الأسرة والمربّين في حياة الفرد بالتطرّف حتّى لدى بلوغ هذا الفرد سن الرشد.

ممّا سبقت الإشارة إليه يمكن استخلاص ما يلي: «يتميّز النمو، في البداية، باختلاط الإنفعال مع النمو العصبي - الحركي ويحدث التعبير عنهما بشكل حرّ نسبيّاً؛ لكن ما إن يبدأ تأثير تناقضات الحياة في الدخول على خط النمو عند الطفل حتّى يستحيل على الطاقة المحرِّكة له أن تظهر خارج إطار نُظُم معيّنة. ثم، تبدأ فيما بعد قدرته على التحرّك بشكل حر مع بداية التنظيم الحاسّي واللفظي والفكري عنده بحيث يصبح الطفل قادراً على التصرّف بقدر معيّن من طاقته وعلى إكتساب نوع من الإستقلالية في ما يختص بعالمه الحشوي (بأحشائه). فإذا لم يتمكّن الطفل، خلال هذه المرحلة، من التعبير عن إنفعالاته: إن عبر النشاط الفعلي أو عبر النشاط اللفظي، هناك إحتمال كبير لأن تزداد إمكانيّة تعرّض حياته الفطرية الأساسية للإضطراب.

يُفهم، من ذلك، غنى إنّما وفي الوقت نفسه تعقيد تطوّر الطفل الهشّ، هذا صحيح، لكن المالك لمجموعة من القدرات المتنوّعة التي يستقي منها الطفل، فيما بعد، أسس تطوّره المستقبلي؛ من هنا يُفسَّر سبب إعتبار السنوات

الست الأولى من حياة الطفل، وعن حق، كقاعدة جوهرية وأساسية للنمو. إنّما لا يعني ذلك أنّها تشكّل المرحلة الوحيدة في تكوين هذا النمو الـذي يتتابـع باستمرار منذ لحظة الإخصاب حتى سن الرشد، حيث يتّخذ النمو، عندئذٍ، تسميةً أخرى «النضج» تتلاءم مع وضع الـراشد الـذي تكون شخصيّتـه قد تشكّلت لكنّهـا تبقى قابلة للتحـويل والتعـديل بشكـل يتناسب مـع الخبرات الجديدة التي يعيشها.

بالعودة الى الطفل نضيف أنّه ليس صفحةً بيضاء يطبع عليها المجتمع (الأهل بشكل خاص) كل ما يريـد بل هـو، على العكس من ذلـك، كائن يمتلك، منذ الولادة، نواة شخصيّته الخاصّة به والفريدة من نوعها. لكنّ هذه النواة الفردية تحتاج لحقل خصب وملائم لنموّها كي تتبلور قدراتها وطاقاتهـا الفطرية: إنّها بحاجة لاهتمام الأهل ولها الحق في توفير الرعاية والعطف والحنان والأمن والغذاء (المادّي والمعنوي على حـدّ سواء). ومن هـذا الباب الـواسع يدخل تأثير المحيط (تأثير الوالدين بشكـل خاص) عـلى خط النمو لأن هـذه الشخصية الفردّية الهشّة والسريعة العطب تحتاج لجوّ ملائم لتطوّرها التدريجي كي تتكوّن وتنبني وبكلمة مختصرة، كي تنمو.

والأطفال الذين شكّلوا الجمهور الأصلي لأبحـاثنا الميـدانية قـد اجتازوا مختلف المراحل المسّماة «مراحل الطفولة» وهم على عتبة الدخول لمرحلة المراهقة. إنهم، بالتالي، تعرّضوا لتأثير مجمل تدخّلات الاهل والمجتمع الأكبر، كما أن عناصر شخصيّتهم التكوينية قد تكوّنت وانبنت وإن كانت لا تزال بحاجة للكثير من العناية كي تتمكّن من تحقيق البناء النهائي الذي سيوصلها الى سن الرشد والاستقلالية.

لذا لا يمكن فهم مختلف السمات الاضطرابية المُلاحَظة في شخصيّتهم إلاّ انطلاقاً من الإطار المعرفي، المـذكور أعلاه، الذي يمكّننـا من فهم المسؤولية الضخمة الملقاة على عاتق الأهل الذين أخفقوا نسبياً، كما سبق أن ذكرنا، في القيام بمهمتهم الى جانب هؤلاء الأطفال.

كما يُفهم بشكل خاص، الخوف الذي طالما عبّرنـا عنه في مـا يختص

بإمكانيّة انزلاقهم نحو المرض الحقيقي نظراً للميل الاضطرابي الشديد الإرتفاع (درجةً وحدّةً) الذي بدا عندهم. من شأن هذا الميل الاضطرابي أن يزداد عمقاً إذا بقي الأهل على جهل بالنسبة للانعكاسات السلبية المحدَثة في نمو هؤلاء الأطفال نتيجة ممارستهم لدورهم ووظيفتهم إلى جانبه وطالما لم يقدّموا العلاج الذي من شأنه تعويض الأذى الذي الحقوه بهم. في الواقع، ذكرنا مراراً وتكراراً كيف شكّل الأهل عائقاً في طريق نمو الطفل بدلاً من مساعدته على التطوّر بشكل طبيعي.

هذا ويمكن التأكيد على أن ضرورة تعويض الأذى المُلحَق بنمو الطفل بدت أمراً اكثر إلحاحاً خلال الحرب بسبب تدخّل عوامل اضطرابية جديدة احدثتها الحرب، من شأنها تهديد: وحدة الطفل ونزع الشعور بالأمان من نفسه الحائرة والمضطربة. وهذا ما يفسّر، بمقدار كبير، الاضطراب العميق الذي لاحظناه عند طفل الحرب والذي تجاوز، نوعاً وكمّاً، ذلك المُلاحَظ عند طفل السلم.

نعود ونكرّر: بدا وجود الأسرة إلى جانب الطفل كشرط أساسي وإلى حد بعيد كافٍ ليتمكّن هذا الأخير من تجاوز الصعاب التي تعترض طريق نموّه. يتطبق هذا القول على حالة السلم فما القول، إذن بحالة الحرب حيث تزداد الصعاب وتتعقّد أكثر فأكثر؟ يمكن القول، طبعاً، إن وجود الأهل يصبح اكثر إلحاحاً وكذلك القول بالنسبة لضرورة تعديلهم للدور والوظيفة اللذين يقومان بهما الى جانب الطفل كي يتلاءما مع متطلّباته (الطفل) وحاجته الماسّة للطمأنينة والأمان. لكن، للأسف، بدا الأهل مماثلين لأنفسهم قبل الحرب وخلالها وهذا ما سبّب عجزهم عن القيام بمهمّتهم كما ينبغي

كما يُفهم، اخيراً، السبب الذي جعل طفل الحرب فريسةً للأعراض النفس ـ مرضية اكثر من زميله طفل السلم، ولظهور سمات مَرَضية ظهرت عند الأوّل دون الثاني.

الخلاصة النهائية

لايمكن أن تكون الخلاصة سوى استنتاج جامع لأهم الافكار العامّة التي وردت ضمن طيّات الكتاب والتي تمكّن القارىء من فهم ردّات الفعل الخاصّة عند الطفل لدى معايشته لوضعيّة صراعية كتلك التي تخلقها الحرب والوسائل النفسية التي يلجأ اليها لمواجهة هذه الوضعية.

سبق أن ذكرنا بأن هدفنا الأساسي للتعرّف على هذا الطفل انطلق منه أي من خبرته المعاشة الكفيلة وحدها باعطائنا صورة صادقة عن واقع معايشته للأحداث وتكبّده لتأثيرها؛ من هنا كان لجوؤنا للدراسة الميدانية التي حقّقناها على مستوى الطفولة اللبنانية والتي مكّنت الطفل من عرض واقعه بنفسه (إن بشكل مباشر ام بشكل غير مباشر) سمحت لنا بربط مختلف المعطيات المتنوّعة المصادر: العمليّة والنظريّة، العياديّة والنفسية والإجتماعيّة ـ الثقافية، السياسية والدينية. . . . بعضها بالبعض الآخر.

وقد رشح عن عملنا الميداني هذا لوحة عياديّة شاملة حول الطفل الذي تتجاذبه مجموعة من المشاعر المتناقضة نظراً لكونه يعيش، من جهة، في جوّ مشحون بأحداث الحرب مع ما يرافق ذلك من تأثيرات سلبية من شأنها انتزاع كل شعور بالطمأنينة والسلام عنده واستبداله، على العكس، بشعور دائم أو مؤقّت بالخطر والتهديد على حياته؛ ومن جهة أخرى فهو يعيش إلى جانب أسرته (والديه بشكل خاص)، يشكّل الدور الذي تقوم به تجاهه عامل أمان يبث الطمأنينة والارتياح في نفسه التي أنهكتها مختلف المشاعر السلبية المُحدَثة فيها نتيجة سيطرة جو العنف عليها

من هذه اللوحة الشاملة ننطلق، في الحقيقة، لاتّخاذ مواقفنا العامّة من مسألة واقع الحرب وانعكاسها على الطفل:

نركّز، بادىء ذي بدء، على محكّ السواء الذي بدا، على ضوء هذه اللوحة، مرتبطاً وبشكل وثيق بدرجة التأقلم التي يحقّقها الطفل تجاه الوقائع (الداخلية والخارجية) مشكّلاً، بذلك، العتبة الفاصلة بين منحدري: السواء

والمرض. في الواقع، بدت الصعوبة التي وجدها الأطفال، موضوع أبحاثنا الميدانية، في التأقلم مع محيطهم العتبة لبداية انزلاقهم باتّجاه المنحنى النفس - مَرَضي تترجم ذلك عبر أعراض مَرَضية خفيفة حيناً وعميقة احياناً إنّما مرتبطة كلّها ببعضها ضمن إطار التنظيم البنيوي الشامل لشخصيّتهم المتكاملة.

تجدر الإشارة هنا الى أن هذا التنظيم لا يبدو للعين المجرّدة؛ لذا كانت المنهجية النفسية ـ العيادية المسلّحة التي لجأنا اليها خير معين ساعدنا في الكشف عن بنية الشخصية العميقة الغور والشديدة التأثر بتدخّل المحيط (وبالأخص الوالدين) في سير بنائها المَرَضي أو السوي.

هذا وقد بدت مسئولية الأهل في تكوين هذه الأعراض عند الطفل ضخمة جدّاً نظراً لتميّز موقفهم منه بعدم التفهّم لحاجاته الطبيعية وفرضهم عليه موقف الخضوع والاستسلام الذي عزّز الصعوبة التي يجدها في ما يختص بقدرته على إقامة علاقات ايجابية مع الآخرين ممّا انعكس سلباً على نموّه العام وبوجه خاص على قدرته في تجاوز المرحلة الأوديبية من نموّه.

دفعنا كل ذلك للتساؤل: بمَ تكمن مساهمة وجود الأهل في تطوّر الطفل؟ خاصّةً وأن الأنا العليا التي تكوّنت عند من يعيش ضمن الأسرة بدت اكثر صرامةً وقسوة من تلك التي كونّها من يعيش ضمن المؤسسة، فشكّل ذلك عاملاً ساهم في إضعاف «أنا» الطفل وقدرتها على تحقيق مختلف الوظائف المنسوبة اليها.

هذا بالإضافة الى غموض الهويّة والصورة التي كوّنها الطفل عن ذاته والتي ساهمت بخفض قدرته على الإنفتاح ممّا ميّز شخصيّته بسمة الإنكماش نتيجة عجزه عن تنفيس صراعاته الى الخارج... فساهم كل ذلك بتعزيز احساسه بعدم الأمان وبالكآبة المُلاحَظين عنده بشكل اعمق من ذينك المُلاحَظين عند من يعيش داخل المؤسسة.

لكن رغم وجود الثغرات المتعدّدة التي اعترت دور الأهل الى جانب الطفل، فقد بدت الأسرة كشرط أساسي وهام لنمو الطفل وتطوّره، وما

الأعراض المرضية الإضافية الملاحَظة عند اطفال الحرب نتيجة عيشهم للوضعية المفروضة عليهم سوى الدليل القاطع على اهميّتها وذلك ليس بشهادة العاملين في هذا المضمار فحسب بل بشهادة الطفل نفسه الذي وصف حالته بالبؤس والتعاسة وبدون أي معين عندما يكون بعيداً عن أسرته، وبشهادة النتائج العمليّة لأبحاثنا الميدانية.

من الضروري، إذن، أن تعدّل الأسرة طبيعة وجودها الى جانب الطفل والدور الذي تقوم به لمساعدته على تحقيق نمّوه وتطوّره بشكل سليم؛ لكنّ ذلك لم يحدث وللأسف، وهذا ما يفسّر ظهور الأعراض الإضافية المُلاحَظة عند اطفال الحرب دون اطفال السلم مثل: الخضوع والإستسلام المتطرّفين تجاه الأهل، تأخّر النضج، انكماش الشخصية، القصور الذاتي، مضغ الصراع الداخلي وصعوبة تنفيسه الى الخارج، ضعف الأنا، التأخر العاطفي المرفق بمحاولة مَرَضية لتعويضه، الكآبة، النهك النفسي، الاحساس الفعلي بالحرمان، فقدان الشعور بالطمأنينة، . . . .

تجدر الإشارة هنا الى ان المسؤولية في ما وصل اليه الطفل من ضياع واضطراب بدت، على ضوء التحليل العيادي، موزّعة على مختلف الراشدين الموجودين ضمن إطار محيط الطفل وإن كان للأهل فيها حصّة الأسد، ممّا انعكس سلباً على نفس الطفل وتكوين شخصيّته. لكن بالأهل نقصد: الأب والأم لا الأم وحدها كما درج إعتقاد المجتمع الشرقي عليه.

ومسؤولية الأب تتوضّح، بمقدار كبير، عبر التقويم السلبي الذي يكنّه الطفل له: في الواقع، بدا هذا الأب غائباً عن مسرح وجود طفل السلم (غياباً معنويّاً وجسديّاً)، غير ثابت في حضوره (عندما يحضر الى المنزل) وضعيف. . . ومع ذلك، فقد أبدى هذا الطفل حاجته اليه وبأشكال متعدّدة تمّت غالباً على حساب الأم (خصوصاً عند الطفل المسلم). من هنا يُفهَم ضياع الطفل والتباس دور وصورة الوالدين عليه، خاصّةً وأنه بحاجة لتكامل دور كل من الأب والأم ومساندتها لبعضهما كي يستطيعا تأمين الوظائف المطلوب قيامهما بها

ضمن إطار الحياة الأسرية وإلاّ فلن يتمكّن أيٌّ منهما تأدية دوره ووظيفته كما ينبغي وبالتالي، من توصيل تربية الطفل الى الهدف المنشود.

الى جانب الأهل هناك دور المعلّم ومسؤوليّته في اخفاق التربية الخاصّة بالطفل؛ وكذلك القول بالنسبة لدور المجتمع الأكبر كمؤسسة تشمل مختلف الأعضاء الذين يكوّنونه وارتباط بعضهم ببعض ضمن اطار بنية وظائفية منظّمة ومتكاملة حيث لكل فرد دوره ووظيفته. فمسؤولية هذا المجتمع بدت ضخمة ومثقلة بالنتائج السلبية التي ساهمت في بثّ الاضطراب بنفس الطفل عبر الاضطراب المُحدَث في نفوس الأهل والمربّين والمسؤولين عن هيكليّة المجتمع نزولاً، في الخط البنيوي، الى مختلف أعضائه.

بالعودة الى نقطة الانطلاق، أي الى أهميّة الأهل في تحقيق نمو وتطوّر سليمين عند الطفل، نؤكّد بالأدلّة والبراهين وبما لا يقبل الشك حاجة الطفل (أيّ طفل كان وإلى أي مجتمع انتمى) الى وجود أسرته بجانبه نظراً للعناصر التكوينية التي توفّرها له والتي تصب، بشكل عام، في خانة بثّ الطمأنينة والدفء العاطفي والإحساس بالأمان والارتياح حتى في حالة السلم. فما القول، إذن، في حالة الحرب حيث تزداد حاجة الطفل لها نتيجة تدّخل عناصر صراعية من شأنها تهديد مشاعره الداخلية بالأمان والارتياح؟

نؤكّد، بالتالي، اهميّة حصول التوازن داخل الأسرة وخصوصاً داخل «الكوبل» الوالدي (ثنائي الزوجين)، ما بين الأب والأم لتأمين التوازن النفسي عند الطفل.

كما نؤكّد، على ضوء التحليل العيادي، تأثير الحرب السلبي على الطفل وإن اختلفت درجة وحدّة هذا التأثير باختلاف الفئة الاجتماعية التي ينتمي اليها الطفل أي باختلاف:

ـ الوضع العائلي، حيث تأكّد لنا بالبرهان القاطع عجز المؤسسة في أن تكون بديلاً عن الأسرة مهما كانت صفات العاملين فيها ومهما وفّرت من وسائل مادّية يعجز الأهل عن تأمينها للطفل: في الواقع، بدا جو الأسرة مثيراً للاضطراب هذا صحيح إنّما بقي أكثر فائدة لنمو الطفل من جو المؤسسة

ـ الجنس، حيث بدا الصبي كما البنت بغاية الاضطراب وإن اختلف تأثيره، نوعاً وكمّاً، تبعاً لمختلف السمات الاضطرابية المُلاحظة عندهما. وأهم ما امكننا استخلاصه يكمن في تعارض ملاحظاتنا العلمية مع الأفكار الشائعة في المجتمع اللبناني بشكل عام وفي المجتمعات الشرقية بشكل خاص، المتحاملة على العنصر الأنثوي والقائلة دائماً بدونيّة الفتاة تجاه تفوّق الصبي والتي لم يثبتها لا الواقع الحيوي حيث اثبتت الفتاة جدارةً لا يمكن انكارها تعادل جدارة الصبي وذلك في ميادين الحياة المختلفة ولا النتائج العملية حيث ثُبت تأثر الصبي والبنت بالوضعيّات الحياتية المفروضة عليهما.

ـ الدين، حيث بدا تأثّر الطفل المسلم كما المسيحي بالوضعيّات المفروضة عليهما مماثلاً في الكثير من الحالات وإن بدا الواحد منهما أقل اضطراباً من الآخر على مستوى بعض السمات الاضطرابية فقد بدا اكثر اضطراباً على مستوى البعض الآخر من السمات.

ـ أمّا واقع الحرب فقد بدا الأكثر تأثيراً على نفس الطفل إلى أيّة فئة اجتماعية انتمى؛ وقد بدا الفرق بين طفل السلم وطفل الحرب ذا دلالة مرتفعة جدّاً عند كل الفئات الاجتماعية وعلى مستوى مختلف السمات الاضطرابية.

على ضوء هذا العرض الشامل لأهم الخطوط العريضة التي وردت في طيّات هذا الكتاب نلخّص موقفنا النهائي والعام بما يلي:

ينعكس واقع الحرب سلباً على حساسيّة الانسان وعلى سياق تفكيره الطبيعي بشكل تحوّل مفاجىء وعميق إذ أنّه يُحدِث انقلاباً في تفهّمه وتقبّله مجمل القيم: اخلاقية كانت او اقتصادية او اجتماعية او سياسية... فظاهرة العنف، المرافقة عادةً لوضعيّة الحرب، تؤثّر على كل انسان راشداً كان أم طفلاً وبالأخص على الطفل الذي يتميّز بعدم الاكتمال النفسي والجسدي.

لكنّ تأثّر الطفل يمكن أن ينخفض بوجود الوالدين الى جانبه وبالتالي فإن عوامل التأثير تتحدّد، بالدرجة الأولى، بمقدار تأثّر الوالدين بها. إلاّ أن هذين الوالدين يعيشان ضمن إطار جو دولي، الى جانب جو وطني، مُفعَمين بمظاهر

العنف المتنوّعة التي اكثر ما يخيفنا منها يكمن في التقبل النفسي لانسان اليوم لها بشكل طبيعي بعد أن اصبحت حدثاً يوميّاً عابراً.

أمّا تأثّر المجتمع اللبناني بهذا العنف ونتائجه، خصوصاً في مرحلة ما بعد الحرب، فيبدو من خلال حالة الاضطراب وبوجه خاص حالة الاتّكاليّة المفرطة (على الأهل وعلى الآخرين) التي يعيشها لا الطفل فقط بل الشاب وحتى الراشد اللبناني؛ وهذا لا بد أن ينعكس على المجتمع في خصائصه الرئيسية.

هذا إلى جانب الاضطرابات المتعدّدة التي استوطنت نفس الطفل اللبناني، نتيجة الحرب الدائرة على ارض بلاده؛ هذا الطفل الذي يشكّل عماد المجتمع ومستقبله. وخطورة هذه الاضطرابات تكمن، أساساً، في كونها لا تشكّل مظاهر خارجية بل عناصر تكوينية لشخصيّته المتكاملة

أمّا كيف تبرز هذه الاضطرابات؟ ـ أولاً، في صعوبة تأقلم هذا الطفل مع المحيط الذي يعيش ضمن إطاره ممّا كوّن العتبة في انحداره باتّجاه المرض النفسي المرتبط ضمن إطار التنظيم البنيوي والشامل في شخصيّته.

ـ وثانياً، في الاضطرابات العقلانية إذ أن الطفل اللبناني يعاني من صعوبات جمّة في إقامة علاقات متوازنة وسليمة مع محيطه ساهم في تغذيتها اضطراب علاقته مع والديه، اضطراب علاقة والديه ببعضهما، اضطراب صورتها ودورهما خصوصاً بغياب الأب الذي افقده إمكانيّة القيام بدوره ضمن إطار الأسرة كعنصر أساسي يساعد الطفل على اجتياز مختلف مراحل نموّه وتحقيق الرشد النفسي.

والسؤال الكبير الذي لا بدّ أن يتبادر الى ذهن كل قارىء: إذا كان الطفل معرّضاً في شخصيّته لهذه الدرجة بفعل الحرب، فأي انسان ينتظره كل مجتمع يعاني من ويلات الحرب؟ وما القول بالنسبة للسلبيات غير المنظورة التي تصيب اعمق اعماقه وتمتد، حتى بعد انتهاء الحرب، على امتداد اجيال مقبلة؟

هذا هو كنْه الصرخة المدوية التي اطلقناها منذ مقدّمة هذا الكتاب، وهذا هو السبب الرئيسي الذي دفعنا لدقّ ناقوس الخطر داعين الى ضرورة إدراك

الجميع لمدى تأثيرات الحرب وذيولها وانعكاساتها السلبية والى وجوب العمل على إزالة هذه الآثار إنّما على ضوء تخطيط ناضج ودراسات عملية وعلمية شاملة. ولعلّ المسؤولية الملقاة على عاتق الدولة تبقى الأهم والأشمل في هذا المضمار.

ربّ معترض على تعميمنا الاضطراب على كل طفل وكل مجتمع يعاني من واقع الحرب، على ذلك نجيب: صحيح أن نوع الاضطراب (النفسي والجسدي) يختلف باختلاف المجتمعات وقيمها ومعاييرها...، إلاّ أنّ واقع الانعكاس السلبي للحرب يبقى حقيقةً أكّدتها كل البحوث (ومن ضمنها البحث الذي قمنا به) المُحقَّقة في هذا المضمار على يد مختصّين ينتمون الى مجتمعات وثقافات مختلفة.

المراجع

نظراً لتنوّع المواضيع الرئيسية المُعالجَة ضمن طيّات هذا الكتاب فضّلنا فصل المراجع الخاصّة بكل منها كي يتمكّن القارىء من تكوين فكرة واضحة حول الإطار المرجعي المتعلّق بالحرب من جهة وبالعائلة والطفل من جهة أخرى، وهما موضوعي الكتاب المركزيين:

- أسد (م)، «منهج الإسلام في الحكم»، بيروت، ١٩٧٥[1]
- الجسر (باسم)، «الصراعات اللبنانية والوفاق (١٩٢٠ ـ ١٩٧٥)»، در النهار للنشر، بيروت ١٩٨١
- الحزب الشيوعي اللبناني:
  - «وثائق الحركة الوطنية اللبنانية، ١٩٧٥ ـ ١٩٨١»، بيروت
  - «معركة شعب لبنان والمرحلة الجديدة لحركة التحرّر الوطني العربية»، منشورات الحزب الشيوعي، بيروت، ١٩٧٧
  - معركة رئاسة الجمهوريّة ستقرّر مصير الجمهورية»، محسن ابراهيم (الأمين العام لمنظمة العمل الشيوعي في لبنان)، لجنة الثقافة والإعلام، ١٩٨١
  - «التعايش الإسلامي ـ المسيحي، كيف وعلى أي أساس؟»، منشورات المركز الوطني، بيروت، ١٩٨١
- الخرساني (غادة)، «المرأة والإسلام»، منشورات دار النهار، بيروت، ١٩٨٠
- الديري (ع)، «مجزرة شكّا»، منشورات ميني برس، ١٩٧٦
- الرافعي (م)، «الإسلام، نظام انساني»، بيروت، ١٩٦٨
- الزين (ح)، «الإسلام والتطوّر الحضاري»، دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٨١

---

(١) دار النشر غير مذكورة على مستوى بعض المراجع نظراً لعدم وجودها في المرجع الأصلي

- السودا (ي)، «تاريخ لبنان الحضاري،» بيروت، ١٩٧٢.
- الصلح (مُنَح)، «المارونية السياسية»، كتاب السفير للنشر، لبنان ١٩٧٧
- الصالح (س)، «النُظُوم الإسلامية»، بيروت، ١٩٦٨
- «القرآن الكريم»، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف، المملكة العربية السعودية، ١٤٠٦ هـ
- القرم (ج)، «التنمية مفقودة» (دراسات في الأزمة الحضارية والتنموية العربية)، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨١
- القوتلي (ح)، «الإسلام والحكم»، مركز السفير للمنشورات، بيروت، ١٩٧٥
- باز (ج)، «الوسيط في القانون الإداري اللبناني»، بيروت، ١٩٧١
- بقرادوني (ك)، «السلام المفقود» (عهد الياس سركيس ١٩٧٦ - ١٩٨٢)، دار عبر الشرق للمنشورات، بيروت، ١٩٨٦ (الطبعة السادسة)
- بولس (ج)، «تاريخ لبنان»، بيروت، ١٩٧٢
- بيهم (ج)، «عروبة لبنان، تطوّرها في القديم والحديث»، بيروت، ١٩٦٩
- بيلاني (ب)، «قوانين الأحوال الشخصيّة في لبنان»، مكتبة الدراسات العربية العليا في القاهرة، القاهرة، ١٩٧١
- جحا (مصطفى)،
  - «أيّة عروبة؟ أيّة قضيّة؟»، بيروت، ١٩٧٧
  - «في سبيل وطن وقضيّة»، بيروت، ١٩٨٠
- جنبلاط (ك)، «حقيقة الثورة اللبنانية»، بيروت، ١٩٥٩
- حتّي (ف)، «لبنان في التاريخ»، بيروت منشورات الاتّحاد، ١٩٥٩
- الشيخ خالد (حسن)، مفتي الجمهورية اللبنانية، «المسلمون في لبنان والحرب الأهلية»، دار الكندي، بيروت، ١٩٧٨
- خويري (أ)،
  - «الحوادث الطائفية في لبنان» (بين الأمس واليوم ١٨٦٠ - ١٩٨٣)، منشورات دار الأبجدية، ترجمة كتاب «اضطهاد المسيحية في ١٨٦٠»، تأليف فرانسوا لونورمان F. Lenormand، ١٨٦٠.

● «الصمود اللبناني»، منشورات الهيئة الشعبية، الكتائب اللبنانية، ١٩٧٥ - ١٩٧٩، بيروت

- سالم (ي)، «خمسين سنة مع الناس»، منشورات دار النهار، بيروت، ١٩٦٧
- الشيخ شمس الدين (م)،

● «أحكام أهل الذمّة»، منشورات دار الشيخ صالح (جـزآن)، دمشق، ١٩٦١

● «العلمانية»، بيروت، ١٩٨٠

- شيفر (شيمون)، «كرة الثلج» (أسرار التدخّل الاسرائيلي في لبنان)، ١٩٨٤
- صليبي (ك)، «تاريخ لبنان الحديث»، منشورات دار النهار، ١٩٦٧
- العلاّمة عزّ الدين (م)، «الإسلام وقضايا السّاعة»، دار الأندلس، لبنان، ١٩٨١
- عنداري (ب)، «الجبل. . . حقيقة لا ترحم»، بيروت، ١٩٨٥
- غزال (عبد الكريم)، «الطريق الى بيروت غير آمنة» (قصّة الحرب اللبنانية من البدء إلى النهاية)، مطابع دار القبس، الكويت، ١٩٧٧
- فارس (و)، «التعدّدية في لبنان»، الكسليك، بيروت، ١٩٧٩
- مالك (ج)، «الله في لبنان»، دار الكلمة، بيروت، ١٩٦٦
- مـالك (ح)، «الأحـوال الشخصيّة للطوائف المسيحيـة في سوريـا ولبنان»، بيروت، ١٩٧٢
- مغيزل (ج)، «العروبة والعلمانية»، دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٨٠
- مطر (ف)، «سقوط الامبراطوريّـة اللبنانيـة» (الجزء الأوّل: الشرارة)، دار القضايا، بيروت، ١٩٧٦

الجرائد اللبنانية[1]

- الأنوار، «الاسلام والعلمنة»، ٢٥ آذار، ١٩٧٦
- العمل،
  - مناقشات حول «الطائفية في لبنان» (ملحق خاص). أسبوع الفكر الملتزم، ٢٨ آب، ١٩٦٩
  - مناقشات حول «دور المدرسة في تجاوز الطائفية»، اسبوع الفكر الملتزم، ٢٦ - ٣٠ آب، ١٩٦٩
  - المارونية رسالة تحرير مشرقية»، الأب نعمان (ب)، ١٣ شباط، ١٩٧٧
- النهار، «المارونية بين الدين والدولة»، الأب نعمان (ب)، ٣٨ حزيران، ١٩٧٢
- الحوادث (مجلّة اسبوعية)، الدكتور عدنان حب الله «الآثار النفسية للحرب اللبنانية»، عدد ١١١٩، ١٤ نيسان ١٩٧٨، ص ٦٧ - ٧٠
- الحسناء (مجلّة اسبوعية)، «الآثار غير المنظورة للحرب اللبنانية» تحقيق أحمد زين، عدد ١١١٥، ٢٠ - ٢٧ تموز ١٩٨٤، ص ١٥ - ١٧

Bibliographie

- Azar (A), «Les instructions politiques libanaises», In: «Revue juridique et politique, indépendance et coopération», N°2, Avril-Juin, 1969
- Bakradouni (K), «structure des Kataëb», Mémoire D.E.S. sciences politiques (ronéotypée), Beyrouth, 1967
- Bouthoul (G), «traité de polémologie» (sociologie des guerres), Payot, Paris, 1970
- «La cause Libanaise», Dossier N°11 du 17 fév, 1976, pub. Kaslik, Liban.
- Charaf (G), «communautés et pouvoir au Liban», Ed. CEDRE, Beyrouth, 1981
- Chevalier (D), «La société du mont-Liban à l'époque de la révo-

(١) كل الجرائد اللبنانية، الصادرة منذ اندلاع الحرب اللبنانية حتى اليوم، انعكفت على الأحداث وعلّقت عليها؛ لكن لا يهمّنا سوى الأعداد التي اشتملت على مواضيع تهمّنا بشكل مباشر

lution industrielle en Europe», Paris, Librairie orientale, Paul Geuthmer, 1971
- «Le Coran»,, trad franç. du prof Edward Montet, Paris, Payot, N°40-41
- Cordahi (P), «Le droit successoral des communautés non-musulmanes au Liban», thèse en Droit (ronéotypée), Paris, 1968
- Dahdah (N), «Evolution politique du Liban», Beyrouth, 1964
- Documents Huvelin, «statude personnel, textes en vigueur au Liban», traduits et rassemblés par Mahmassani (M) et Messarra (I), faculté de Droit et des sciences économiques, Beyrouth, 1970
- «Dossiers de la cause Libanaise», N°11 du 26 fév. 1976, publi. Kaslik, Liban.
- Fattal (A), «Le statut légal des non-musulmans en pays d'Islam», Beyrouth, Imprimerie catholique, 1958
- Le Front Libanais, «La guerre libano-Palestinienne», centre libanais d'information, Beyrouth, 1978
- Gannagé (P),
  - «L'état face au pluralisme des statuts familiaux au Liban», In: «Rev. juridique et politique, indépendance et cooporation, «Législation comparée», 1° fascicule, Paris, 1957, P157
  - «l'état et la justice des communautés au Liban», Ibid, 1968, P649
- Gardet (L.), «La cité musulmane», Paris, Vrin, 1976
- Gheorghiu (V),«Christ au Liban»(de moïse aux Palestiniens), Ed. Plon, France, 1979
- Grotius, «De jure Belli», t1, chap.1, par. 2, cité par bouthoul (G), op. cit., P25.
- Hacker (F), «Agression, violence dans le monde moderne», Ed. Calmann Lévy, 1972 (trad. de l'allemand par Rémi Laureillard et Hélène Bellour).
- Haddad (J.P), «Le combat du Liban, pour qui? pour quoi?» ed. Henri conchon, France, 1976
- Hebdomadaires libanais:
  - Le Nouveau Magazine, -«Le président du changement», N°1291 du 1° Mai, 1982, P18
- «La stabilité du Liban: une garantie pour la sécurité arabe et internationale», par scarlett Haddad, N°1298 du 19 Juin, 1982, P21
- «Il était une fois un président» par Bélinda Ibrahim, N°1312 du 25 sept. 1982, P3-9

- «Halte au désastre du système éducatif», n°1313 du 2 oct., 1982, P56-59
- N°1317 du 30 oct. 1982: «1964-1965, un an de mon mandat», par l'ex-président Charles hélou, P3-11; «Rendez-vous dans six mois», par l'ex-ministre d'information et de la justice Roger Chikhani; «La morale du «chater», par Vatchet-David Superdlian, P42
- N°1307 du 21 août 1982, «Le problème Palestinien. Une cause juste bien mal servie», par Jean Lipkowski («Le Figaro» du 12 août 1982), P40; «pour la libération du Liban», par Pierre millet («Le Figarot» du 12 août 1982), P41.
  - La Revue du Liban:
- N°1191 du 18 au 25 sept. 1982, «Le Liban entre la France et le Vatican» P6; «Intronisation de Mgr Kasparian (nouveau patriarche arménien catholique) par altounian A., P26; «Charles Ghostine» par Harfouche (N.M), P81 et 84
- N°1189 du 6 au 13 nov. 1982, «Mgr Ignace Maroun,» par Bteiche (M), P48; «Naïef Maalouf», par Harfouche (N.M), P51; ▪ Le révérend père Abbé B. Naaman,» par Harfouche (N.M), P52; «L'international college», P71
- N°1202 du 4 au 11 déc. 1982, «Entretien avec Habib Chatty» par Tibi (Z), P32.
  - La voix de l'orient, du 18 déc. 1982, N°21, «peuple de lumière, peuple en prière,» par Ange (D.), P7; «La lutte des Maronites dans l'histoire», par Khoueiry (A), P8.
- Jabre (A), «La guerre du Liban», Ed. Belfond, France, 1980
- Khoury (R), «Islam et christianisme», Beyrouth, 1973
- Lenormand (F), «Une persécution du christianisme en 1860», Ed. ch. douniol, Paris, 1860
- Messara (A), - «La structure sociale du parlement libanais», Beyrouth, 1977, pub. de l'université libanaise, - «Le pacte National, vouloir vivre en commun au régime confessionnel?», In: supplément «L'orient-le-Jour» du 20-26 nov. 1971 (journal lib. en langue franç).
- nasr (N), «The presidency of lebanon», thèse présentée à L'université americaine du Liban, 1960
- Proud'hon, «La guerre et la paix», T1; cité par Bouthoul (G), Ibid., P25.
- Quotidien libanais:
  - L'orient-le-Jour du 22 sept, 1982, N°4310, «Rêver à nouveau»

par Issa Ghoraïeb, P1; «scrutin sans surprise... pour l'élection du nouveau chef de l'état», par Khoury (H), P2, 5
  - L'orient du 20 oct. 1958, «Les leçons d'une double résurrection» par Edward Naïm, «points de vue» (Recueils d'études et d'articles) Beyrouth, 1959 P129 et 3
- Rabbath (Ed.), «La formation historique du Liban politique et constitutionnel» (Essai de synthèse), pub. de l'univ. liban., Beyrouth, 1973
- Rizk (C), «Le régime politique libanais», Paris, 1966
- Rondot (P),
  - »Les nouveaux problèmes de l'état libanais», In: Rev. fr. de sci. politique, vol. IV, avril-juin, 1954
  - «les structures socio-politiques de la Nation Liban.», In: Rev. fr. de sci. politique, vol IV, Janvier-Mars, 1954
- Salem (J),
  - «Le peuple libanais», Beyrouth, lib. Samir, 1969
  - «La pensée politique de Michel Chiha», Beyrouth, 1973
- Sayegh (R), «Le président de la République», pub. de l'univ. lib., Beyrouth, 1975
- Tabbara (B), Fattal (A), «Vie politique et internationale du Liban», In: Le Droit liban., Beyrouth, 1977, t11, P273 et 5.
- Tyan (N), «Le pouvoir exécutif dans le régime politique libanais», thèse inédite (de droit), Lyon, france, 1970
- Van Rillaer (J), «L'agressivité humaine», Ed. Dessart & Mardaga Bruxelles, 1975

Famille et éducation (l'influence du milieu)

الأسرة والتربية (تأثير المحيط)[1]

- Antony (E.J), «L'impact sur la famille d'une grave maladie mentale ou physique chez un des parents», 118-147, In: l'enfant et la famille, Antony et Koupernick (C), Ed. Masson & cie, Paris, 1970
- Balint (A), «Love for the mother and mother love», In: primary love and psychoanalytic technique Tavistock, London, 1965

(١) بالمحيط نقصد المجتمع المؤلّف من الأهل بالدرجة الأولى، من المربّين (المعلّمون بشكل خاص) ومن كل شخص راشد موجود ضمن إطار بيئة الطفل (المباشرة وغير المباشرة)

- Bettelheim (B), «Education et psychanalyse», Hachette, france, 1973
- Camilleri (C), «les attitudes et représentations familiales des jeunes dans un pays décolonisé en voie du développement» (Essai sur le changement socio-culturel dans un pays du Tiers-Monde: Tunisie), Thèse présentée devant l'université de Paris V, 1971
- Campilla (G), «Le problème du rapport entre structure familiale et pathologie mentale», Ann. méd. psychol., 1971, 2, 3, 321-348
- Chamoun (M),
  - «Les superstitions au Liban», ed. Dar El Machreq, Beyrouth, 1973
  - «psychologie de l'ethnotype libanais», In: Travaux et jours, N°30, Janv.-Mars, 1969
  - «L'église du Liban en question», In: Perspect. psychiat., 1972, 35, 7-16
- Hesnard (A), «psychanalyse du lien interhumain», PUF, Paris, 1952
- Hijazi (M), «délinquance juvénile et réalisation de soi», Masson & Cie, Paris, 1966
- Launay (cl), «Le rôle des parents dans la genèse des maladies mentales chez l'enfant», In: Hyg. mentale, 1959, 4815, 233-253
- Lézine (I), «Influence du milieu sur le jeune enfant», In: Milieu et développement», 260-307, PUF, Paris, 1972
- Leuba (j), «La famille névrotique», R.F.P, N°1, 360, 1936
- Mac Auliffe (L), «La personnalité et l'hérédité», Legrand, Paris 1974
- Marcuse (M), «Eros et civilisation», trad: les Ed. de Minuit, 1968
- Mead (M), «L'ésprit, le soi et la société», 1934, trad. PUF, Paris, 1963
- Muller (J), «L'enfant psychotique et son adaptation familiale et scolaire», Delachaux & Niestlé, Neuchâtel, 1973
- Newcomb (T.M), «personnality and social change», N.H. Dryden, 1943
- Osterrieth (P), «L'enfant et la famille», Ed. du scarabée, Paris 1967
- Mme Prince (M.A), «Dualité des rôles dans le passage d'une culture à l'autre: le cas de Liban», pub. de l'univ. Liban., Beyrouth, 1982.

- Rado (S), «an anxious mother», In: I.J.P, 9, 14-20 et 219-226, 1928 a et b
- Rey (A), «Arriération mentale et premiers exercices éducatifs», Delachaux & Niestlé, Neuchâtel, 1953
- Rocheblave-Spenlé (A.M), «Rôles masculins et rôles féminins dans les états intersexuels», In: Evolution psychiat., 1954, 19, 218-312
- Shopenhauer(A), «Le monde comme volonté et comme représentation», trad. PUF, Paris, 1956
- Stoetzel (J), «La psychologie sociale», Paris Flammarion, 1963
- Univers de la psychologie, Tome IV, chap 1°, «l'homme et le jeu», Ed. Lidis, Paris, 1978
- Voizot (B), Duché (D.J), «Les parents de l'enfant psychotique», In: confront. psychiat., 1963, 3, 159-181
- Winnicott (D.W), «L'enfant et le monde extérieur», Ed. Payot, Paris, 1957, trad. fr.:Annette Stronck-Robert

Dévelloppement de l'enfant et psychopathologie

نمو الطفل وعلم النفس المَرَضي

- Abraham (A), «Les identifications de l'enfant à travers son dessin», (Etude psychanalytique de la formation du caractère) -, In: œuvres complètes: 2, 314-343, Payot, Paris, 1966
- Adler (A), »Le tempérament nerveux», Payot, Paris, 1976
- Aichhorn (A),«Jeunesse à l'abandon», Ed. Privat,Toulouse, 1973
- Ajuriaguerra (J. De), «Manuel de psychiatrie de l'enf», 2° Ed. masson, 1977
- Alby (J.M),
  - «La médecine psychomatique», In: Expansion scientifique franç, Paris, 1965
  - «Névroses de caractère et caractères névrotiques», In: Encéphale, 47, 1-16, 1958
- Allend (R), «classification des caractères», In: Hyg. mentale, 24, 84-88, 1929
- Allport (F.H), «Théories of perception and the concept of structure», Wiley, N.Y, 1955
- Amado (G), «L'affectivité de l'enfant», PUF., Paris, 1969
- Anzieu (D), «oedipe avant le complexe ou de l'interpétation psy-

chanalytique des mythes», In: led temps modernes, N'245, oct. 675-775, 1966b
- Arfouilloux (J.C), Les troubles du caractère chez l'enfant», In: concours médical, 84, N°34-35, 5511-5516, 1972
- Benassy (M), «Le moi et les mécanismes de défense», In: la théorie psychanalytique, Paris, PUF, 285-348, 1969
- Bender (L), «Agression, hostility and anxiety in children», Springfield Ill, 1953
- Benedeck (T), «Psychosomatic implications of mother-child relation-ship», In: Amer. J. ortopsychiat., 1949, 19, 642-654
- Bergeret (J),
  - «Le problème des défenses», In: abregé de psychologie pathologique, Masson, Paris, 86-109, 1972f
  - «La personnalité normale et pathologique, les structures mentales, le caractère, les symptômes» Bordas, Paris, 1974
- Bettelheim (B), «Les blessures symboliques», Gallimard, Paris, 1971
- Binet (A), «La suggestibilité», Schleiler, Paris, 1947
- Blum (G.S), «Les théories psychoanalytiques de la personnalité», PUF, Paris, 1955
- Borel (J), «Le déséquilibre psychique», PUF, Paris, 1947
- Boutonnier (J), «L'angoisse», PUF, Paris, 1945
- Bouvet (M), «La clinique psychoanalytique de la personnalité», d'aujourd'hui, PUF, Paris, 1956
- Burlingham (D), Freud (A), «Enfants sans familles», trad. fr., PUF, Paris, 1949
- Ganguilhem (G), «Le normal et le pathologique», PUF, Paris, 1966
- Chiland (C), «psychopathologie de l'enfant et l'adolescent», IN: Bull. de psychologie, 19, 246, N°6-7 à 20, N°19 (déc. 1965 à avril 1967), 1965
- Classification of mental retardation, suppl. to Amer·J. psychiat., 1972, 128/11
- Colloque sur les déficiences mentales», société fanç. de psychologie, Paris, 1971, Enfance, 1972, 1-2
- 4° congrès de l'union européenne des pédo-psychiatres (1971), «Etats dépressifs chez l'enfant et l'adolescent», Almqvist et Wiksell, Stockholm, 1972

- Corman (L),
  - L'examen psychologique d'un enfant», Ed. Dessart et Mardaga, Bruxelles, 1968
  - «Narcissisme et frustraction d'amour», Dessart, 1970
- Cousinet (R.De), «L'idée de la mort chez les enfants», In: J. psychol. norm et pathol., 1939, 36, 65, 76
- Danon-Boileau (M), Lab (P), «L'inhibition intellectuelle», In: psychiat. enfant, 1962, 5, 43-172
- Deleuze (G), Guattari (F), «L'anti-ocdipe», Ed. de minuit, Paris 1972
- Diatkine (R),
  - «agressivité et fantasmes d'agression», 25° congrès des psychanalystes de langues romanes, Milan, Mai, 1964, PUF, Paris, 1964
  - «L'enfant prépsychotique», In: psychiat. Enfant, 1969, 12, 413-466
- Dropsy (J), «Vivre dans son corps», Ed. Epi, Paris, 1973
- Fenichel (O), «Les stades précoces du développement du Moi», In: Imago, 23, 243, 1937
- Filloux (J.cl), «La personnalité», PUF, Paris, 1967
- Freud (A),
  - «Le Moi et les mécanismes de défense», PUF, Paris, 1949
  - «Le normal et le pathologique chez l'enfant», Gallimard, paris, 1968
- Freud (S),
  - «Abrégé de psychanalyse», trad. fr., PUF, Paris, 1951
  - «La vie sexuelle», PUF, Paris, 1969, Trad. fr.:Berman (A).
- Goodenouph (Fl), «L'intelligence d'après le dessin, le test du bonhomme», trad. fr., Paris, PUF, 1956
- Grumberger (B),
  - «Etude sur la relation objectale», In: R.F.P., N°2, 1960
  - «de l'image phallique», In: R.F.P., 28, N°2, 217-234, 1964
  - «Etude sur la dépression», In: R.F.P., 29, N°2-3, 163-190, 1965a
  - «Etude sur le narcissisme», In: R.F.P., 29, N°5-6, 573-588, 1965b
- Guillaume (P), «L'imitation chez L'enfant», Paris, Alcan, 1925
- Guillaumin (J), «La dynamique de l'examen psychologique, ana-

lyse de l'interaction dans une situation de face à face», Paris, PUf, 1965
- Hartmann (H), «La psychanalyse du Moi et le problème de l'adaptation», PUF, Paris, 1968
- Heuyer (G), «Introduction à la psychiatrie infantile», PUF, Paris, 1952
- ITard (J), «Mémoire et rapport sur victor de l'Aveyron», 1894, republié in: Malson L., 1964
- Isaacs (S.), «parents et enfants. Leurs difficultés quotidiennes», PUF, Paris, 1952
- Janet (P), «Les obsessions et la psychasthénie», classics in: psychiatry, Arno Press, N.Y. 1976
- Jones (E),
  - «The anxiety character», In: Med. Rev. of reviews, 36, 175-185, 1930
  - «Anal erotic character traits», papers on psycho-analyse, Baillère et Tindall, Londres, 1948
- Jung (C), «Le Moi et l'inconscient», Gallimard, Paris, 1938
- Kanner (L), «psychomatic problems», 373-421, In: child psychiatry, Ed. ch. Thomas, Springfield, Ill., 1960
- Kestenberg (E), «contribution à l'étude des névroses de caractère», In: R.F.P., 17, 1953
- Klein (M), Rivière (J), «L'amour et la haine. Etude psychanalytique», Payot, Paris, 1968
- Kramer (C), «La frustration, une étude de psychologie différentielle», Ed. delachaux & Niestlé, Neuchâtel, 1959
- Lacan (J), «Le stade du miroir comme formateur de la fonction du je telle qu'elle nous est révélée dans l'éxpérience psychoanalytique», In: Ecrits, 1949, 93-100
- Lagache (D), «La psychanalyse», PUF, Paris, 1964
- Lebovici (S), Keisler (L), «L'homosexualité chez l'enfant et l'adolescent», In: psychiat. Enfant, 1965, 8, 57-134
- Lilar (S), «Le malentendu du deuxième sexe», Paris, PUF, 1969
- Meyer (F), «Le concept d'adaptation», In: les processus d'adaptation, symposium de l'association de psychologie scientifique de langue Française, P13-17, PUF, Paris, 1967
- Meili (R), «Manuel de diagnostic psychologique», PUF, Paris, 1964

- Odier (E),
  - «L'angoisse et la pensée magique», Delachaux & Niestlé, 1974
  - «Insécurité et troubles du caractère », In: Schweiz Z.psychol. Anwend, 11, 298-308, 1952
- Pichot (E), «Les personnalités pathologiques», In: Bull. de psychologie, 18, N°239, 1965
- Piéron (H.), «La psychologie différentielle», PUF, Paris, 1949
- Racamier (P.C), «La pathologie frustrationnelle», In: Rev. fr. psychan., 1954, 18/4, 576-632
- Rapaport (D),«La théorie de l'autonomie du Moi: Une généralisation», In: Rev. fr. psychan., 1964, 28, 344-370
- Rey (A), «Etude des insuffisances psychologiques», delachaux & Niestlé, Neuchâtel, 1947
- Rufino (A), «L'épanouissement intellectuel de votre enfant», Ed. du centurion, «parents et enfants», Paris, 1976
- Scraml (W.J), «précis de psychologie clinique» (Le psychologue), PUF, paris, 1973
- Schmitz (B), «Les états limites: Introduction pour une discussion», In: R.F.P, 31, N°2, 245-266, 1967
- Schneider (K), «Les personnalités psychopathiques», PUF., Paris, 1955
- Smirnoff (V), «La psychanalyse de l'enfant», PUF, Paris, 1974
- Spitz (R), Wolf (K), «Analytic depression», In: «psychoanalysis study of the child», 1964, 2, 3/3, 313-342
- Spitz (R),
  - «Infantile depression and general adaptation syndrome», Criança, port., 1960
  - «Le non et le oui, la genèse de la communication humaine», PUF, Paris, 1968
- Sullivan (H.S), «Conception of modern psychiatry», W.A. White foudation, Waschington, 1946
- Valabrega (J), «Les théories psychosomatiques», P.U.F, Paris, 1954
- Wallon (H.), «L'évolution psychologique de l'enfant», A. colin, 1957
- Widlôcher (D),
  - «L'angoisse infantile précoce», In: Rev. Neuropsychiat. infant. suppl. pédo-psychiat., 1966, 117-120

- «Les processus d'identification», In: Bull. de psychol, XXIII, 17-19, 1969-1970

– Winnicott (D.W),
  - «Processus de maturation chez l'enfant», Paris Payot, 1970
  - «Le corps et le self», In: lieu du corps, Nouv. Rev, psychanal, Gallimard, 1971, 3, 37-48

Methologie et références générales

– Anderson (H), Anderson (I), «Techniques projectives», PUF, Paris, 1965

– Benassy (M), «Etude de la personnalité par la méthode des tests», In: le travail humain, 14, N°2, P avril, 103-118, 1951

– Corman (L),
  - «Le test PN», (Tome I: manuel), Paris, PUF, 1966
  - «Le test du dessin de famille», PUF, Paris, 1970
  - «Le test PN» (Tome II: le complexe d'ocdipe), PUF, Paris, 1973
  - «Le test PN» (Tome III: la règle d'investissement), PUF, Paris, 1976

– Ehrlich (S) et Flament (C), «Précis de statistique», coll.: le psychologue, PUF, 1961

– Ferraris (Anna), «Les dessins d'enfants», coll. Marabout, Ed. Turin, 1973

– Gille (R), «Le test film», PUF, Paris, 1959

– Goodenouph (Fl de), «Le test du dessin d'un bonhomme», Editest, Bruxelles, 1957

– Guillaumin (J), «Problématique générale de la psychologie expérimentale», In: Bull. de l'école pratique de psychologie, Lyon, 1964-1965, 18, N°1 et 2, spécialement les par. 3'et 4 sur l'attitude clinique

– Leenhardt (P), «L'enfant et l'expression dramatique», Castermann, 1973

– Meredieu (Fl. De), «Le dessin d'enfant», Edition universitaires, 1974

– Mucchielli (R),
  - «Le questionnaire dans l'enquête psycho-sociale», Ed. E.S.F., 1975
  - «L'analyse du contenu», Ed. E.S.F., 1974

- « L'observation psychologique et psycho-sociologique», Ed. E.S.F., 1975
- Pichot (P), Delay (J), Perse (J), «Methodes psychométriques en clinique», Tests mentaux et interpétation», Ed. Masson et cie, Paris, 1975
- Piotrovski (Z.A), «psychoanalytic concepts and principles discernible in projective personnality tests», In: Amer. journ. orthopsychiat., 28, N°1, 36-84, 1958
- Rapaport (D), Gill (M), Schaffer (R), «Diagnostic psychological testing», N.Y, Internat Univ. press, 1968
- Reuchlin (M)
  - «Les méthodes quantitatives en psychologie», Paris, PUF, 1962
  - «Clinique et vérification», In: Bull. de psychol., N°10-11, 1972-1973, P 550-557
- Rosenzweig (S), Fleming (E) and Rosenzweig (L), «The children's form of the Rosenzweig picture frustraction study», J. of psychol., 1948, 26, 141-191
- Royer (J), «La personnalité de l'enfant à travers le dessin du bonhomme», Editest, Bruxelles, 1977
- Widlocher (D), «L'interpetation des dessins d'enfants», Bruzelles, Dessart, 1965
- Woodworth (R.S), «Psychologie expérimentale», PUF, Paris, 1949

المراجع العربية

- ابراهيم (عبد الستار)، «العلاج النفسي الحديث قوة للإنسان»، سلسلة عالم المعرفة. ٢٧، الكويت، ١٩٨٠
- اسماعيل (محمد عماد الدين)، «الشخصيّة والعلاج النفسي»، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٩
- الزيادي (محمود)، «علم النفس الاكلينيكي: التشخيص»، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.
- تايلر (ليونا)، «الاختبارات والمقاييس»، ترجمة د. سعد عبد الرحمن، دار الشروق، ١٩٨٣

- روتر (جوليان)، «علم النفس الاكلينيكي»، ترجمة د. عطيّة محمود هنا، دار الشروق، ١٩٨٤
- كامل (مليكة لويس)، »علم النفس الاكلينيكي، الجزء الأول: التشخيص والتنبّؤ في الطريقة الاكلينيكية»، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٧
- هنا (محمود عطية)، هنا (محمود سامي)، «علم النفس الاكلينيكي» دار النهضة العربية، ١٩٧٦ (الطبعة الثانية)
- ياسين (عطوف محمود)، «علم النفس العيادي» (الاكلينيكي)، دار العلم للملايين، الطبعة الثانية، ١٩٨٦

ملحق

لا يمكننا إنهاء هذا الكتاب دون الإشارة الى المنهجية التي اتّبعناها في بحثنا، وهي كما سبق أن ذكرنا: نفسية ـ عيادية، إذ مرّرنا وضينة من الروائز batterie de tests وقمنا بمقابلات عياديةentretiens cliniques مع المفحوصين مكّنتنا من جمع المعلومات اللازمة التي شكّلت موضوع التحليل العيادي والاحصائي

وفي ما يختص بالاختبارات الاسقاطية التي طبّقناها فهي التالية: ـ اختبار بات نوارTest PN (الرجل السوداء) وهو عبارة عن (١٨) صورة كرتونية لمغامرات خروف اسمه بات نوار (على غرار اختبار تفهّم الموضوع للأطفال CAT) على المفحوص ان يقص عنها قصّة؛ إنّما يتميّز هذا الرائز عن الـ CAT بالحرية المعطاة للمفحوص وبالأهميّة الممنوحة لتماهياته. وتكمن دراسته في تحليل ميول المفحوص (اللاواعية منها بشكل خاص) والأواليّات الدفاعية التي تلجأ اليها «أناه» وذلك انطلاقاً من مبادىء الطريقة العيادية والتحليل النفسي. لقد تأكّدنا، علمياً، من تلاؤم هذا الاختبار مع المجتمع اللبناني قبل استخدامه في ابحاثنا العلمية[1]

ـ اختبار الفيلمTest film وهو عبارة عن ٦٩ سؤال. صمّمه جيل Gille لدراسة التصوّر النفسي (العلائقي بشكل خاص) الى جانب الكشف عن بعض السمات العامّة مثل: العنف، كبت الصراع في الداخل،... . أشرف على ترجمتنا لهذا الاختبار من اللغة الفرنسية الى اللغة العربية الدكتور نزار الزين

(١) ضيق المجال لا يسمح لنا بأكثر من إعطاء لمحة سريعة حول هذا الاختبار والاختبارات الأخرى التي طبّقناها. إنّما سيكون لنا وقفة مفصّلة عند كلٍّ منها بعد الانتهاء من تقديم «سلسلة الاقارب والطفل في المجتمع الشرقي المعاصر».

(رئيس قسم علم النفس في الجامعة اللبنانية) عام ١٩٧٤. ولقد تأكّدنا، ايضاً بالنسبة لهذا الاختبار، من تلاؤمه مع المجتمع اللبناني قبل استخدامه في ابحاثنا العلمية.

- اختبار رسم العائلة Test du dessin de famille وهو يعتمد على الأسلوب العام البسيط الذي يتطلّب من المفحوص ان يرسم أشخاص (هنا افراد عائلته وعائلة من خياله)؛ يمكّن هذا الاختبار من دراسة التطوّر النفسي - العلائقي الناتج عن تبادل الطفل العلاقات المفروضة عليه مع عائلته، كما يمكّن من فهم الصورة التي كوّنها المفحوص عن جسده son schéma corporel، . . .

- استمارة Questionnaire: لرفع درجة احتمال التقاء السمة النفسية (إيجابيّة كانت ام سلبية) وتواتر وجودها ضمن نفس الاختبار وعبر مختلف الاختبارات، وضعنا استمارة تدور حول الطفل: علاقاته مع الأهل، نوعيّة النشاط الذي يقوم به لملء اوقات فراغه، . . .، تتماشى مع باقي الاختبارات (اي أنها تكشف نفس السمات التي تكشفها الاختبارات الأخرى)

- اختبار الحرمان **test de frustration**: لوضع هذا الرائز استوحينا فكرة تصميمه من «رائز الحرمان» الخاص بروزنزفايك Rosenzweig بهدف الكشف عن الشعور بالاحباط الذي يعاني منه الطفل، درجة الحرمان التي يعاني منها وربّما، أيضاً، بعض العناصر التي تكشف درجة نضجه. واختبار روزنزفايك يتكوّن من (٢٤) صورة تمثّل مواقف إحباط بين شخصين ويستجيب لها المفحوص بأن يكتب ماذا ينبغي ان يقول الشخص المُحبَط؛ يُصحَّح هذا الاختبار على أساس اتّجاه العدوانية ونوع ردّ الفعل. لقد عدّلناه بشكل يتناسب مع إطار مجتمعنا: النفسي والثقافي - الاجتماعي . . .، ثم مرّرناه، ضمن إطار مرحلة ما قبل الاستقصاء pré - enquête، على مئة حالة تمثّل، بشكل علمي، الجمهور الاصلي المتّخذ كقاعدة عملية ضمن إطار ابحاثنا؛ لم نستبقِ سوى اربع عشرة صورة (بعد هذه المرحلة الأوّليّة) عُدَّت الاكثر دلالة وتعبيراً بالنسبة لموضوع الحرمان الحاصل عند المفحوص نتيجة معايشته لوضعيّة الحرب او نتيجة

معايشته لمشاعر عميقة احدثتها خيبات الأمل المُحدَثة، عنده، من قِبَل الأهل تجاه تمنّياته ورغباته . . .

يُعتبَر هذا الاختبار اسقاطيّاً، لذا ارتكزنا اثناء تأويله على التحليل العيادي ثم الاحصائي ثم العيادي (لكلٍّ من الاربع عشرة صورة ولمجموع الصور) على مستوى كل مفحوص ثم على مستوى العيّنة ككل تبعاً لانتمائه الى احدى الفئات الاجتماعية التي طالما ذكرناها (انظر، فيما بعد، اختبار الحرمان)

- **اختبار الحرب(رائز الحرب) test guerre:** انطلاقاً من فكرة الروائز الاسقاطية التي تعتمد الصور المثيرة لوضعيّات معيّنة، حاولنا وضع رائز الحرب خاصّةً وأنّنا، بعد تصفّحنا لمجمل الاختبارات الشخصيّة والاسقاطية، لم نجد اختباراً يكشف تأثير الحرب وانعكاساتها.

لتكوين هذا الرائز، اخترنا اربعاً وعشرين صورة انتزعناها من المجلاّت والجرائد وهي تمثّل، عامّةً، وضعيّاتَ خاصّة بالحرب إنما تشتمل أيضاً على بعض الصور الممثِّلة لوضعيّات خاصّة بدور الأهل كعامل يثير الطمأنينة والهدوء في نفس الطفل. . .

بعد مرحلة ما قبل الاستقصاء المماثلة لتلك التي قمنا بها بالنسبة لرائز الحرمان لم نستبقِ سوى اربع عشرة لوحة (ورق مقوّى)، أي اننا لم نستبق سوى الصور التي من شأنها بلورة مشاعر وتصرّفات الطفل بهذا المضمار.

وتحليل هذا الاختبار مماثل للتحليل الذي اجريناه في ما يختص برائز الحرمان.

أخيراً، يجدر بنا التوقّف قليلاً عند الطريقة التي اتّبعناها في دراسة النتائج :

الطريقة المتّبعة في دراسة النتائج (المنهجية العلمية)

أُخضِعت المعلومات التي حصلنا عليها نتيجة تمرير الاختبارات الإسقاطية على الاطفال (الجمهور الأصلي لأبحاثنا الميدانية) لطريقة تحليل المضمون -ana

lyse du contenu؛ وقد تمّ ذلك على ضوء الخطوط الكبرى الخاصّة بالتحليل النفساني العيادي من جهة، وبالتحليل الاحصائي من جهة أخرى. إنّما بقي هدفنا الأساسي منصبّاً على تبيان دلالة الفروق différences significatives التي أظهرها التحليل الإحصائي بفضل المقارنة العلمية التي اجريناها على مستوى العوامل الاربع الرئيسية (المتغيّرات المستقلة والتابعة) السابق ذكرها (الوضع الاسري، الدين، الجنس، الوضع الوطني).

وهذا وتجدر الإشارة الى أن تحليل المضمون تمّ تبعاً لخطوات علميّة متعدّدة ومتعاقبة بدأت بتحليل عيادي دقيق لكل اختبار ومن ثم لمجمل الاختبارات التي تم تمريرها على كل فرد من افراد العيّنة المختارة (حتماً على ضوء المعلومات المستقاة من المقابلة العيادية التي اجريناها مع الطفل وحوله). بعد الانتهاء من هذه المرحلة التحليلية ثمّ استخراج السمات النفسية الرئيسية traits psychologiques التي بدت مسيطرة على شخصيّة المفحوص وذلك تبعاً لمبدأ التقاء السمات (داخل نفس الاختبار وعبر مختلف الاختبارات التي تمّ تمريرها عليه)؛ وقد تمّ تنفيذ هذا العمل بالنسبة لكل فرد من أفراد العيّنة، قمنا بعد ذلك بجمع السمات المتماثلة والبارزة بشكل مسيطر عند المفحوصين ضمن جداول جمعتهم تبعاً للفئات الاجتماعية (السابقة الذكر).

تبع هذه المرحلة من التحليل العيادي مرحلة أخرى قامت على التحليل الإحصائي لمختلف النتائج العملية أي لمختلف السمات النفسية البارزة والمسيطرة كما بدت من خلال التحليل العيادي.

ملاحظة تجدر الإشارة اليها في هذا المجال: لا تخضع مجموعة الاختبارات النفسية التي طبّقناها لنفس الطريقة في التحليل النفساني العيادي إذ يُصنَّف البعض منها ضمن إطار الاختبارات التي تخضع للقياس الكمّي (كالاستمارة واختبار الفيلم) الذي يؤدّي الى التحليل العيادي بينما يصنَّف القسم الآخر منها (كاختبار PN والعائلة والحرب والحرمان) ضمن إطار الاختبارات التي ينبغي أن تؤوّل عيادياً فيُخضَع التأويل، من ثم، للتحليل الإحصائي وذلك على ضوء التحليل العيادي

ثم إن حصيلة العمل العيادي والاحصائي تمثّلت بجداول بيانيّة تضمّنت مختلف السمات البارزة عند المفحوصين على مستوى كل رائز وعلى مستوى مختلف الروائز. وقد أدّى هذا العمل لمرحلة استكشاف الفروق ذات الدلالة الاحصائية التي شكّلت بحد ذاتها ركيزة البحث الأساسية الهادفة لبلورة المسيرة النفس ـ تحليلية التي اجتازها كلّ من: الطفل والأسرة وثنائي الأهل والمربّي ـ الاستاذ. . . . خلال معايشتهم لحقبتين مختلفتين تمام الاختلاف: حقبة السلم من جهة وحقبة الحرب من جهة أخرى.

	R.N.	%	Ech. Normal Sexe G	Ech. Normal Sexe F	Ech. Normal Religion Chs	Ech. Normal Religion Mus	Ech. Orpholinet Sexe G	Ech. Orpholinet Sexe F	Ech. Orpholinet Religion Chs	Ech. Orpholinet Religion Mus
Troubles relationnels	Relations familiales perturbées	–	61	76	65	72	39	57	53	43
		+	29	17	25	21	49	36	35	50
	Dépendance des deux parents	(–) et (+)	84	93	84	93	59	97	69	87
	Conformise aux parents	(–) et (+)	88	97	97	88	71	85	70	86
	Isolement au sein de la famille	–	36	37	34	39	29	31	31	29
		+	19	14	14	19	23	17	15	25
	Rivalité fraternelle	–	45	40	40	45	41	42	41	42
		+	25	26	25	26	29	19	30	18
	Adaptation avec les amis	+	22	17	19	20	21	16	[illegible]	17
	Recherche d'un seul ami	+	19	35	23	31	6	19	9	16
	Contacts positifs avec les prof.	+	13	10	12	11	11	11	12	10
Troubles de personnalité	Infantilisme	–	60	63	63	60	41	53	41	53
		+	17	14	13	18	28	16	15	29
	Retard de mâturité		31	36	24	43	27	34	17	44
	Confusion dans l'identité (sexuelle)	–	36	53	40	49	45	46	46	45
		+	57	25	38	44	40	21	32	29
	Image de soi perturbée	–	47	44	46	45	79	55	77	57
		+	49	46	49	46	15	36	13	38
	Personnalité rétractée	+	42	30	41	49	9	26	9	26
	Passivité	–	42	28	34	36	34	23	28	29
		+	27	14	22	19	19	6	13	12
	Conflit intérigrisé		57	62	57	62	39	44	40	43
	Régression	+	28	29	23	34	25	32	35	22
	Inhibition	+	22	22	24	20	22	25	15	32
	Dépression	+	26	27	30	23	22	29	22	29
	Moi Faible		88	86	87	87	93	93	89	97
	Retard affectif et fixation sur les frères, les amis, les prof,...		84	86	93	77	31	63	42	52
	Agressivité	–	17	18	20	15	20	19	18	21
		+	11	3	10	4	6	2	3	5

Tableau de base servant pour l'étude comparative de l'hypothèse

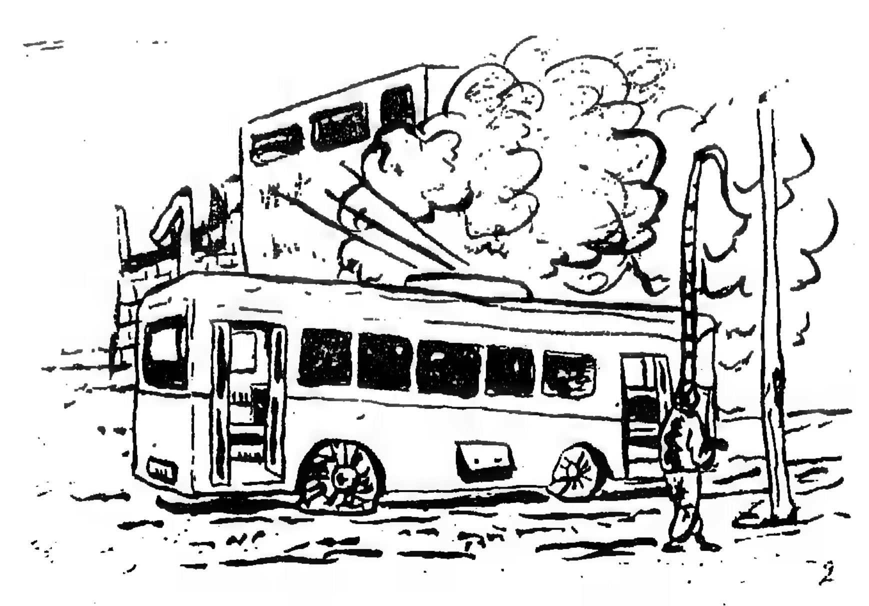
R.N.	%	Ech. Normal				Ech. Orpholinet			
		Sexe		Religion		Sexe		Religion	
		G	F	Chs	Mus	G	F	Chs	Mus
Culpabilisation des tendances	+	29	17	24	22	28	21	19	30
Anxiété	–	35	48	35	48	27	35	31	31
	+	14	8	11	11	6	6	4	8
Asthénie		6	12	14	4	19	15	27	7
Tendances schizoides	+	21	19	17	23	19	21	17	23
Repliement sur [illegible]	–	62	58	51	69	42	53	45	50
	+	12	16	19	9	27	19	22	24
Frustration		22	21	27	16	59	53	59	53
Manque de sécurité		70	[illegible]	71	67	58	54	47	65
Application dans le travail		63	75	62	76	44	59	58	55
Satisfaction imaginaire		46	63	52	57	9	20	11	18

Analyse clinique
Doctorat
3° cycle

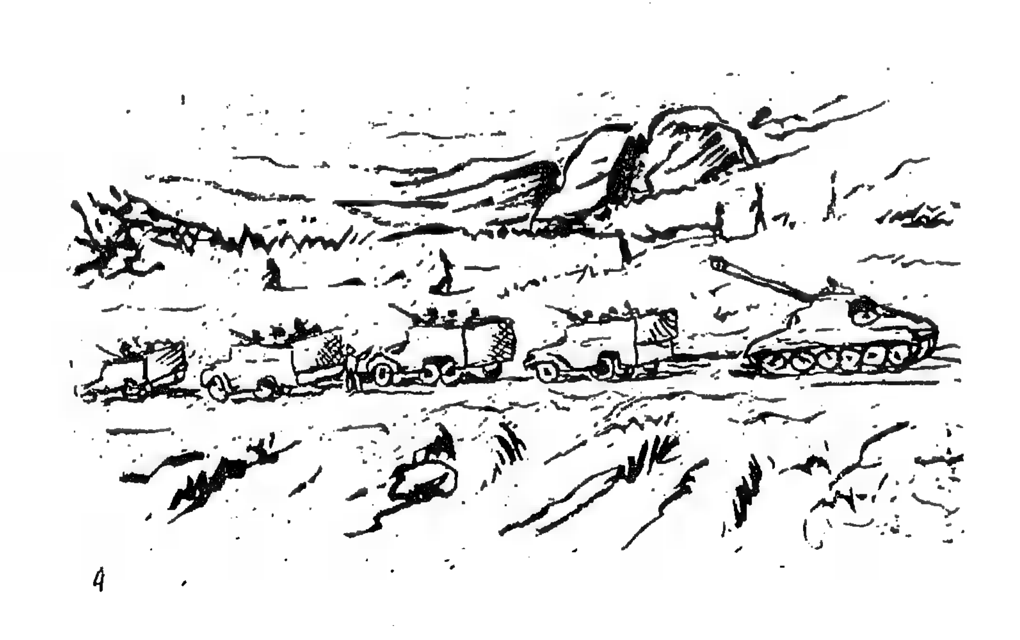
Catégorie	R.A	%	Ech. Normal – Sexe – G	Ech. Normal – Sexe – F	Ech. Normal – Religion – Chs	Ech. Normal – Religion – Mus	Ech. Orpholinet – Sexe – G	Ech. Orpholinet – Sexe – F	Ech. Orpholinet – Religion – Chs	Ech. Orpholinet – Religion – Mus
Troubles relationnels	Relation familiales perturbées	−	36	44	42	38	14	22	19	17
		+	44	52	42	54	66	63	63	66
	Père non-présent		63	68	54	77	59	78	73	64
	Père instable dans sa présence		68	60	58	70	73	66	78	61
	Père faible		84	92	79	97	96	98	95	89
	Evaluation défavorable (du père)		80	92	75	97	80	96	92	94
	Dépendance des parents	(−) et (+)	40	32	34	36	38	42	47	33
	Rivalité fraternelle	−	40	52	41	51	28	24	27	25
		+	32	36	41	27	38	37	35	40
	Adaptation avec les amis	+	20	12	17	15	12	13	13	12
	Contacts positifs avec les prof.	+	52	56	62	46	60	65	67	58
Troubles de personnalité	Infantilisme	−	44	60	54	50	28	33	31	30
		+	12	8	13	7	19	15	17	17
	Confusion dans l'identité (sexuelle)	−	52	16	38	30	34	21	25	30
		+	20	8	9	19	47	6	25	28
	Régression	+	36	36	30	42	36	46	47	35
	Inhibition	+	12	8	13	7	22	27	19	30
	Dépression	+	8	12	8	12	19	28	30	17
	Agressivité	−	64	52	42	74	18	37	22	33
		+	24	24	33	15	50	32	42	40
	Culpabilisation des tendances	+	0	0	0	0	10	13	11	12
	Tendanes schizoïdes	+	24	8	21	11	33	26	31	28
	Replicement sur soi	−	0	8	0	8	3	7	6	6
		+	8	20	5	23	23	22	15	28

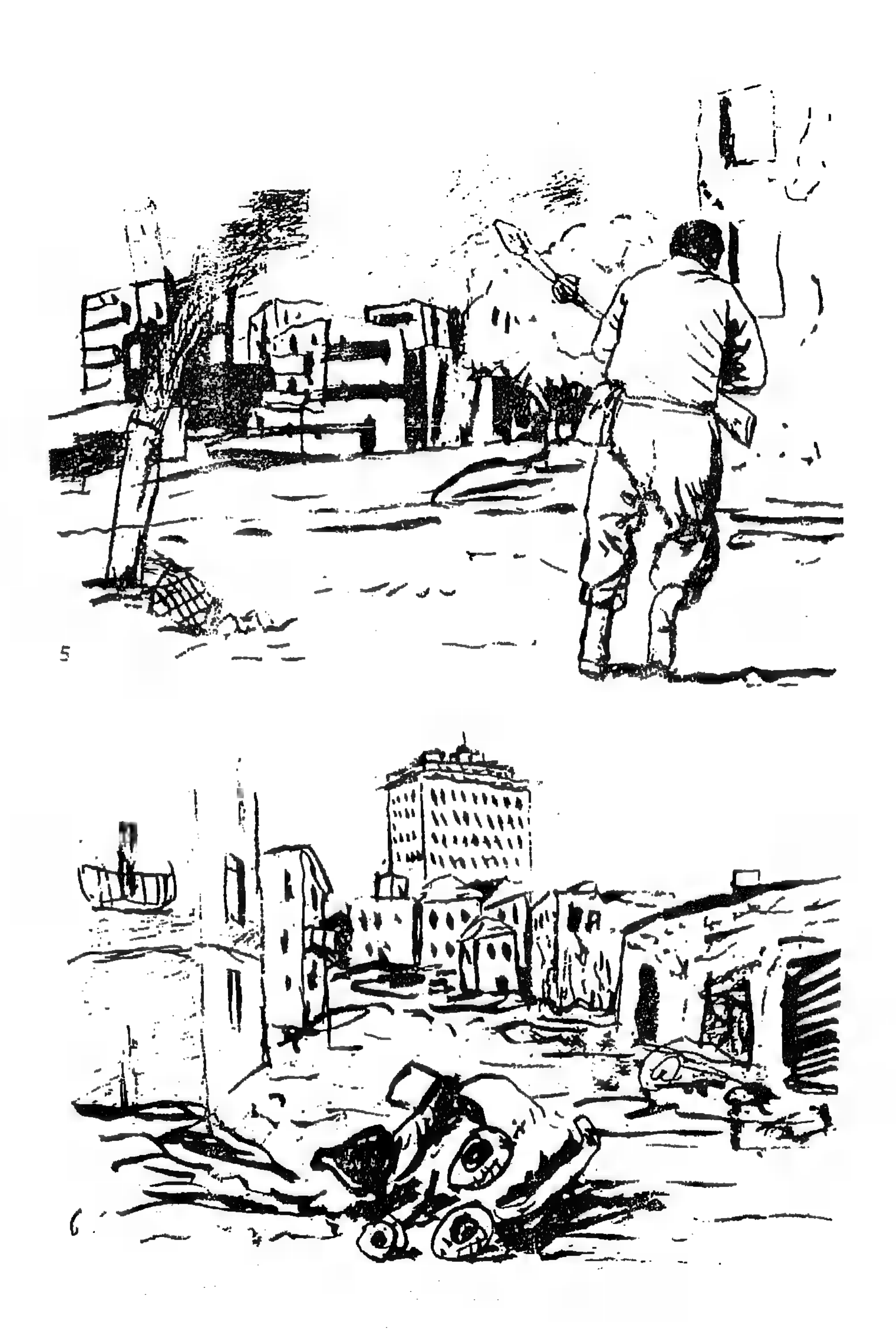
Tableau de base servant pour l'étude comparative de l'hypothèse

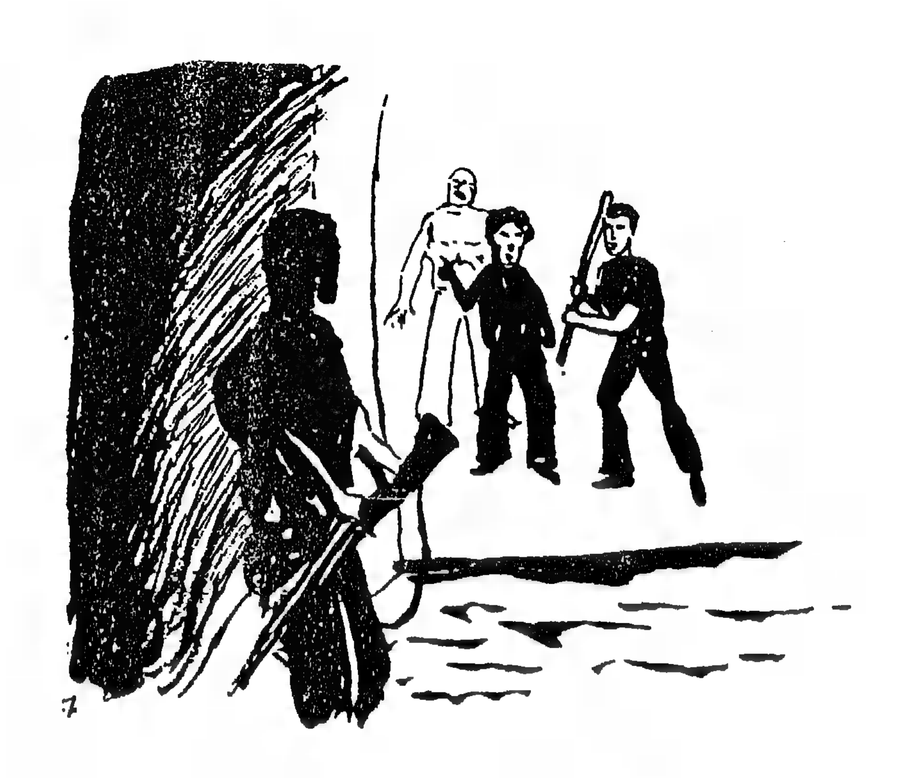

حريقة ...
1


2

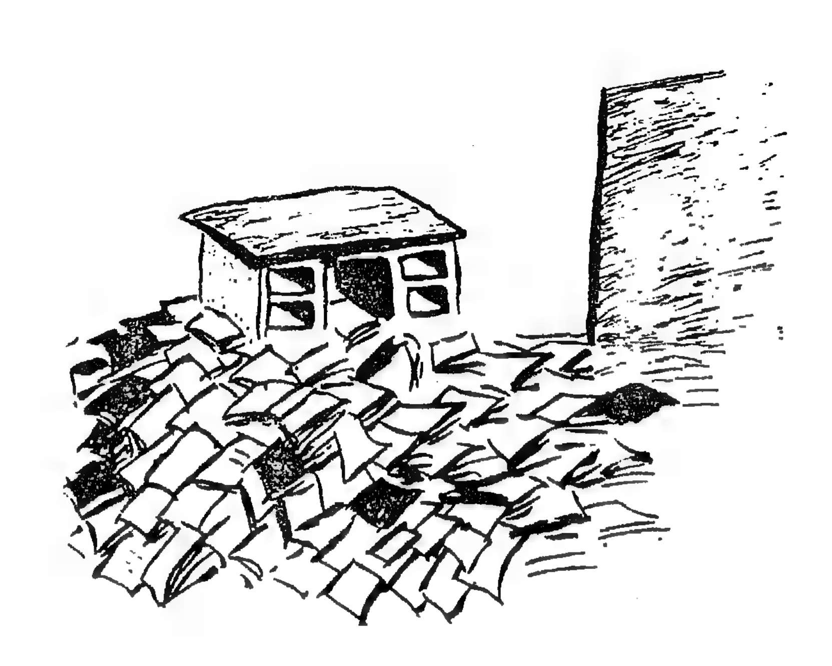

3


4

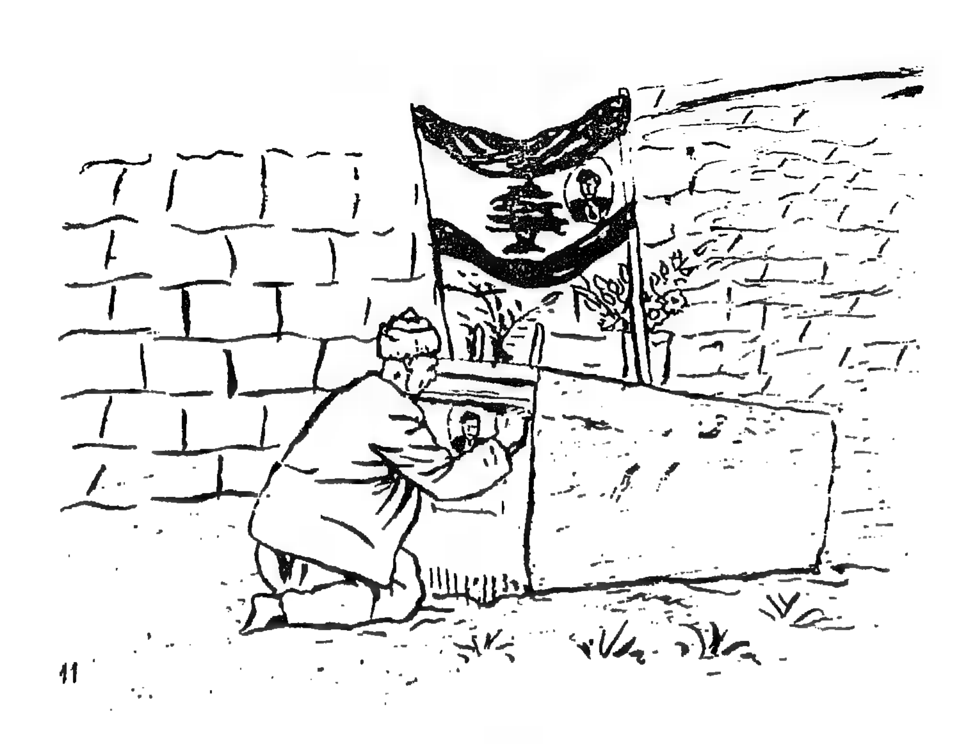



7


8





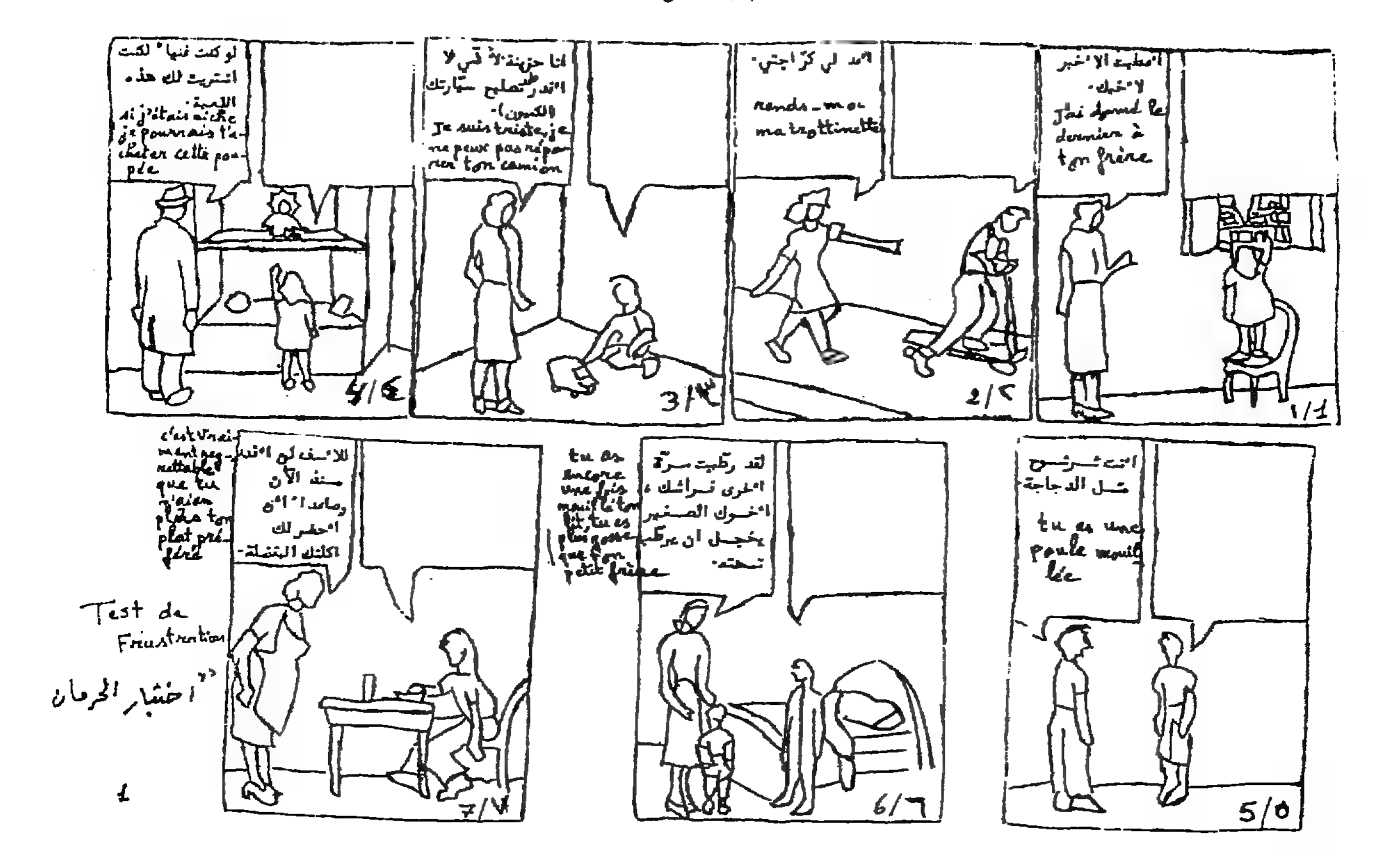








اختبار الحرمان





عليك أن تغسل يداك قبل التقاط أي شيء.
Vous devez laver les mains avant de prendre quelque chose
8/٨

رايحين نسهرة لم انت.
nous sortons, dors
9/٩

لماذا تأخر بابا وماما في الخارج؟ انكي مشغول عليهما.
papa et maman ne sont pas encore entrés, je suis inquiet
10/١٠

كمشتك هالمرة يا لص صغير
je t'y prends cette fois petit voleur
11/١١

كيف وقعت؟ هل تأذيت؟
Comment es-tu tombé ? t'es-tu fait mal ?
12/١٢

شو بك يا ابنتي؟ ليش حزينة.
qu'as-tu mon enfant? t'es si triste !
13/١٣

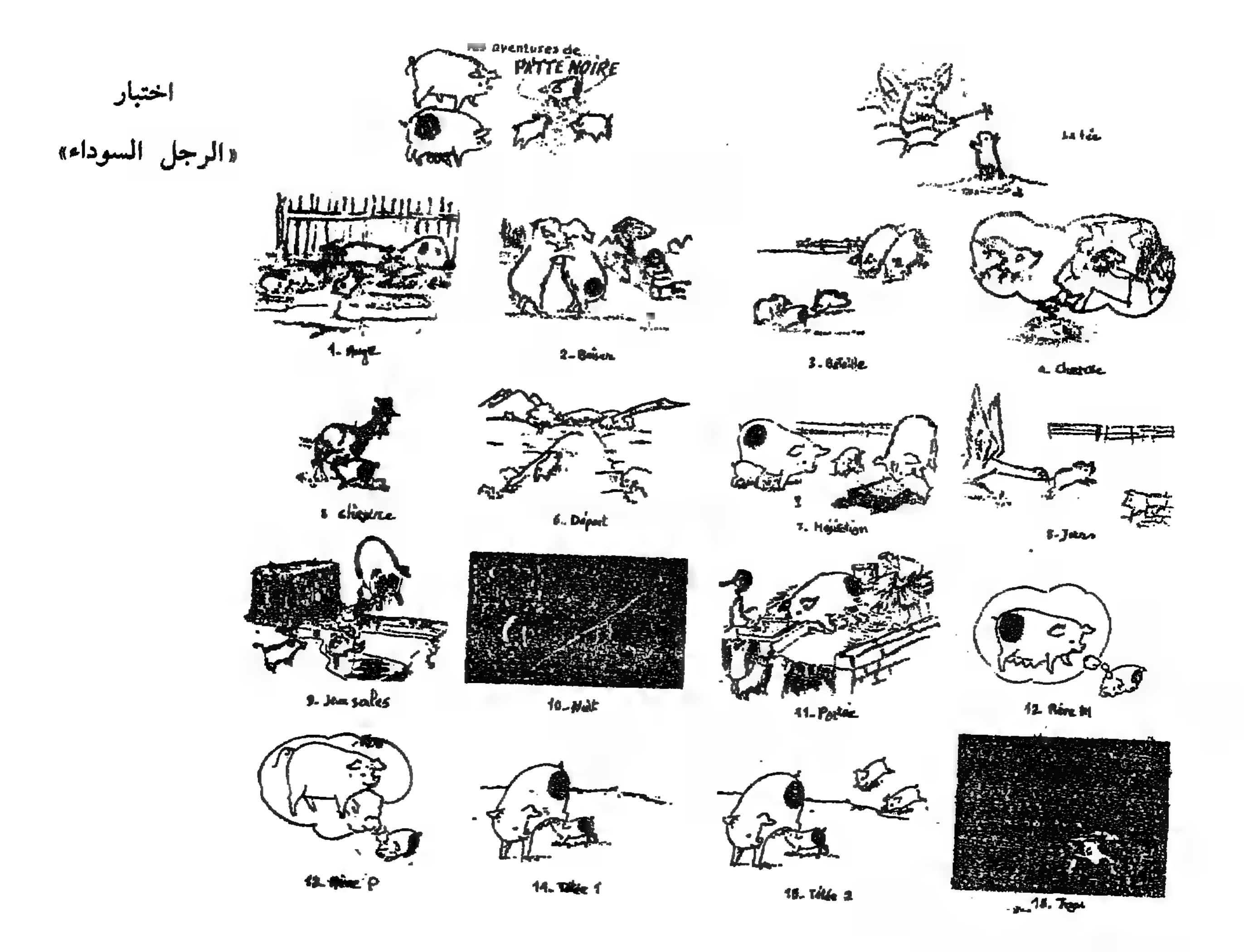
بعدك صغير كتير حتى تناقشنا.
tu es trop petit pour discuter avec nous
14/١٤

Test de Frustration
"اختبار الحرمان"

2

اختبار

«الرجل السوداء»



استمارة

Questionnaire

١ * عندما لا يكون لديك اي عمل تقوم به ماذا تفعل
- تشاهد التلفزيون
- تقراء كتاب
- تلعب مع الاصدقاء
- لا تفعل شيئا

٢ * عندما تكون في البيت هل انت موافق على
- مساعدة بابا
- مساعدة ماما
- عدم القيام بأي عمل

٣ * عندما تكبر
- هل تود ان تكون كبابا
- هل تود ان تكون كماما

٤ * في المستقبل هل تود ان تكون
- ابا ، اذا نعم لماذا اذا كلا لماذا
- اما ، اذا نعم لماذا اذا كلا لماذا

٥ * بنظرك هل من الطبيعي لوالدتك
- ان تستضيف اصدقاءها الى البيت
- ان تقص عليك أخبار بابا
- ان تتزوج من الاستاذ الذي تحبه انت

٦ * هل تفكر في والدك
- احياناً
- بانتظام
- من وقت لآخر
- دائماً
ابدا

٧ * اي وضع من الاوضاع التالية لا تفضل
- والدك يقبّل اختك الصغرى او اخاك الصغير
- والدك يضرب اختك الصغرى او اخاك الصغير
- والدك مريض
- والدتك مريضة
- والدك ميت
- والدتك ميتة
- الاثنان ماتا

TEST-FILM

DE R. GILLE

NOM : Prénom : Nationalité :

Date de naissance : Lieu :

Adresse :

Ecole : Cours :

Date d'aujourd'hui :

Profession du père : ou du beau-père :

Profession de la mère : ou de la belle-mère :

Indications particulières :

Prénoms des frères et des sœurs avec l'indication, entre parenthèses, de leur âge

---

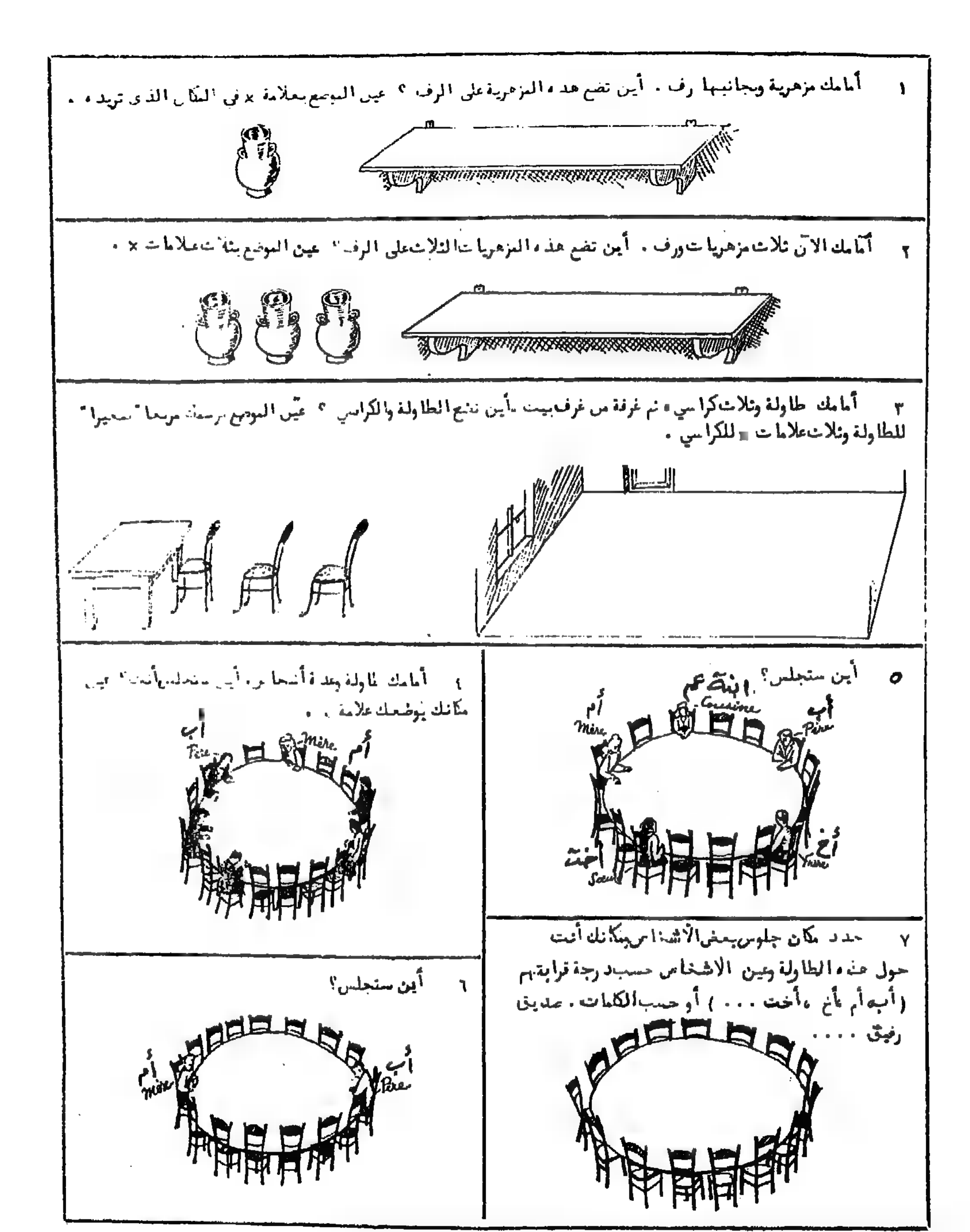
INSTRUCTIONS

Vous trouverez dans [illegible] cahier un certain nombre de questions sur vous-même. Répondez-y en toute sincérité, exactement comme vous pensez être.

Votre réponse consistera souvent [illegible] faire une petite croix [illegible] à souligner un mot. Faites la croix [illegible] le trait très nettement et bien [illegible] l'endroit voulu.

Suivez les questions dans l'ordre des numéros.

Tournez la page, et allez-y.



١ أمامك مزهرية وبجانبها رف . أين تضع هذه المزهرية على الرف ؟ عين الموضع بعلامة × في المكان الذي تريده .

٢ أمامك الآن ثلاث مزهريات ورف . أين تضع هذه المزهريات الثلاث على الرف ؟ عين الموضع بثلاث علامات × .

٣ أمامك طاولة وثلاث كراسي ، ثم غرفة من غرف بيت . أين تضع الطاولة والكراسي ؟ عين الموضع برسمك مربعا كبيرا للطاولة وثلاث علامات ■ للكراسي .

٤ أمامك طاولة وعدة أشخاص . أين ستجلس أنت ؟ عين مكانك بوضعك علامة × .

٥ أين ستجلس؟

٦ أين ستجلس؟

٧ حدد مكان جلوس بعض الأشخاص ومكانك أنت حول هذه الطاولة وعين الأشخاص حسب درجة قرابتهم (أب، أم، أخ، أخت . . .) أو حسب الكلمات . صديق رفيق . . . .

٨ أمامك طاولة يجلس على طرفها شخص تعرفه جيداً. أين تجلس أنت؟ ومن هو هذا الشخص؟

٩ بعد أن قامت أمك بشراء حاجاتها رأت أنه بقي لديها بعض النقود وهي تريد ان تشترى شيئاً يفرح قلب شخص ما. من تريد ان يكون الشخص الذى تريده أن يفرح؟ أم ان هذا لا يهمك؟ اكتب ذلك تحت هذا الكلام.

١٠ تذهب في العطلة عند اقاربكم بيت كبير. ينزل افراد عائلتك في بعض الغرف. أشر غرفتك انت.

Père et Mère أب وأم

frère أخ

soeur أخت

١١ انت في بيت الاصدقاء ايضاً. ضع علامة X على الغرفة التي اخترتها.

Père et Mère أب وأم

Grands parents أجداد

١٢ بيت الاصدقاء دائماً. عين غرف بعض الاشخاص وغرفتك انت.

١٣ قرر احدهم اعداد مفاجأة حلوة لآخر. الى من تريد أن تكون هذه المفاجأة ام ان هذا لا يهمك؟ اكتب ذلك تحت هذا الكلام.

تستطيع السفر لقضاء عطلة من بضعة ايام ولكن لا يوجد الا محلان، واحد لك والثاني لشخص آخر. من تفضل ان يأتي معك؟ اكتب ذلك تحت هذا الكلام.

١٥ لقد كسرت الآن شيئاً غالي الثمن. من هو أول شخص تريد إبلاغه هذا الخبر السيئ. اكتب ذلك تحت هذا الكلام.

١ عندك وجع اسنان شديد وتريد الذهاب الى طبيب الأسنان ليقتلع لك الضرس المصاب. هل تذهب وحدك؟ ام تذهب مع شخص ما؟ وفي هذه الحالة مع من؟ اكتب ذلك تحت هذا الكلام.

١٧ ذهبت واجريت امتحانا ونجحت فيه لمن تريد أن تخبر في الدرجة الاولى هذا الخبر السار؟ اكتب ذلك تحت هذا الكلام.

— 3 —

١٨ انت الآن في نزهة . عين مكانك بعلامة x صغيرة



١٩ انت في النزهة . عيّن مكانك بعلامة x صغيرة .

أب Père
أخ Frère
أخت Soeur
أم Mère

٢٠ عين مكانك بعلامة x صغيرة .



٢١ ارسم الآن رسماً لبعض الأشخاص ، ولك ان تعيّن من هم هؤلاء الاشخاص



٢٢ يحدث لك كما يحدث لكل الناس ان يكون مزاجك معكراً . من هو الشخص الذي يعكر لك مزاجك اكثر من غيره . اكتب ذلك تحت هذا الكلام .

٢٣ تم توزيع هدايا بينك وبين بعض الاشخاص الآخرين وكانت هدية واحد منكم اجمل بكثير من هدية الآخرين من تريد ان يكون هذا الشخص؟ ام ان هذا لا يهمك ؟ اكتب ذلك تحت هذا الكلام .

٢٤ قمت بسفرة طويلة بعيداً عن عائلتك . من هو الذي اشتقت إليه اكثر من غيره؟ عين من هو تحت هذا الكلام .

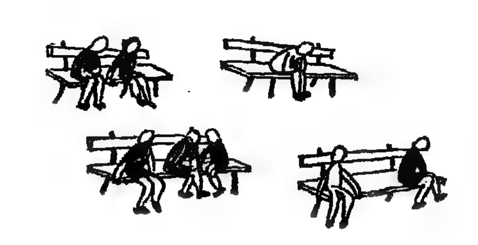
٢٥ ستتزوج فيما بعد وستكون لك عائلة . كم ولداً تريد ان يكون في عائلتك؟ اكتب ذلك تحت هذا الكلام .

٢٦ هؤلاء رفاق ذاهبين في نزهة . اين مكانك انت؟



٢٧ مع من تفضل ان تلعب مع رفاق من عمرك ؟ مع رفاق اصغر منك سناً ؟ مع رفاق اكبر منك سناً ؟ ضع خطاً تحت جواب من هذه الأجوبة .

٢٩ تجلس ورفاقك على مقاعد . عين مكانك بعلامة ×



٢٨ امامك ملعب المدرسة . عين مكانك بعلامة ■



٣١ هؤلاء رفاق يتناقشون من أجل تنظيم لعبة . عين مكانك بعلامة × .



٣٠ هؤلاء رفاق يتشاجرون فيما بينهم لسبب لا تعرفه عين مكانك بعلامة × .



٣٣ تنيب الاستاذ وعهد اليك بمراقبة الصف. هل تصل بسهولة الى ان تجعل زملاءك يطيعونك ؟ اجب على ذلك تحت هذا الكلام .

---

٣٢ كلفت مع بعض الرفاق بنقل محتويات قاعة الصف. هل تتولى انت قيادة هذا العمل ؟ أجب على ذلك تحت هذا الكلام .

---

٣٥ دفعك رفيق من رفاقك قصداً فوقعت ماذا ستفعل . اتبكي ؟ ام تقول للمعلم ؟ ام تصفع المذنب ؟ ام توبخه ؟ ام لا تقول شيئاً ؟ ضع خطاً تحت احد هذه الاجوبة .

٣٤ مزق رفيقك ثيابك ماذا تفعل . اتبكي ؟ ام تقول للمعلم ام تصفع المذنب ؟ ام توبخه ؟ ام لا تقول شيئاً ؟ ضع خطاً تحت احد هذه الاجوبة

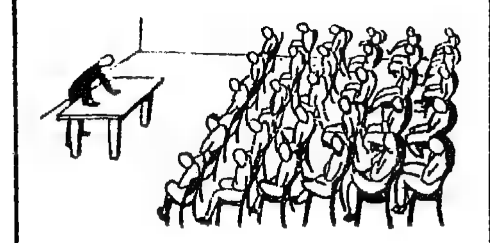
٣٧ تحاول القيام بعمل ولا تتمكن من ذلك . هل ستبكي ؟ ام تترك العمل ؟ ام لا تقول شيئاً ؟ او ستغضب بشدة ؟ ضع خطاً تحت احد هذه الاجوبة.

٣٦ لا يحالفك الحظ عدة مرات في لعبة ما ولذا فانت غير مسرور . هل ستبكي ؟ ام ترفض متابعة اللعب ؟ ام لا تقول شيئاً ؟ ام ستغضب بشدة ؟ ضع خطاً تحت هذه أحد هذه الاجوبة .

٣٩ هؤلاء أشخاص ملتفين حول طاولة حيث يوجد شخص يشرح شيئا "ما . انت بين الأشخاص المستمعين . عيّن مكانك بعلامة x صغيرة .



٣٨ امامك شخص تعرفه جيدا "يحادث اشخاصا" جالسين انت بين الاشخاص الجالسين . عيّن مكانك بعلامة x .



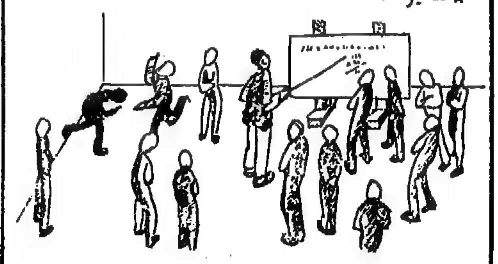
٤١ جلس الكل اثناء النزهة . عين مكانك بعلامة x.



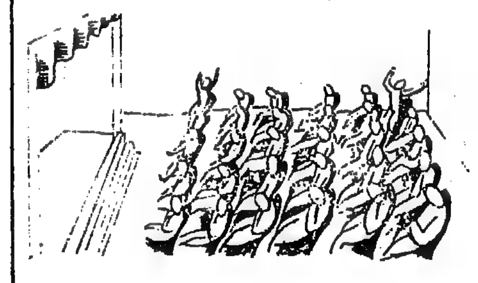
٤٠ تقوم انت ورفاقك بنزهة مع شخص يشرح . عين مكانك بعلامة x .



٤٣ امامك شرح على اللوح الاسود . عين مكانك بعلامة x صغيرة .



٤٢ هؤلاء اشخاص يشاهدون مـ .دا" مسليا" . عين مكانك بعلامة x .. بيرة .



٤٥ طلب منك ان تقوم بعمل لا يعجبك . ماذا تفعل = اتطيع ؟ ام تبكي ؟ ام تعترض؟ ام تغضب؟ ام ترفض؟ ضع خطا" تحت احد هذه الاجوبة .

٤٤ اعطيت الامر بان تعطف مع رفاقك ؟ . اتنفذ الامر حالا" ؟ ام تنتظر حتى آخر لحظة؟ ضع خطا" تحت احد هذه الاجوبة .

٤٧ هل تساعد والدتك كثيرا" ؟ ام قليلا" ؟ ام نادرا" ضع خطا" تحت أحد هذه الاجوبة .

٤٦ هل تقوم بخدمة الآخرين طوعا" ؟ ام ببعض المرات؟ فقط ؟ ام نادرا" ؟ ضع خطا" تحت احد هذه الاجوبة .

٤٨ تلعب مع هرك فيجرحك دون ان يتعمد ذلك . ماذا ستفعل = لا تقول شيئاً " ؟ ام تبكي ؟ ام تضربه ؟ ام تصرخ عليه قليلاً " ؟ ام تصرخ كثيراً " ؟ ضع خطاً " تحت احد هذه الاجوبة .



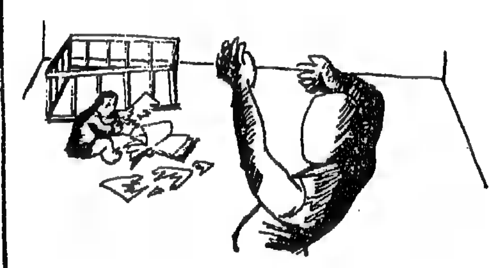
٤٩ سخر منك احد الرفاق . ماذا ستفعل = اتبكي ؟ ام تهز كتفيك ؟ ام تسخر منه ؟ ام تسبه ؟ ضع خطاً " تحت احد هذه الاجوبة .

٥٠ يسخر احد الرفاق من صديقك ؟ . ماذا ستفعل ؟ الا تقول شيئاً " ام تضربه ؟ ام تهز بكتفيك ؟ ام تسخر منه ؟ ام تسبه ؟ ضع خطاً " تحت احد هذه الاجوبة .

٥١ ها هو كلبك يأخذ لك قطعة الحلوى . ماذا ستفعل = اتضحك من ذلك ؟ ام لا تقول شيئاً " ؟ ام تبكي ؟ ام تصرخ عليه ؟ ام تضربه ؟ ضع خطاً " تحت احد هذه الاجوبة ؟ .



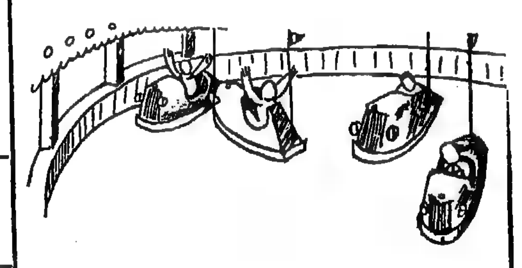
٥٢ لعب ولد صغير باغراضك فأفسد ها . ماذا ستفعل اتؤنبه برفق " ام تبكي " ام تصيح قليلاً " ؟ ام تصرخ عالياً " ؟ ام تصفعه ؟ ضع خطاً " تحت احد هذه الاجوبة .



٥٣ اخذ رفيقك قلمك الحبر بالرغم منك . ماذا ستفعل ؟ اتبكي ؟ ام تخبر شخصاً ما ؟ ام تصرخ ؟ ام تحاول استعادته ام تضربه ؟ ضع خطاً " تحت احد هذه الاجوبة .

٥٤ لديك ثوب جديد . اتحافظ عليه لمدة طويلة بحالة جيدة ام تبليه بسرعة ؟ ضع خطاً " تحت احد هذين الجوابين

٥٥ تلعب اليوم العيد بالسيارات الكهربائية . هل تحاول ان تصدم جارك ؟ ام على العكس تتجنبه ؟ ضع علامة × على الرسم المناسب .



٥٦ يمنعك والدك من القيام بنزهة . ماذا ستفعل الا تقول شيئاً " ؟ ام تكشر ؟ ام تبكي ؟ ام تعترض ؟ ام تذهب رغم المنع ؟ ضع خطاً " تحت احد هذه الاجوبة .

٥٧ تمنعك والدتك من القيام بنزهة . ماذا ستفعل الا تقول شيئاً " ؟ ام تكشّر ؟ ام تبكي ؟ ام تعترض ؟ ام تحاول الذهاب رغم المنع ؟ ضع خطاً " تحت احد هذه الاجوبة

٥٨ عهد اهلك بك لشخص ما . يمنعك هذا الشخص من التنزه . ماذا ستفعل ؟ الا تقول شيئاً " ؟ ام تكشر ؟ ام تعترض ؟ ام تبكي ؟ ام تحاول الذهاب رغم المنع ؟ ضع خطاً " تحت احد هذه الاجوبة .

٥٩ انتهيت من نقاش مع شخص خدعك . هل تصفق الباب حين تتركه ؟ ام تغلقه بصورة طبيعية ؟ ضع خطاً " تحت احد هذه الاجوبة ؟ .

٦٠ لقد أعطوك تذكرة لتتمكن من الدخول إلى السينما . هل تضع بعناية التذكرة جانبا " ؟ أم أنك تتسلى بتلويها بين أصابعك ؟ ضع خطا " تحت أحد هذه الاجوبة

٦١ هل حالة دفاترك حسنة ؟ أم أنها مجعدة قليلا " ؟ أم أنها مجعدة كثيرا " ؟ ضع خطا " تحت احد هذه الاجوبة .

٦٢ عندما تفتح علبة ملبس هل تأكلها على مهل وتجعلها تدوم طويلا " ؟ أم أنك تأكلها بسرعة حتى بعد الاخرى ؟ ضع خطا " تحت احد هذين الجوابين .

٦٣ عندما تبدأ عملا " ما هل انت على عجل لتنتهي ؟ أم انك تأخذ وقتك ؟ ضع خطا " تحت احد هذين الجوابين .

٦٤ هل تحب أن تغير شغلك غالبا " ؟ اكتب الجواب تحت هذا الكلام .

______

______

٦٥ هل تحب ان تغير محل عملك غالبا " ؟ اكتب الجواب تحت هذا الكلام .

______

______

٦٦ هل تحاول أن تمر امام المرآة لتتطلع الى صورتك ؟ اكتب الجواب تحت هذا الكلام .

______

______

٦٧ عندما تشتري ثيابا " جديدة هل ترغب في أن تلبسها ليعجب بها عدد كبير من الأشخاص ؟ اكتب ذلك تحت هذا الكلام .

______

______

٦٨ عندما تتنزه في المدينة ما هي واجهات المحلات التي تثير اهتمامك اكثر من غيرها ؟ اكتب الجواب تحت هذا الكلام .

______

______

______

٦٩ ما هي الألعاب والتسليات التي تحبها أكثر من غيرها ؟ اكتب الجواب تحت هذا الكلام .

______

______

______

D. BERNAS S. A.
Imprimeurs-Editeurs
43, Rue Vieille-du-Temple - PARIS-4e





١ ـ الإنسان والتاريخ أثر التاريخ وتأثره بسيكولوجية الفرد
٢ ـ الإنسان والجغرافيا أثر الجغرافيا وتأثرها بسيكولوجية الفرد

تأتي بعدها الكتب التالية :

٣ ـ أيها الطفل من أنت ؟ دراسة سيكولوجية تتناول الطفولة بشكل عام
٤ ـ واقع الحرب وانعكاساتها على الطفل حالة خاصة : الطفل اللبناني
٥ ـ مواقف الأسرة العربية من اضطراب الطفل حالة خاصة : الأسرة اللبنانية
٦ ـ موقف الطفل من والديه كثنائي «كوبل» يجمعهما معاً
٧ ـ عذراً أبي { الجزء الأول : المشاكل المطروحة عن غياب الأب في الأسرة / الجزء الثاني : إمكانيات تعويض لهذا الغياب }
٨ ـ أمي .. أنا بحاجة إليك ، لا تتركيني
٩ ـ رفيقي .. تعال نكتشف العالم معاً
١٠ ـ إيه أيها التلفزيون ، كم تثيرني !
١١ ـ واقع التربية في المجتمع الشرقي المعاصر دور المعلم في خفض حدة الاضطراب النفسي عند الطفل
١٢ ـ الطفل المعاصر والدين



منشورات جروس برس
طرابلس - لبنان